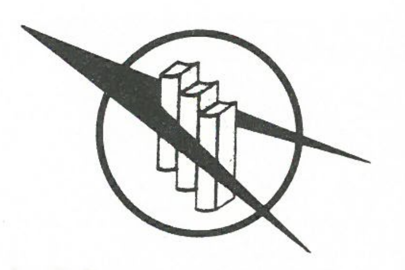
ديوان النهضة

محمّد رشيد رضا

اختار النصوص وقدم لها
أدونيس وخالدة سعيد

دار العلم للملايين
ص.ب: ١٠٨٥ - بيروت
تلكس: ٢٣١٦٦ - لبنان

دار العلم للملايين
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر
شارع مار الياس - خلف ثكنة الحلو
ص.ب ١٠٨٥ - تلفون: ٣٠٤٤٤٥ - ٨١٦٦٣٩
برقيا: ملايين - تلكس: ٢٣١٦٦ ملايين
بيروت - لبنان



الطبعة الأولى
نيسان (ابريل) ١٩٨٣

مقدمة

- ١ -

لا يمكن في رأينا، أن نفهم فهماً حقيقيًّا فكر الشيخ محمد رشيد رضا، أو سواهُ من المفكّرين المسلمين في عصر النهضة، الّذين اتُّفق على تسميتهم بـ «الإصلاحيين» وأن نفهم بالتّالي دورَهُ ومكانته، إلاّ بردِّ هذا الفكر إلى جَذْرهِ الأساسيّ أوّلاً.

هذا الجذرُ هو الإسلامُ، وحْياً وسُنّةً؛ ولا بُدَّ، بادىءَ بَدْءٍ، من أن نلاحظَ أنّ النّتاج الذي تركه محمد رشيد رضا لم يضَعْ هذا الجذْرَ موضعَ تساؤلٍ، ولم يُعِد النّظرَ في المشكلات أو القضايا الأساسيّة التي شغلت المفكّرين المسلمين قبله. وهذا يعْني أنّهُ ينطلِقُ في مواجهةِ قضايا «النّهضةِ» مؤمناً إيماناً قبْليًّا بهذا الجذر، وبأنّه الحقُّ الكامل المُطلَق، وبأنّه وحدَه الصحيح.

إذاً، سيكون تفكيرُهُ نوعاً من التفقُّه في المشكلات التي ولَّدتْها المجابَهةُ مع الغرب: خارجيًّا، كيف تكون العلاقة معه؟ وداخليًّا، ما العَمَل للنهوض؟

من وجهة النّظر هذه، لا تبدو المسألة في هذا الفكر تجديداً للإسلام، أو صياغةً جديدةً لمضمونه العقديّ، أو إعادة نظر فيه جزئيًّا أو كليًّا، وإنّما المسألة، هي فهم المشكلات في ضوئه، بما هو وكما هو، والعمل بِمُقْتَضى ذلك. وستكون النّهضة إذاً بسيطة واضِحة: العَودَةُ إلى الإسلام الصحيح.

كيف يرى رشيد رضا إمكان هذه العودة؟ بخُطَّةٍ إصلاحيّة – تعليميّة دينيًّا واجتماعيًّا، ذلك أن «الإصلاح الحقيقيّ مستحيلٌ من دون دمْج الإصلاح الدِّيني في الإصلاح الاجتماعي[1]». وواضحٌ أن الإصلاح السياسيّ هُنا مُرْجَأٌ، أو بالأحرى، ليس هَدفاً مُباشِراً، وإنّما هو هدَفٌ يأتي كنتيجة للإصلاح الدينيّ – الاجتماعي. فمحمد رشيد رضا شديد الحذر، في دعوته للنُّهوض، من السّياسة، وممّا هو سياسيٌّ. وفي هذا الصّدَد يتبنّى موقف أستاذه الإمام محمد عبده الذي يُوضِحُه، قائلاً عن الإمام بأنّه: «استقرّ رأيُه في أواخرِ عُمْره على الإصلاح الديني والاجتماعي واللُّغوي فقط، وترك السِّياسَة بتَّةً. وعندنا كتابة في ذلك بخطِّه لعلّنا نطبع صورتها الفوتغرافيّة في تاريخِه عند الكلام عَلى سياستهِ. وعندما كان يشتغِل بالسياسة كانت قاعِدَةُ عمله مُقاومَةَ الاستبداد وجعل سُلطة الأمّة في أيديها بحيث لا يَبْقى لحُكّامها منفَذٌ للاستبدادِ فيها.

أمّا الجريدة فهي تنفيذٌ لفكرتهِ من حيثُ هي لجماعةٍ من الأمّة لا لفردٍ منها وقد كتبْنَا في الجُزْء الثاني من مَنار هذه السَّنة (ص ١٦٠) أنّها تنفيذٌ لرأيهِ، وزدنا على ذلك قولنا «وإن لم تكن كما كان يريد من كلِّ وجه» فقد كان يريد أن تكون الجريدة التي دَعَا في آخرِ عُمره إلى إنشائها اجتماعيّة أدبيّة زراعيّة أكثر مما هي سياسيّة، وأن يكتَب فيها كلَّ يوم عن الأخلاق والعادات والتقاليد الفاشِية في البلاد، وأن لا يكتب فيها عن سياسة الدُّول

(١) محمد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، القاهرة ١٩٣١، الجزء الأول، المقدّمة

أكثر من عمود أو عمودين في العدد يلخّصُ في ذلك النّابت الذي فيه عبرة وفائدة للجمهور[1]».

لعلَّ هذا الحذر يعود إلى الخِبْرة، وخُصوصاً، إلى القناعة التي تولّدت في نفسه من النتائج التي أدّى إليها نشاط الأفغاني. فقد وصف عمل الأفغاني على تحقيق «الجامعة الإسلاميّة» بقوله: «إنَّه سعى إليها من الطريق الأقرب، طريق تنبيه الحكومات المسلمة المستقلَّة إلى الاتحاد». ولكنَّ هذا السَّعْيَ، كما يُتابع، لم ينجح، بل كرِهَها بعض الحاكمين لأنَّ في الاتِّحاد مضيَعةً لحكمهم، وأباها بعضُهم الآخر، جهلاً أو كُرْهاً مع علمه بفائدتها[2]. وهو، استناداً إلى ذلك، يُفسِّر انعطاف الأفغاني ومحمد عبده إلى الإصلاح الدِّيني، بفشل «الدّعْوَة السياسيّة» المُباشرة وقد تجسَّد نهج «الإصلاح الديني» في مجلّة العُرْوةِ الوُثقى (١٣٠١ هـ/ ١٨٨٤ م).

من هُنا نُدرك السرَّ في مَيْله إلى التركيز عَلى الإصلاح الدِّيني بجدِّيّةٍ وعلى العَمل السياسيِّ بشكْلٍ مُداورٍ، ولقد أعْلَن ذلك صراحةً في قوله: إنّه أسَّس مجلّة المنار «لإحياء تعاليم العُروة الوُثقى» ويعني: «تعاليمَها الاجتماعيَّة وقواعِدَها التي وضَعَتْها الوَحْدَةُ الإسلاميَّةُ» مُضيفاً إلى ذلك «البحث في جُزْئيّات البدَع، وتفصيل القَول في التّعاليم الفاسدة والعقائد الزّائفة، والتربية المفيدة». وتوكيداً لذلك، أشار إلى أنَّ المنار تسيرُ في طريق «العُروة الوثقى» «إلاّ ما كان فيها من السّياسة، التي تتعلّق، بالمسألةِ المصريّة، والتحريض على الانكليز، فإن هذا أمْرٌ ذهَب بذهاب وقْتِه».

(١) المنار، المجلّد ١٠ الجزء ١١ ص ٨٤٥ (٤ كانون الثاني ١٩٠٨).

(٢) الجامعة الإسلاميّة وآراء كتّاب الجرائد فيها، المنار مجلد ٢، جزء ٢٢، ص ٣٧٧ (١٨٩٩/ ١٣١٧ هـ).

هكذا أهمل الدّعوة إلى « الإصلاح السياسيّ » بشكل مباشر، معتقداً أن الأمر السياسيَّ يتمّ عن طريق « الإصلاح الدينيّ – التربويّ » ذلك أنّه نتيجةٌ له.

– ٣ –

لكن ما المقصودُ من « الإصلاح الديني » عند محمد رشيد رضا؟ إنّه لا يقصد أيَّ نوع من إعادة النّظر في الإسلام كدين، وإنّما الذي يقصدُه هو «.ما يؤدّي إلى المحافظة عَلى الدِّين، والعمل به، وجمع المسلمين »(١). ولهذا الإصلاح وسائلُ وطرقٌ لا يتمُّ إلاّ بها. فهو، مثلاً، لا يتمُّ « بعَمارةِ المساجد والتَّكايَا، ولا بالإنعام عَلى بعض الشُّيوخ، أو أهل الحجاز، بالرُّتَب والرَّواتب والوسامات »، فلكي يتمّ حقّاً لا بُدَّ « من أعمالٍ تُناطُ بالحكّام »، وأعمالٍ « تُطْلَبُ من العُلماء، وأصحاب الوظائف الدِّينيّة كالأئمّة والخُطباء والمدرسين » وأعمالٍ « تتعلَّقُ بالبلاد الحجازيّة ». قِوامُ هذا الإصلاح « جمع كلمةِ المسلمين عَلى عقيدةٍ واحدةٍ، وأصولٍ أدبيَّة واحدة، وقانونٍ شرعيٍّ واحد، لا يَحكُم عليهم غيْرُهُ في أيِّ نَوْعٍ من الأنواع، ولُغَةٌ واحدة (العربيّة) »(١). ويرى أنّ من الضروريِّ لتحقيق هذا الإصلاح « تأليف جمعيّة إسلاميّة تحت حماية الخليفة، يكون لها شُعَب في كُلِّ قُطْر إسلامي، وتكون عُظْمَى شُعبها في مكّة المكرّمة، الّتي يؤمُّها المسلمون من جميع الأقطار، ويتآخون في مواقعها ومعاهدها المقدّسة ». ويجب أن تضع هذه الجمعيّة لنفسها ثلاث مهمات أساسيّة:

أ– تلافي البِدَع والتعاليم الفاسدة قبل انتشارها،

(١) الإصلاح الديني المُقْتَرح على مقام الخلافة الإسلاميّة، المنار، مجلّد ١، جُزء ٣٩، ص ٧٦٥ (١٨٩٨/ ١٣١٦ هـ).

ب– إصلاح الخطابة،

ج– الدّعوة إلى الدِّين(١).

ومن شأن هذه الجمعيّة أن تُؤالف بين الحكومات الإسلاميّة، فتُظهِر الأخوة الإسلاميّة فيها، وتتّحِد لتصدَّ هجمات أوروبا وتضع حدًّا لمطامِعها.

هكذا يرى رشيد رضا أنّ « الإصلاح أو النُّهوض إنّما يتم بالتعليم الدِّيني والتربويّ الصحيح، وأنّ عَلى هذا التّعليم يتوقّف كذلك الاتِّحاد الإسلامي »(٢). لكن لا بُدّ لهذا الإصلاح لكي يتمّ على الوجه الأكمل، من أن تتوفَّر له شروط ثلاثة تَتَّصِل بطبيعةِ الحكم، وباستعدادِ الأمّة، وبطريقةِ الإصلاح نفسه.

من النّاحيةِ الأولى لا بُدَّ من أن يكون الحكم شورى، يُؤمِّن العَدْل والمساواة، ويختار لإدارةِ شؤون البلاد والنّاس رجالاً جديرين مخلصين يكونون « أجراء للأمّة » لا سادةً أو مستبدين(٣). ومن الناحيَةِ الثّانيَةِ، لا بُدَّ من تغيير أفكار الأمّةِ وأخلاقِها، بالتعليم والتربية لكي ينشأ لدَيْها استعدادٌ لتقبُّلِ الإصلاح، ولكي تكون الشُّورى انعكاساً أو امتداداً لارْتِقاء الأمّة، لا مُجرَّدَ تنفيذٍ لأمرٍ دينيٍّ؛ فحكْمُ الشّورى في أُمّةٍ يقتضي أن تكون على مستوىً رفيع في العِلْم والخُلق، ومن هُنا كان حُكْمُ الشُّورى في الإسلام قصيراً « لأن ذلك المجموع المؤلّف من جميع الشعوب والأجناس لم يكن مُسْتعداً لأن يكون مُسيطِراً عَلى حاكميه لقلّةِ معارفهِ الاجتماعيّة، ولانتقاءِ الوَحدة الّتي تجعل الأمّة كرَجُلٍ واحِد. »(٤). أمّا من النّاحيةِ

(١) المصدر السابق ص ٧٦٥ – ٧٦٦.

(٢) الجامعة الإسلاميّة وآراء الكتّاب فيها، المنار، مجلّد ٢ الجزء ٢٢ ص ٣٤٥.

(٣) المنار ٢/ ٢١، ص ٣٢٧، و ٢/ ١٠ ص ١٠٩.

(٤) المصدر السابق ص ١١٠.

الثالثة، فإن هذا كلّه لا يتم إلاّ إذا كانت الطريقة صحيحةً. وهناك مستويان لهذه الطريقة: مُسْتوَى «الظّواهر» و «الصُّور السطحيّة» حيْثُ يرى البَاحثون في العُمْران والمشتغلون بعلم الاجتماع، بعد النّظر في تاريخ الأمم أنّ كُلَّ إصلاح وُجدَ في العَالَم، فإنّما كان بواسطةِ رجالٍ فاقوُا شعوبهم ببُعْدِ النّظر وصِحّةِ الفكر وعُلوِّ الهمّة وقُوّة العزيمةِ والإرادة، فتقدّموهم وارْتَقوا بهم إلى المكانة العاليةِ والمنزلةِ السّاميَة، ولا فَصْلَ في هذا بيْنَ الإصلاح الدِّيني والعلمي والإصلاح الماديِّ والسياسيِّ. ومستوى «اكتناه الحقائق والأعماق»، إذ لم يقم «مصلحٌ في أمَّةٍ من الأمم بعملٍ من الأعمال تغيّرت له حالُ الأمّة وارْتَقت بهم من الحضيض إلى القِمَّة، إلاّ بَعْد أن استعدّت تِلْك الأمّة لقَبُول ذلك الإصلاح بتأثير الزّمان وتقلُّب الحدثان وانتشار العِلم والعِرْفان»[1].

وهذا كلّهُ ليس كافياً، وإنّما ينبغي أن يتوفّر داعيةُ الإصلاح أو «الزعيم الدّاعي إليه عن طريقهِ الطبيعيّ، مع الكفاءة والاضطلاع»، ولا يعدو هذا الزّعيم أن يكون أحَدَ اثنيْن: «إمّا داعٍ ذو بيانٍ يستصرخُ الشُّعورَ والوجدان ويستنفرُ العَقْل والجَنَان، دالاًّ عَلى طريق الإسعاد، هادياً إلى سبيل الرَّشاد» و «إمّا مَلِكٌ مستبدٌّ حكيم مُسْتَعْبِدٍ على أمّةٍ خاملَةٍ ورعيّةٍ جاهلة، يحملُها بالقَهْرِ والإلزام، على ما يُطْلب ويُرام، ولكنّ الأوّلَ يحتاجُ من ذلك إلى أكثر مما يحتاجُ إليه الثاني، لأنّهُ يدْعو النُّفوسَ إلى العمل باختيارها، وإنّما العَمَلُ الاختياريُّ، ما توجّهت إليه الإرادةُ بباعثِ العِلْم والإذعان. (...) وإذا عجز المستبدُّ عن التسلُّط على الضمائر والسّيْطرَة على

(١) الإصلاح والإسعاد على قدر الاستعداد، المنار، ٤/ ١٨ (١٣١٩ هـ/ ١٩٠١ م) ص ٦٨٢.

السَّرائر، فلا يعجَزُ عن التصرُّف بالظّواهر، بأن يُلْزِمَ النّاس بالأفعال النّافعة وإن لم يعتقدوا نفعها، حتّى إذا جاء وقْتُ الجَنْي والقُطوف، عرَفُوا ما لم يكن بمعروف، فكانوا كمن يُقَاد للجنةِ بالسّلاسل.»[1].

على أنّ هذه الآراء اتّضَحت واكتملت بما أُضيفَ إليها فيما بعد من أن الحاكم ليْسَ وحْدَهُ مسؤولاً عن الإصلاح، وإنّما الشّعْبُ مسؤولٌ أيضاً، وإذا «قصّرَ الأول فلا ينبغي أن يُقصِّرَ الثاني»[2].

وكانت مسؤولية الشّعب خُطْوةً، لكي يُعلن مَيْلَه، خصوصاً بعد أن عرف بشَكلٍ أفضل «منافعَ الأوروبيين ومضارّهم»[3] إلى ما يُقرِّره عُلماء الاجتماع، وهو أنّ «العلّةَ الأولى لارتقاء الأمم هي الجمعيات»، فلا ترتقي الأمّة «إلاّ بعد أن تنبّهَ حوادثُ الزّمان أفراداً من أولي الألباب فيها إلى وجوب السَّعْي لترقيتِها ورفْعَةِ شأنها، بوساطةِ الجمعيّات السِّياسيّة السريّة والجهريّة، الدِّينيّة الخيريّة والعلميّة والفنيّة والماليّة، فهذه هي السّبب الأوّل والعلّةُ الأولى لكلِّ ارتقاء. بها صَلُحَت العقائِد والأخلاق في أوروبا، وبها صَلُحَت الحكومات، وبها ارتقت علومُها وفنونُها، وبها عزّت وعَظُمَت قوّتُها، وبها فاضت ينابيعُ ثروتِها، وبها انتشر دينها بيْنَ الخافقيْن، وبها سادت على المشْرِقيْن والمغْرِبيْن»[4].

ويذكِّر هنا رشيد رِضا بأنّ الشّرْق سَبَق الغرب في الارتقاء «لكنّ

(١) المصدر السابق نفسه ص ٦٨٣.
(٢) تعليقاً على ما كتبه رفيق العظم، بعنوان: من المسؤول، الحكومةُ أم الشعب؟ المنار ١/ ٤٥ (١٣١٦ هـ/ ١٨٩٩ م) ص ٨٧١ - ٨٧٢.
(٣) في حدود سنة ١٩٠٧ م/ ١٣٢٥ هـ.
(٤) منافع الأوروبيين ومضارُّهم في الشّرْق، المنار: ١/ ٥٠ (١٣٢٥ هـ/ ١٩٠٧ م) ص ٣٤٢.

المدنيّة لم تكمُلْ في الشّرْق، ولم تُبْنَ عَلى قواعد تُثَبِّتُها وتنمّيها، ولذلك سقطت - ويعود سقوطها إلى أنّها لم تكن عمل جمعيّاتٍ بل عملَ أفرادٍ، ويرى، بالمُقابل، أنَّهُ لولا الجمعيّات، لما كانَت مدنيّةُ الغرب الحديثة أرْقَى وأكمل، وأجْدَر بأن تكون أثْبَتَ وأدْوَم »[1].

بهذا، يبدو لنَا أنّ الهاجسَ الرئيس لرشيد رضا لا يكمُن في العمل السّياسي بخلاف قول الأفغاني، وإنّما يكمُن في الإصلاح بمستويَيْه الدّيني والاجتماعي. وحين يكون هذا الإصلاح ناجحاً يؤدّي إلى نوعٍ من الاتّحاد بين الحكومات الإسلاميّة. وهُوَ إذاً، كان يحذِّر من الدّعْوةِ السياسيّة المباشرة، لإقامةِ الجامِعَة الإسلاميّة سياسيًّا، لأنَّ في ذلك عِداءً لأوروبًّا قد يؤدّي إلى مجابهةٍ معَها، عدا أنّه يحرّك أحْقَاد غيْرِ المسلمين الذين يعيشون في الأقطار الإسلاميّة[2].

ولعلّ في هذا الموقف ما يُفسِّرُ تَعاطُفَهُ مع حزْب الاتّحاد السوري الذي كان يَرْئسه ميشال لطف الله، حتى إنّه عمل فيه كنائب للرئيس. ويوضّح هذا التّعاطُف قائلاً بأنّه رضي أن « يكون من مؤسّسي هذا الحزب المخالف لمذهبِهِ السِّياسي في الجامعة العَربيّة، من وجوب اتحادِ جزيرة العَرب، بالولايات العربيّة العُثمانيّة، للحِرْص عَلى تَعاونِ المسلمين مع النّصارى على طلب الاستقلال التّام النّاجز لسوريّة، بعد أن أطال الدّعْوةَ إلى مذهبه، فلم يستجبْ لهُ من فُضَلاء النّصارَى بمصر إلاّ أفرادٌ قليلون، ولأنّ التّعاوُنَ على استقلال بعضِ الأقطار العربيّة، لا يُنافي السّعْي لاستقلال سائرها من طريقٍ

(١) المصدر نفسه ص ٣٤٢.

(٢) محاورة في دعوى ضرر الدّين والجامعة الإسلاميّة، المنار: ١/ ١٦/ ص ٢٨٤.

آخر.[1] ». وبدافعٍ من هذا الحرص الآنف الذّكر، كان يُعارضُ النّزعَة الانفصاليّة اللبنانيّة عن الحركةِ الاستقلاليّةِ في سوريّة، سواءٌ بشكلها الذي دَعَا إليه البطريرك أنطون عريضة المتمثّل « بلبنان وطن مسيحي[2] » أم بشكلها الذي دَعَا إليه البطريرك إلياس الحويّك والمتمثّل بدولة « لبنان كبير » تحت الوصاية الفرنسيّة.

ولعلّ في هذا كلِّه، ما يُفَسّر اعتدالَه في مفهومِه الذي طرحَهُ لَمَا سُمّي بـ « الجامعةِ الإسلاميّة » فهو مفهومٌ يمكن وصفه بأنّه « فِقْهيٌّ » خالِصٌ من « السِّياسة » ومُصْطَبغٌ بالتّسامح. يقول شارحاً هذا المفهوم: « إنّ للجامعةِ الإسلاميّةِ طرفَيْن: الأول يضمُّ المعتقدين بالدِّين الإسلامي، ويربطهم برابطةِ الأخوة الإيمانيّة، حتّى يكونوا جسْماً واحداً، والثاني هو الذي يربط المُسْلم وغيْرَه من أرباب المِلل برابطةِ الشّريعة العَادلة التي يُحكَمون بها جميعاً بالمساواة. »[3].

- ٤ -

في ضوء ما تقدّم، يمكن القَول: إن الإصلاح الذي دَعَا إليه محمد رشيد رضا لم يكن غايَةً بحدّ ذاته، وإنّما كان وسيلةً إلى صيانةِ الدّين وتمكين سيطرتِهِ بوساطةِ الدّولة، والاهتمام بالسِّياسةِ آتٍ من الاهتمام بضرورةِ وجود

(١) المنار، مجلّد ٢١، جزء ٤، ص ٢٠٣.

(٢) يعلّق رشيد رضا على هذه الدعوة بقوله: « يا حَسْرة على لبنان، كان مُتمتّعاً باستقلال عديمِ المثال فَسَلَبَتْه منه الأم الحنون وجعلته شرَّ آلةٍ لسلب استقلال سوريّة كلها، وأبناؤه البَرَرَةُ لها، لا يشعرون: فلا قوميّة، ولا وطنيّة، ولا سياسة، ولا إدارة، فأين كانوا يدّعون؟ » (المنار، المجلد ٣٣، ص ١٥٦).

(٣) الجنسية والدّين الإسلامي، المنار (١٣١٧ هـ/ ١٨٩٩ م) مجلّد: ٢، جزء ٢١ ص ٣٢٦ - ٣٢٧.

دولة إسلاميّة قويّة تحفظ الدِّين الإسلاميّ وتُدافع عنه؛ بل إنّ مواجهة أوروبا كانت في الأساس، بالنّسبَةِ إليه، سياسيّة، تُمليها هذه الضَّرورَة. إنّها تجيء من جهةِ الحرص على الدِّين أكثر مما تجيء من جهةِ الحرص على «الوطن» أو «القوميّة». أو بتعبير آخر، لا يمكن الحِرْص على «الوطن» أو «القوميّة» إلاّ بالحرص على الدِّين أوّلاً، وإيمان الجماهير بمبادىء هذا الدِّين إيماناً صحيحاً، والعمل بها. ويمكن، بحسب هذه النظرة، مهادنة أوروبّا حين لا تُعارض وجود سُلْطة إسلاميّة تصون الدِّين في ما تقوم عليه، ذلك أنَّ السِّيادة، في هذه الرُّؤية، إنّما هي دينيّة، في المقام الأوّل، قبل أن تكونَ «وطنيّة» أو «قوميّة»، خصوصاً أن «الحقيقة» إنما هي، جوهريًّا، إسلاميّة، ولهذا لا بُدَّ لَها من سُلْطةٍ إسلاميَّة. إنّ هذه الحقيقة لا تنفصِل عن السُّلْطة، بل لا يمكن تصوُّرها دُون سُلْطة، ومن هنا نفهم الدّلالة العميقة في الحرص المُطْلَق على الدولة الإسلاميّة، وعَلى وحْدتِها - رمز القُوّة، ونفهم الدّلالة العميقة في كون هذه الوحدة توجِبُ طاعَةَ المتغلّب بالقُوّة، وإن لم يكن حائزاً لغَيْر الإسلام، من شروط الخلافَةِ الشّرعيّة، ومنها النّسبُ القُرَشيّ، والمُسْتَنَدُ في ذلك «رعايَةُ المصلحة الرّاجحة وخوفُ الفتنة[1]».

في هذا الضَّوء كذلك، يتضح رأي رشيد رضا في الأسباب التي جعلت العَرب لا يَسْعَوْن إلى المُطالبة، بالانفصال عن الدّولةِ العُثْمانية، وتأسيس دولةٍ خاصّة بهم، بعد تأزّم العلاقات العربيّة - التُّركيّة بدءاً من سنة ١٩١٠، أيْ بعد استفحال «العصبيّة التركيّة» يقول: «إنّ عدَم تصدّي العرب لإنشاء دولةٍ جديدة لم يكن سببُهُ الخوف من قُوّة الدَّوْلة كما كان يتوهَّمُ التُّرك، فإنّ العَرَب أقوى من اليُونان والبلغار وغيرهما من الشعوب

(١) محمد رشيد رضا، المنار، مجلّد ٢٠، جزء ١ ص ٤١ - ٤٢ (١٩١٧ م).

التي انفصلت من السَّلْطنة العُثمانيّة وصارت دُوَلاً مستقلّةً. ولم يكن سبَبُه تفرُّق العرب وتعذُّر اتّفاق أمرائهم وزُعمائهم كما يتوهَّم الكثيرون منهم، وإنّما كان السَّببُ الصحيح لسكون العرب وسكوتهم عن طلب استقلالهم، وتجديد دولةٍ لهم، هو الإسلام وأوروبّة»[1]. ومعْنى ذلك أنّ الإسلام «أزال من أنْفُس العرب عصبيّةَ الجنسيّة» ليؤسِّسَ عصبيّةَ «الأخوّةِ الإسلاميّة» وأنّ عدمَ المُطالبة العربيّة بدولةٍ خاصّةٍ بالعرب عائدٌ إلى التخوُّف من الانقسام والتجزُّؤ اللّذيْن يؤدِّيان إلى الاحتلال الأوروبي للأرض العربيّة (العثمانيّة).

لكن لم يكن بُدٌّ من «الاحتياط» خصوصاً بعد أن ظهر عجز الدَّولة العُثمانيّة (دولَة الاتحاديين) عن الوقوف في وجْه الغزو الأوروبي للبُلْدان العربيّة، الذي تمثّلَتْ خطوتُهُ الأولى في احتلال إيطاليا لليبيا سنة ١٩١٢. هكذا يتبنّى رشيد رضا ثورة الشريف حسين لأنّها، من جهة، ثورة على «الاتّحاديّين الملاحدة» (كما يصفهم) الذين خرجوا عن الإسلام الصّحيح واتّبعُوا سياسة التّنْكيل بالعرب، ولأنّها من جهة ثانية توفّر إمكان تأسيس دولة إسلاميّة بديلة، فهي بمثابةِ «الاحتياط لما يجبُ إذا سقطت الدّولة»[2] (العثمانية). ويوضّح موقفَه قائلاً عن الشريف حسين إنَّ «العمل لإنقاذ الدَّوْلةِ نفسها من الخطر قد أصبح فوقَ طاقتِه وطاقةِ غَيْرِه، فرأى أن يبدأ بالمُسْتطاع، وهُوَ إنقاذُ الحجاز، مهد الإسلام، ومَشْرق نوره، مما نزل بِهِ من البلاء والشّقاء، ثُمَّ إنقاذُ غيرِه ممّا يُمكن إنقاذُهُ من البلاد العربيّة ليكون ذلك بيئةً لحفظ الاستقلال الإسلامي وعدم زواله، ممّا يُخشَى ويُتَوقّع أن

(١) المنار، مجلّد ٢٠، جزء ١، ص ٤٤.
(٢) المنار، مجلد ٢٠، جزء ٦، ص ٢٨١ (شباط ١٩١٨).

يحُلَّ بالدَّولةِ العُثمانيّة، والعياذ بالله تعالى »[١].

وهو إذاً يُفسِّرُ ثورةَ الشّريف، لاستقلال الحجاز، بأنّها « خدمَةٌ للإسلام » وليسَت بالضّرورة عِداءً للدّولة العُثمانيّة. يقول: « كلنا نعْلَم أنّه لا يُوجَد في الدُّنيا كُلِّها مكانٌ يصلح لتأسيس دولةٍ إسلاميّة – تخلف الدَّولة العُثمانيّة، إذا وقعَ بها ما نخشاه عليها، إلاّ جزيرة العرب وما يتّصل بها من البلاد العربيّة[٢].. »(...) وهكذا لا بُدَّ من التلازم بينَ حقيقة الإسلام وسُلْطَة الإسلام. ولا شَكَّ في أنّ هذا الحرص على استمرار الدَّولة الإسلاميّة وسُلْطتِها يعكس وعْياً حادًّا بالخطر الخارجيِّ الأوروبي، سواءٌ على الصعيدين السِّياسي والثقافي، فبدون سلطةٍ إسلاميّةٍ يهدِّد الخطر المجتمع الإسلاميَّ كهويّة، من جهة، والانهاك بتأسيس السُّلْطة يتضمّن المجابهة مع أوروبا، من جهة ثانية. لذلك لا بُدَّ من خُطّةٍ تضع، في آنٍ، الحدودَ الفاصِلة بين أوروبّا والإسلام، وتقيم الحدودَ الواصِلةَ. وهذا مما يقتضي أن نوضحَ مفهوم التجديد عند السيد رشيد رضا.

– ٥ –

التّقدُّم في المُطلق هبةٌ من الله للبشر، فالله يمنح كُلاًّ منهم، بالتدريج « من هداية الوَحي في كلِّ طور من أطوار حياتهم الاجتماعيّة، ما هو مستعدٌّ له وصالحٌ لحاله وزمانه ». وقد أدّت « سُنّةُ التدريج » إلى أنْ « استعدَّ النّوع البشريُّ في جملته ومجموعه، لفهم أعْلى هداية إلَهيّة، لا يحتاج بعْدَها إلاّ لاستعمال عقله في الاهتداء بها، في كلِّ زمانٍ ومكان بحسبها، فوهبَه هداية القرآن، وختَم النبوّة برسالةِ محمّد عليه الصلاة والسّلام » فالإسلامُ، هو

(١) المصدر نفسه، ص ٢٨٥.
(٢) المصدر نفسه ص ٢٨٧.

الهدايةُ المطلقةُ الكامِلَة: لا هداية قبله، ولا هدايةَ خارِجَه ولا هداية بَعْدَهُ، وهُوَ إذاً أصْلُ التقدُّم ومداره، وأصْلُ التجدُّد ومدارُه. غَيْرَ أن تأثيرَ الوَحْي في قلوب النّاس وعقولهم، قد يضعف مَعَ الزّمن فيتخلّفون ويَنْحَطّ شأنهم، ولا يتم الخروج من ذلك إلاّ « بإحياء هداية النبوّة فيهم »، أيْ أنّه لا يتم باللجوء إلى هدايةٍ أُخْرَى. إنّ تخلُّفَهم وانحطاطهم يكمنان عَلى العكس، في البُعْد عن هدايةِ النبوّة، وتجدُّدَهم وتقدُّمَهم، مشروطان بالعودة إليها. والشخص الذي يدلُّهم على طريق هذه العَودة هو المجدِّد، وهُو لا يظهر بينهم عفواً أو بإرادته، وإنّما اللهُ هو الذي يُنْعِمُ به عليهم، ويبعثه بحسب الحاجة إلى التجديد ».

ليس التجديد إذاً، تجديداً في « الأصل » أيْ في الوَحْي أو الدِّين، وإنّما هو تجديدٌ في عقول البشر لكي يتمكّنُوا من العَوْدةِ إليه وفهمه الفَهْمَ الصحيح، أو هو تجديدٌ « لما أبلَى النّاس من لباس الدِّين، وهدمُوا من بُنْيان العَدْل بَيْن النّاس ». وقد دعت الحاجَةُ إلى التجديد بدءًا من القرن الثاني « فكان الإمام عُمَر بن عبد العزيز مجدِّداً لما أبْلَى قومُه بنو أميّة وأخْلَقُوا، وما مزّقوا بالشِّقاق وفرَّقوا. وكان الإمام أحمد بن حنبل مجدِّداً في القرن الثالث لما أخْلَق بعضُ بني العبّاس من لباسِ السُّنَّة، ورَشاد سلَفِ الأمّة، باتِّباع ما تشابَهَ من الكتاب ابتغاءَ الفِتْنَة وابتغاءَ تأويله، وتحكيم الآراء النظريّة في صفاتِ الله، وما ورَدَ في عالم الغَيْب بالقياس عَلى ما يتعارَضُ في عالمِ الشّهادة. وكان الشيخ أبو الحسن الأشعري مجدِّداً في القرْن الرّابع بهذا المعنى، وحجّةُ الإسلام أبو حامد الغزالي مجدِّداً في أواخرِ القرن الخامس وأوّل السّادس لِمَا شبرقت[١] نزغات الفلاسفة وزندقَةُ الباطنيّة، والإمام

(١) مزّقت.

أبو محمد علي بن حزم الظّاهري في القرن السّادس لما سحقت الآراء من فِقْه النّصوص الشّرْعيّة، وشيخ الإسلام ابن تيميّة وتلميذه ابن القيِّم مجدِّدَيْن في آخِر القرن السّابع وأوّل الثامن لجميع ما مزّقت البدَع الفلسفيّة والكلاميّة والتصوفيّة والإلحاديّة من حُلَل الكتاب والسُّنّة السنيّة في جميع الأعمال والعلوم الدّينيّة »[1].

- ٦ -

واضحٌ من هذا النصِّ أنَّ ثَمَّةَ أصْلاً دينيًّا يتمثَّل في الكتاب والسُّنَّةِ وأنّ التمسُّكَ بهذا الأصل والتّطابقَ معَه قوْلاً وعملاً يُحقِّقانِ الجديدَ والخير، والتخلّي والبُعْد عنه، هُمَا اللّذان يُحقِّقَان التخلُّف والشرّ.

مقياس التجدُّد، إذاً، هو في البعد والقُرب من هذا الأصل. ولا يُقْصَد من التجديد، إذاً، إلاّ تجديد الطريق التي انحرفت، والفكر الذي ضلّ، والعمل الذي ساء. التجديد، بعبارةٍ ثانية، هو رَدْمُ الهوّة التي أبعدت النّاس عن الأصل، وَهُو وَصْلُ ما انقطع بين الإنسان والأصل الدِّيني: الكتاب والسُّنّة.

لكنّ هذا على الصعيد النظريِّ، الإيمانيِّ، الدِّيني. فهناك تجديدٌ آخر ضروريٌّ هو « تجديدُ الحياة » بما لا يتعارَضُ مع الأصل الدِّيني، ولا ينهض بمثل هذا التجديد « أمثال أولئك المجدِّدين القُدماء، بالوسائل القديمةِ وحْدَها ولا يطمح إليه صوفيٌّ يستمدُّ قُوّتَهُ من الأموات، ويتّكِل على الكرامات، ويغتَرُّ بالمنامات، ولا يطمع في تذليل صعابِه، واقتحام عُقابهِ غريقٌ في بحار النظريّاتِ العقليّة، ومفرّق الأفكار بنظريّات الفلسفة، ولا

(١) المنار، المجلد ٣٢، الجزء ١ (٣ أكتوبر ١٩٣١)، مقالة: تصدير التاريخ، ص ٢ – ١٥.

يطلع ثناياهُ ويجتلي خفاياهُ، مُنقطِعٌ إلى كُتب الشرائع، واستنباط أحكامِ الوقائع، ولا يتَسامَى إليه من تعلَّم العلوم والفنون العصريّة تعلماً آليًّا ليكون أحَدَ العُمَّال في دائرةٍ من دوائر الحضارة أو ديوان من دواوين حكومتها.

إنّ هذا لبدْعٌ مِن الخطوب الكُبرى غير عاديٍّ، لا ينبعِثُ إلى تلافيه إلاّ بدْعٌ من كُبراء الرِّجال غير عادي.. (...) يجبُ أن يكون ذا رُوحٍ عُلْويّةٍ، أوتيَتْ حظًّا عظيماً من وِراثةِ النبوّة، في كمال الإيمان وحقِّ الإلهام (...) وأن يكون ذا وقوفٍ على حالةِ العَصْر، وتاريخ الشعوب الدِّيني والسِّياسي، وسنَنِ الله في الاجتماع، وفصل الخطاب في الإقناع وفصاحة اللِّسان وبلاغة التعبير، وقُوّة التأثير، ثُمَّ يكون ما يَحذِقُه من سائر العلوم مدَداً لهُ في عمله. »[1].

مثل هذا الرّجل هو وحده الذي يستطيع أن يجدِّدَ الحياة بِهَدْيِ ما يرثُه من النبوّة. ومن المحتّم إذن أن يتمّ التجديدُ الدّنيوي، « تجديدُ الحياة » بهُدى الدِّين.

ويُستفادُ من كلام رشيد رضا، أنّه يقصدُ، من التجديد الدنيوي « العلم الجديد، والفنّ الجديد، والسِّلاح الجديد، والنّظام الدّقيق في السياسة والإدارةِ والمال، والتّعاون بتوزيع الأعمال، واستخدام قُوى الطبيعة ». وهو يصف التجديد الذي تحتاج إليه الحياة الإسلاميّة بأنّه « تجديدٌ استقلاليٌّ كتجديد اليابان ترتقي به مصالحُنا الاقتصاديّة والعسكريّة والسِّياسيّة، وتُنَمّى به ثروتنا الزِّراعيّة والصِّناعيّة والتجاريّة ونكون به أُمّةً عزيزةً ودَوْلةً قويّةً، مع حفظ مقوِّمات أُمّتِنا من دينٍ وثقافةٍ وتشريعٍ ولغة وحفظ مشخَّصاتِها القوميّة من زيٍّ وعاداتٍ حسنَةٍ وأدب ». ويُسمِّي هذا التجديدَ الاستقلاليَّ، بأنَّهُ « التجديدُ المشروع » وهو: « يَشْمل كلَّ ما تَعْتَزّ

(١) المصدر السابق.

نصوص مختارة

به الأمّةُ والدَّوْلَةُ من العُلوم والفنون والصِّناعات والنُّظم الماليّة والإداريّة والعسكريّة والمنشآتِ البريّة والبحريّة والجويّة. فكلُّ ذلك يُعَدُّ في الإسلام من فروضِ الكفايات التي تأْثَم الأمَّةُ كلُّها بتركها والشّرْع لا يُقَيِّدُها فيها إلّا باجتناب الضّرر والضِّرار والظُّلم.». وفي كلِّ حالٍ لا تجديدَ إلا بهدايةِ الدِّين.

- ٧ -

إنّ خيرَ ما يُوصَفُ به فكر السيد رشيد رضا ما وصف به هو نفسُه تفسيرَه القرآن الكريم، بقوله إنه: «سلَفيّ، أثري، مدَني، عَصْري، إرشاديّ، اجتماعي، سياسيّ.»، ففكره، في هذا المستوى توفيقيّ ليس إلّا استمراراً للتوفيقيّة السّلفية التي أرسى أصولها الإمام الغزالي، ووضعها ابن تيمية في منظومة محكمة ومغلقة.

أدونيس

التجديد والتجدّد والمجدّدون[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها السادة

عهدت إلي جمعية الرابطة الشرقية بأن ألقي على حضرتكم في هذه الليلة محاضرة في موضوع التجديد والتجدد والمجددين، كما تفضل زميلي في عضوية إدارتها الدكتور منصور فهمي ببيانه لكم باسمها، فأرجو من حضرتكم الاصغاء والإغضاء عن التقصير. وأبدأ بالتمهيد للموضوع بمقدمة في بيان الحاجة إلى شرحه وتمحيصه فأقول:

---

(١) قدّمت «المنار» للمحاضرة بقولها:

«محاضرة ألقاها صاحب هذه المجلة في نادي الجمعية الجغرافية الملكية، باقتراح جمعية الرابطة الشرقية في إحدى ليالي رمضان سنة ١٣٤٨ وقد حضرها الجم الغفير من العلماء والأدباء وطلبة العلم بالأزهر ونجباء المدارس العالية، وفضليات النساء. وكذا بعض فضلاء المستشرقين من الشعوب الأوربية، وقد سئلوا بعد الفراغ منها عن رأيهم فيها، فشهدوا لها بالاعتدال».

المنار: جزء ١٠، مجلّد ٣١ (تموز ١٩٣١)؛ جزء ١، مجلّد ٣٢، (أكتوبر ١٩٣١)؛ جزء ٣، مجلّد ٣٢ (آذار ١٩٣٢).

المقدمة التمهيدية في حاجتنا إلى التجديد بأنواعه

في هذا العصر المضطرب بأنواع الانقلاب الاعتقادية والفكرية والسياسية والشيوعية والبلشفية، في هذا العصر القلق بالفوضى الدينية والأدبية والاجتماعية، في هذا العصر المهدد بالثورة النسائية، ونقض ميثاق الزوجية، وانقطاع سلك الأسرة، ووشائج الرحم والقرابة، في هذا العصر الذي نجمت فيه قرون الزندقة، والإباحة المطلقة، والهجوم على مقومات الأمة من دين ولغة وأدب، ومشخصاتها من عادات وزي وحسب، حتى لا يبقى فيها شيء ثابت يُرَبّى عليه النشء وتحترمه النابتة.

في هذا العصر الذي أجملت وصفه – وعندكم تفصيله – كثر اللهج بيننا بلفظ الجديد والتجديد والمجددين، ولعمر الحق أننا لفي أشد الحاجة إلى التجديد والمجددين، فإنه لم يبق عندنا شيء يحفظ شخصيتنا القومية، ومقوماتنا الملية، ويرتقي بنا في معارج الحياة الاجتماعية، إلا وقد سحلت مريرته، وانفصمت عروته.

أما ما كان عندنا من حسب قديم، ودين قويم، وحضارة زاهية وملك عظيم، فقد أخلقناه وأبليناه، بل هجرناه فنسيناه، وأما ما حاولنا من اقتباس طريف، وانتحال حديث، فإنا تشبثنا بأهدابه، ولم ننسج شيئاً من أثوابه، فكل ما لدينا من القديم والجديد، فهو من قشور قشور التقليد، كقشرة اللوز والجوز الخارجية الظاهرة، التي تغشى القشرة الخشبية الباطنة، لا غناء به في نفسه، ولا هو حفاظ لشيء من اللباب في داخله.

فإن كان أزهرنا ومعاهدنا الدينية في حاجة إلى الإصلاح لتجديد هداية الدين، فمدارسنا الأميرية والأهلية أحوج إلى الإصلاح لتجديد حضارتنا المدنية، وإعادة استقلالنا، وإقامة سائر مصالحنا، فإن ما ظهر من فساد التربية والتعليم فيها شامل للقسمين: الإيجابي والسلبي. وأما ما نشكو من خلل المعاهد الدينية فمعظمه سلبي محض، وسنبين ضرره بعد. ولا يزال أهل الرأي والفهم من الأمة يشكون من كل منها، ويقترحون الإصلاح بعد الإصلاح لها.

نحن نحتاج إلى تجديد استقلالي كتجديد اليابان ترتقي به مصالحنا الاقتصادية والعسكرية والسياسية، وننمي به ثروتنا الزراعية والصناعية والتجارية. ونكون به أمة عزيزة ودولة قوية، مع حفظ مقومات أمتنا من دين وثقافة وتشريع ولغة، وحفظ مشخصاتها القومية من زي وعادات حسنة وأدب.

لا إلى تجديد تقليدي كتجديد الدولة العثمانية الذي انتهى بتمزيق سلطنتها (امبراطوريتها) الواسعة، ثم بزوالها من الوجود، ومحو رسمها من مصور العالم الجغرافي – ولا كتجديد الدولة المصرية الذي بدىء به في عهد مؤسسه محمد علي الكبير استقلالياً، ثم استحال تقليدياً، فانتهى بالاحتلال، وفقد الاستقلال، ولو استقام على خطته الأولى لصارت به مصر سلطنة عظيمة مؤلفة من شطر إفريقية الشرقي، وشطر آسية الغربي، ولأعادت مجد الحضارة العربية، ونيطت بها زعامة الأمة الإسلامية، ولا تزال مستعدة لهذا، وما عليها إلا أن تأخذ له أهبته، وتسعى له سعيه، ثم تطلبه في إبانه، وتأخذه بربّانه وعلى عرشها اليوم ملك يظهر من الاستعداد لهذا ما يعلمه الجميع.

نعم نحن في حاجة إلى هذا التجديد المجيد، الجامع بين الطريف والتليد، وإلى مجددين في العمران كمحمد علي الكبير، وفي العلم والحكمة كمحمد عبده وجمال الدين، لا إلى تجديد الإلحاد والإباحة، والتهتك والخلاعة، والدعوة إلى الرذيلة باسم الأدب المكشوف، والتنفير من الفضيلة بدعوى الحرية، وتحرير المرأة الشرقية، وتقليد الحضارة الغربية، فإن كل هذه المفاسد قديمة لا جديدة، كما يعلمه المطلعون على تاريخ أثينة ورومية وغيرهما من عواصم الشعوب القديمة، وهي التي أضعفت دولها وذهبت باستقلالها (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً) أي أمرناهم بالطاعة والفضيلة، ففسقوا عن أمرنا إلى المعصية والرذيلة، فآثروا شهواتهم الخاصة، على النهوض بالمصالح العامة، فحق عليهم قولنا (لنهلكن الظالمين) وقولنا (وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون) وقولنا (فهل يهلك إلا القوم الفاسقون) وقولنا (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) أي ما كان ليهلكهم بظلم منه لهم وهم مصلحون في أعمالهم.

أيها السادة:

إن إصلاح محمد علي الكبير العمراني لم يزل معروفاً، وإن إصلاح الحكيمين الديني والسياسي الاجتماعي لم يصر مجهولاً، فجلالة الملك الجالس على عرش محمد علي والأمراء والنبلاء من سلالة محمد علي هم أقوى ظهير للأمة وللدولة على إعادة تجديده العمراني العسكري سيرته الأولى، مع المحافظة على مقومات الأمة ومشخصاتها، إذا طلبته الأمة منها، فإن عمامة محمد علي العجراء، وجبته القوراء، وأزياء رجال دولته القومية، ورجال بعثاته العلمية، لم تكن عائقة لهم عن النهوض بذلك العمران، والاضطلاع بتجديد العلوم وجلائل الأعمال. ولكن أمان الله خان خسر ملكه، وسفك

دماء قومه، بما حاول من تجديده التقليدي ببرنيطته، وتبرج امرأته، وحلق لحى رجال دولته!!

وإن لجمال الدين ومحمد عبده سلالة علمية عقلية إصلاحية جديرة بالقيام بسنتها، والمضي في إصلاحها بقدر ما تواتيهم به الأمة في استعدادها. وقد رأت من نبوغ أحدهم في الزعامة السياسية[١] ما لم يكن يخطر لأحد قبل استعدادها للنهوض معه، وعرفانها بقدره.

بيد أنه قد تصدى لزعامة التجديد واحتكار لقب المجددين أفراد هدامون غير بنائين، يدعون الأمة إلى ترك هداية الدين، والتجرد من لبوس الفضيلة، والتشرف بلبس البرنيطة، وإباحة ملابسة النساء للرجال في الرقص والسباحة، والخلوة والسياحة، ومعاقرة الخمر، وما يتبع ذلك من ضروب الفسق. وينعون على المرأة أن يكون جل همها من الحياة الاستعداد للقيام بما خلقها الله لأجله حق القيام وميزها به على الرجل، وهو أن تكون زوجاً صالحة محصنة، وأمّاً رؤوماً مربية، ورئيسة منزل مقتصدة منظمة. فيسمون الدار سجنها - وإن كانت كقصور الجنان، ويسمون الزوج سجاناً لها - وإن كانت في نظره كالحور المقصورات في الخيام، ويغرونها بالخروج عليه والتفلت منه، وأن تُدخِل داره وتدخُل هي دار من أحبت بدون رضاه وإذنه. ويطمعونها في مناصب الحكومة ومقاعد النيابة وعدم المبالاة بما يعارض ذلك من وظائف الحمل والولادة، والرضاعة والحضانة. بل يقول بعضهم: إنها أهل للحرب والقتال، وقيادة الجيوش البرية والبحرية، والأساطيل المائية والهوائية، وإن من استبداد الرجال بالنساء وإهانتهن لهن ما عبر عنه بعضهم بقوله:

---

(١) هو سعد باشا زغلول.

كتب القتل والقتال علينا   وعلى الغانيات جر الذيول

كذلك يغرون الشبان بالإلحاد، ويزينون لهم اتّباع الشهوات، ليتخذوا منهم ومن النساء جنداً يطيع قواده منهم طاعة عمياء، لا يقبل فيها وفيهم - بعد المروق من الدين - وعظ واعظ، ولا يسمع مع فوضى الآداب وطاعة الهوى نصيحة ناصح، وحسبكم من سفه النفس وأفَن الرأي، التسليم لهم بأن القديم قبيح يجب تركه واحتقاره لأنه قديم، ويحتقر المحافظ عليه بوصفه بالرجعية ونبز صاحبه بلقب « الرجعي ».

نعم قد حاول انتحال هذا اللقب الشريف (التجديد) في هذا العهد زعنفة من الملاحدة في هذا البلد العظيم، ليس لأحد منهم امتياز فيه بالعلم والحكمة، ولا بالرشد والفضيلة، ولا بكشف حقيقة كانت مجهولة، ولا بسن سنة نافعة للأمة في حفظ حقيقتها، أو تنمية ثروتها، أو إعادة مجدها، (أستغفر الله إن إعادة مجد الأمة في فتوحاتها وحضارتها رجعية عندهم يحتقرون من دعا إليه).

وإنما كل ما أوتوا أو حملوا من البضاعة في هذه السوق ثرثرة في الكلام، وسفسطة في الجدال، وجرأة على تلبيس الحق بالباطل، وسفاهة في الطعن على من يخالفهم أو يرد عليهم، ولكن بالبهتان الصريح، لا بالبرهان الصحيح فالصدق لا حرمة له عندهم - وبإطراء غلاة الترك الذين نبذوا الإسلام وراء ظهورهم، حتى في هدم جميع أركان الحرية: حرية الدين والرأي والخطابة والكتابة والزي والعمل - هذه الحرية، التي يقدسها من يدعون اتباعهم من أهل العلم والحضارة العصرية، ولولا إفراط الحكومة المصرية فيها، لما أمكن لهؤلاء الأدعياء أن يجهروا بهذه الدعاية الإلحادية لهدم دينها وآدابها وتقاليدها، وهذا الذي يطرونه من غلو ملاحدة الترك ليس بجديد فيهم، بل نجم في الجيل الماضي منهم وكان من ثمراته في هذا الجيل زوال

السلطنة العثمانية، التي كانت أعظم سلطنة في أوربة وآسية وإفريقية، ولم يبق منها إلا إمارة جمهورية صغيرة فقيرة، هي أقل عدداً وثروة وعلماً وحضارة من المملكة المصرية، التي كانت إحدى إمارات هذه السلطنة، وهم يريدون اليوم أن تقتدي بها في إلحادها ونبذ هداية الدين فقط، لئلا تحل محلها فيما هي أجدر به من زعامة ٤٠٠ مليون من المسلمين.

ولما خدع أمثالهم من أدعياء التجديد أمان الله خان وحاول تقليد الدولة التركية الحاضرة طفقوا يفرغون عليه الحلي والحلل من الثناء، أن أكره قومه على لبس البرنيطة وتبرج النساء، فكانت عاقبة تجديده الإلحادي إيقاد نيران الثورة في بلاده عليه وعلى حكومته، واضطراره إلى الفرار منها وخسارة ملكه، وأما المدارس والنظام العسكري والصناعة وغيرها من التجديد الحقيقي فلم يتوجه إليه في بلادنا الأفغان، وقد بدىء به في القرن الماضي على عهد الرحمن خان.

وكل ما يحتاج إليه الترك من التجديد الدنيوي الذي يطلبه الملاحدة وغيرهم قد شرعوا فيه في القرن الماضي ولم يكن الإسلام مانعاً لهم من شره الذي يحظره، فضلاً عن خيره الذي يوجبه، ولكنهم لم يسلكوا فيه طريقة الاستقلال التي سلكها اليابان بالمحافظة على مقوماتهم الدينية والقومية، بل كانوا مقلدين فاصطدموا بالمقلدين من رجال الدين، وكان الواجب عليهم الجمع بين التجديد الديني والدنيوي كما فعلت أوربة في النهضة الإصلاحية الدينية.

وأما مصر فقد سبقت الترك إلى هذا التجديد الدنيوي ولم يعارضها رجال الدين كما أنهم لم يساعدوها، لأن التجديد كان من جانب واحد، ولو كان من الجانبين لتمّ وكمل في زمن قليل، كما سأبينه بعد.

وأدعياء التجديد هنا لا ينظرون إلى الواقع وإنما يقلدون ملاحدة أوربة في عداوة رجال الدين تقليداً، فهذا التقليد الأعمى هو الذي يحملهم على الصد عن الدين بالتشكيك في عقائده، والطعن في أحكامه وآدابه، والتحقير لرجاله، ودعوى إبطال العلم والفلسفة، واتهام علمائه بأنهم عقبة كؤود في طريق ترقي الأمة، فيجب أن يماطوا عنه كما يماط الأذى عن الطريق الحسية. ولو كانوا يطلبون باسم التجديد إصلاحاً عملياً ويجدون أهل الدين مقاومين لهم فيه لكانوا معذورين.

تجديد الملاحدة المزعوم شقاق جديد للأمة

هذا التجديد المزعوم كاد يكون تجديداً حقيقيًّا لفتنة من فتن التفريق ربما كانت شراً من فتن التفرق بالعصبيات الجنسية والوطنية، والأحزاب السياسية، كأننا لا نستكمل جميع أنواع الشقاق إلا بوجود حزب جديد يعادي الدين ويحتقر أهله - وهم السواد الأعظم من الأمة - تقليداً لملاحدة أوربة وأحرارها فيدعو علماءه وخطباءه وكتابه إلى الرد عليه، واستصراخهم الشعب المتدين لعداوته ومقاومته، ويضطر زعماؤه وكبراؤه إلى مطالبة الحكومة بردع المجاهرين من أفراده عن جهرهم بالسوء، وهذا عين ما وقع بسوء تأثير من جهر في الجامعة المصرية بحقوق للمرأة ما أنزل الله بها من سلطان[١] ثم من جهر في الجامعة الأمريكية بوجوب مساواة النساء للرجال حتى في الطلاق والميراث، في محاضرة طبعها ونشرها في الناس[٢] وقد سمعت أمس خطيب الجمعة في المسجد الذي صليت فيه

(١) هو الأستاذ محمود عزمي الذي ناظرناه في الجامعة فكان لنا الفلج والظفر بتأييد الجمهور لنا وباعترافه هو أيضاً.

(٢) هو الدكتور فخري فرج ميخائيل القبطي.

يندب الإسلام ويستصرخ المصلين الصائمين للدفاع عن القرآن، إذ أهانه بعض أعدائه فرماه بظلم النساء الخ بعد أن قام بالإنكار الشديد على هذه المحاضرة بعض كبار الأمراء[١] وأجمعت الجرائد على انتقاد هذا الهراء.

أيها السادة

إن مثل هذا الشقاق قد وقع في قرون أوربة الوسطى التي كانت شر القرون عليهم، فكانت فتنه كقطع الليل المظلم، سفكت فيها دماء غزيرة في التنازع بين حرية العلم والحكم من جهة، وتقاليد الدين وسلطان الكنيسة من الجهة المقابلة، ووقع مثله أخيراً في بلاد الأفغان، وأرى أن حال مصر مخالف لحال أوربة في تلك القرون وحال الأفغان في هذا العصر، وأنه يجب علينا درء هذه الفتنة قبل انتشارها، وتلافي هذا الشقاق قبل تفاقم خطبه، وهذا ما أتوخاه بهذه المحاضرة، وأرى أنه أفضل عمل أقدمه بين يدي جمعية الرابطة الشرقية لمصر العزيزة والشرق كله.

حصر موضوع المناظرة في بضع قضايا

وإنني بعد هذا الإجمال التمهيدي أحصر موضوعها في بضع مسائل أو قضايا:

(١) في معنى التجدد والتجديد، والمقابلة بين القديم والجديد، والتنازع بين الطريف والتليد، والمفاضلة بين المتقدمين والمتأخرين، وهو بحث لا يخلو من فكاهة وإحماض، في أثناء هذا الموضوع الحرِّيف الحماز[٢].

(١) هو سمو الأمير عمر باشا طوسن.

(٢) الحريف بكسر الحاء وتشديد الراء الذي يلذع اللسان بحرافته وهو هنا مجاز ويرادفه الحماز وهو مبالغة حامز فطعم الحمز قريب من طعم الحرافة.

(٢) في فضل الشيء في ذاته وصفته، ودرجة الانتفاع به، ومزيته في قدمه أو جدته.

(٣) في الحاجة إلى التجديد الديني والتجديد الدنيوي، وحكم الإسلام فيهما، وحثه عليهما.

(٤) في المجددين في الإسلام، والتجديد الذي سنه حكيم الشرق الأفغاني والأستاذ الإمام المصري.

(٥) في أنواع الإصلاح الجديد وعدم التعارض فيه مع الدين.

(٦) الأحزاب الثلاثة في المسلمين: الفقهاء المقلدون الجامدون، والماديون السياسيون والمصلحون المعتدلون، وما يقابلهم في الغرب من الأحزاب والجمعيات الدينية.

(٧) في القاعدة التي ينبني عليها الاتفاق بين الذين يخدمون أمتهم ووطنهم بالاخلاص على ما يكون بينهم من اختلاف في العرف والمشرب، أو الدين والمذهب.

القضية الأولى

في حقيقة معنى القديم والجديد، والتجدد والتجديد، والتفاضل بين الطريف والتليد

الخلق كله جديد، وإنما القديم المطلق هو الخالق عز وجل، والجدة والقدم في المخلوقات نسبيان، فكل قديم منها كان جديداً، وكل جديد سيصير قديماً، ومن الأمثال العامية بل العامة: من ليس له قديم فليس له جديد، ويا له من مثل حكيم يفهم منه العلماء، ما لا تصل إليه مدارك الدهماء.

والتجدد والتجديد في الكون من السنن الآلهية العامة التي هي مصدر النظام في تكويننا، والتغير والتحول في أطوار وجودنا، وعملها فينا عين عملها في آبائنا وجدودنا (ولن تجد لسنة الله تبديلاً). (ولن تجد لسنة الله تحويلاً) فنحن في معمل الكون الأعظم كالماء في معمل الجليد، كل آن في تجدد وتجديد، تارة يكون مائعاً سائلاً، وتارة يكون بخاراً طائراً، وتارة يكون جليداً جامداً، وهكذا عالم المادة كله، تجدد طبيعي فطري، وتجديد صناعي كسبي، تحليل وتركيب، جمع وتفريق، هدم وبناء، نماء وفناء، وإنما يجري ذلك كله في مادة موجودة، ذات عناصر معدودة، قديمة في الخلق لا جديدة، ذات قوى محدودة، تصرفها قدرة غيبية معقولة لا مشهودة، وهي قدرة الخالق الحكيم عز وجل. فالتجدد والتجديد إنما هو في الصور

والأعراض، لا في إيجاد الجواهر والمواد، ويؤثر عن نبي الله سليمان عليه السلام أنه قال: لا جديد تحت الشمس، وهو صحيح ظاهر بهذا المعنى. ويقابله مقابلة التضاد قول بعض حكمائنا إن العرض لا يبقى زمانين، فعلى هذا يصح أن يقال «لا قديم تحت الشمس» ولا تعارض بين القولين، ولا تناقض بين القضيتين، فإن كل ما تحت الشمس قديم باعتبار وجديد باعتبار آخر.

وقد كُنت قلت في مقدمة محاضرة في الجمع بين الذكران والإناث في مقاعد التعليم ما يصح أن يقال هنا على أنه مقصد لا مقدمة وهو:

«التجديد سنة من سنن الاجتماع، كما أن التجدد من مقتضى الفطر والطباع، ومثلها مقابلها من المحافظة على القديم، ولكل منهما موضع فلا تناقض بينهما ولا تضاد، إذا وضع كل منهما في موضعه بغير تفريط ولا إفراط.

«من التجدد في نظام الفطرة أن كل أحد يخالف خلق والديه وأخلاقهما بعض المخالفة، ولولا ذلك لم يكن ما نرى من التفاوت العظيم بين البشر، ومن حفظ الأصل ما لا يجهل من إرثه لهما وشبهه بهما في بعض صفاتها الجسدية والنفسية، ولولا ذلك لوقع من التباين بين أفراد الناس ما يكاد يكون به كل منهم نوعاً مستقلاً بنفسه.

«ومن حفظ القديم في الأعمال وراء سنة الوراثة ما تقتضيه غريزة التقليد من محاكاة الإنسان لمن يعيش بينهم من أول سن التمييز إلى نهاية أجل الشيخوخة، ثم تقليد الجماهير لمن يرونهم أوسع منهم علماً، أو أعلى مكانة وقدراً، ولولا هذا لما تكونت البيوت والفصائل، والشعوب والقبائل، بما يربط بعضها ببعض من المشاركات في الأعمال، التي تطبع في

الأنفس ملكات الأخلاق والعادات، فتكوّن رابطة الوحدة التي تجتمع بها وشائج الكثرة، فتكون بها الفصائل قبيلة والبيوت أمّة.

«ومن التجديد في الأعمال البشرية ما تهدي إليه غريزة الاستقلال المقابلة لغريزة التقليد، والميل إلى الاستنباط والاختراع، ولولاه لكانت جماعات البشر كأسراب الطير، ومساكنهم لا ترتقي عن خلايا النحل وقرى النمل».

أنواع التجديد والحاجة إليها

التجديد الاجتماعي والسياسي والمدني والديني كل منها حاجة من حاج الجماعات البشرية بمقتضى غرائزها واستعداد نوعها، به يرتقون في مدارج العمران، ويصعدون في معارج العلم والعرفان، حتى أن الدين الإلّهي الذي يستند إلى وحي الرب الحكيم بمحض فضله، لبعض من أعد أرواحهم القدسية لذلك من أصفياء خلقه، قد سار مع غرائز الجماعات البشرية في ترقيها من طور إلى طور حتى أكمله تعالى لهم بالإسلام، عندما وصل مجموعهم إلى سن الرشد والاستقلال.

ومع هذا الإكمال يروي لنا المحدثون عن خاتم النبيين، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، أنه قال «إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها» رواه أبو داود في سننه والحاكم في مستدركه والبيهقي في المعرفة وغيرهم من حديث أبي هريرة. وأشار السيوطي في جامعه الصغير إلى صحته، والمراد بتجديد الدين تجديد هدايته، وبيان حقيقته وحَقّيته، ونفي ما يعرض لأهله من البدع والغلو فيه أو الفتور في إقامته، ومراعاة مصالح الخلق وسنن الاجتماع والعمران في

شريعته ا.هـ. وموعدنا في الكلام في التجديد الديني والدنيوي القضية الثالثة.

هذه حقيقة معنى التجدد والتجديد، وهي تهدينا إلى أن لكل من الجديد والقديم محلاً، وأن من الجهل تفضيل أحدهما على الآخر مطلقاً.

المفاضلة بين المتقدم والمتأخر

وأما المتقدم والمتأخر من الناس فقد كانت القاعدة عند أهل العلم والأدب منا تفضيل المتقدم على المتأخر، ولكن القاعدة عند أهل النشوء والارتقاء العكس، وإنما هذا وذاك بالنسبة إلى جملة أهل العصر، دون الأفراد النابغين الذين قلما تجود بمثلهم الأزمان، ومذهب النشوء الاجتماعي ظاهر في الأمم في أطوار حياتها وقوتها، بل هو ظاهر في الدين الالّهي أيضاً، فقد ارتقت الشرائع الالّهية بحسب استعداد البشر حتى كان آخرها وهو الإسلام منتهى الكمال، فجعل الله رسوله الذي جاء به خاتم النبيين، وبعثته عامة باقية إلى يوم الدين، وأنزل عليه قبل وفاته (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً).

وقد كان بعض الأدباء، يفضل المتأخرين في بعض الأشياء، وقد افتتح عنترة معلقته المشهورة بقوله «هل غادر الشعراء من متردم» يعني أن الشعراء قبله لم يتركوا لمن بعدهم قولاً يقوله، ولكنه هو جاء فيها بمعاني لم يسبقه إليها غيره، وقد عارضه ابن أبي حجلة في تفضيل كتابه (ديوان الصبابة) على ما سبقه في معناه بقوله في خطبته: فإن قلت الفضل للمتقدم، وهل غادر الشعراء من متردم، أقول في الخمر معنى ليس في العنب، وأحسن ما في الطاووس الذنب.

وكلمة «الفضل للمتقدم» صارت مثلاً في أفواه العلماء والأدباء، ولا أدري أول من قالها هل هو عدي بن الرقاع الشاعر الأموي الذي ضمنها في شعره أم غيره؟ وهذا شيخ صناعة الأدب الحريري قد استشهد في تفضيل بديع الزمان على نفسه في مقدمة مقاماته بقول عدي هذا... ثم رأيناه عقد المقامة السادسة منها لتفضيل الطريف على التليد، ونصر العصاميين على العظاميين. وإني أحفظ من عهد طلب العلم عبارته في هذا ولا يخلو إيرادها من إحماض وفكاهة. قال:

«روى الحارث بن همام قال: حضرت ديوان النظر بالمراغة، وقد جرى به ذكر البلاغة، فأجمع من حضر من فرسان اليراعة، وأرباب البراعة، على أنه لم يبق من ينقح الإنشاء، ويتصرف فيه كيف شاء، ولا خلف بعد السلف، من يبتدع طريقة غراء، أو يفترع رسالة عذراء، وأن المفلق من كتاب هذا الأوان، المتمكن من أزمة البيان، كالعيال في الأوائل، ولو ملك فصاحة سحبان وائل. وكان بالمجلس كهل جالس في الحاشية، عند مواقف الحاشية، فكان كلما شط القوم في شوطهم، ونثروا العجوة والنجوة من نوطهم، ينبىء تخازر طرفه، وتشامخ أنفه، أنه مخرنبق لينباع، ومجرمَز سيمد الباع، ونابض يبري النُبال، ورابض يبغي النضال، فلما نثلت الكنائن، وفاءت السكائن، وركدت الزعازع، وكف المنازع، وسكنت الزماجر، وسكت المزجور والزاجر، أقبل على الجماعة وقال: لقد جئتم شيئاً إدّا، وجرتم عن القصد جدا، وعظمتم العظام الرفات، وافتتم في الميل إلى من فات، وغمصتم جيلكم الذين فيهم لكم اللِّدات، ومعهم انعقدت المودات، أنسيتم يا جهابذة النقد، وموابذة الحل والعقد، ما أبرزته طوارف القرائح، وبرز فيه الجذع على القارح، من العبارات المهذبة، والاستعارات المستعذبة، والرسائل الموشحة، والأساجيع المستملحة، وهل للقدماء إذا

أنعم النظر، من حضر، غير المعاني المطروقة الموارد، المعقولة الشوارد، المأثورة عنهم لتقادم الموالد، لا لتقدم الصادر على الوارد. الخ.

وللشعراء محاورات مشهورة في تفضيل الحبيب الأول أو الحبيب الآخر، ومن المشهور في الأول قول بعضهم:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى   فصادف قلباً خالياً فتمكنا

وقول آخر:

كم منزل في الأرض يألفه الفتى   وحنينه أبداً لأول منزل
نقل فؤادك حيث شئت مع الهوى   ما الحب إلا للحبيب الأول

وقول بعضهم في الثاني:

محا حبها حب الأولى كنّ قبلها   وحلّت مكاناً لم يكن حُل من قبلُ

وقول آخر في الرد على مفضل الحبيب الأول، ولكن جاء بحجة دينية لا غرامية، وفلسفة دروينية لا عذرية:

أكلف بآخر من علقت بحبه   لا خير في حب الحبيب الأول
أتشك في أن النبي محمداً   ساد البرية وهو آخر مرسل؟

والعدل في الحكم: أن تقدم الزمان وتأخره لا شأن لهما في المفاضلة بين الأفراد، ففي كل زمان أفذاذ، فالقديم كان جديداً، والجديد يعود قديماً، كما حققنا، ولله در القائل في ذلك:

قل لمن لا يرى الأواخر شيئاً   ويرى للأوائل التقديما
إن ذاك القديم كان حديثاً   وسيبقى هذا الحديث قديما

وإنما التفاضل بين الأشياء والأشخاص يتعلق بذواتها وصفاتها، ودرجة انتفاع الناس وارتفاقهم بها، فإن كان للمتقدم فضل الابتكار والاختراع، فقد يكون للمتأخر عنه فضل التحسين والإكمال الذي يتم به الانتفاع، وقد اشتهر أن كثيراً من المخترعات التي سبق بعض اللاتين أو الإنكليز إلى كشفها قد أتمها الألمان فكان نفعهم وانتفاعهم بها أعظم.

القضية الثانية

فضل الشيء في مزاياه ودرجة الانتفاع به

جهل هذه الحقائق أو تجاهلها أدعياء التجديد، فطفقوا يدعون إلى ترك القديم لأنه قديم، والأخذ بالجديد لأنه جديد، وربما وصفوا القديم بالبالي لزيادة التقبيح والتنديد، وإن كان على قدمه لا تبلى جدته، ولا تخلق ديباجته، ولا تخبو ناره، ولا تنطفىء أنواره، كدين الله القويم، وكتاب الله الكريم (وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم).

إن تفضيل الجديد لجدته، على القديم لقدمه، مكابرة للحس، وسفه للنفس، ومصادمة للعقل، وهو باطل ببداهة الرأي، وإجماع كل قبيل وشعب، فإن من القديم ما يتنافس فيه خواص الناس في أرقى أمم الحضارة، فيباع بالألوف الكثيرة من الجنيهات، إما لقدمه ونفاسته معاً، وإما لقدمه وحده، وإن هذه البلاد لتفاخر جميع بلاد الحضارة بآثارها التليدة، وليس عندها شيء من مبتكرات حضارتها الطريفة، وإنك لترى قصور الملوك والقياصرة وكبار الأمراء والأغنياء مزينة بالصور التي رسمها قدماء المصورين، كما ترى على جدرانها دون أرضها أنفس السجاجيد العجمية والشيلان الهندية القديمة.

وإنك لترى دور الآثار العادية تتغالى في شراء هذه الآثار كما ترى خزائن الكتب العامة والخاصة تتغالى في شراء الكتب القديمة لكبار العلماء المتقدمين. وإن علماء هذا العصر في الغرب يشهدون لكثير من قدماء

الحكماء والعلماء والشعراء بالفضل، ويعترفون بأن منهم من لا نظير له في هذا العصر ولا شبيه.

وأما الأنبياء، وكبار القديسين والأولياء، فلا يزال السواد الأعظم في بلاد الحضارة العصرية يفضلهم على جميع العلماء والحكماء المتقدمين والمتأخرين، ويعترف بما امتازوا به في أنفسهم وفي هدايتهم، بل لا تزال مئات الملايين من شعوب أوربة وأمريكة تعبد واحداً منهم، فأين تذهبون يا أدعياء التجديد الإلحادي؟ وما شأن من تقلدون من ملاحدة الإفرنج الأفذاذ مع العلم بالنهضة الدينية الجديدة في أوربة وأمريكة التي أثارتها الحرب الأخيرة؟

وإن كان كل جديد يحمد ويؤثر لجدته فماذا تقولون في هذه السموم الجديدة المخدرة للأعصاب، بل المفسدة لصحة الأجساد، المطفئة لسرج العقول، التي يوشك أن يهلك بها هذا الشعب، إذا لم تنجح حكومته فيما سعى إليه حكمدار العاصمة لدى عصبة الأمم من صد تيارها، وقطع الطرق الخفية على تجارها، ومن تقليل ما تصدره معاملها في أرقى بلاد أوربة في هذه المدنية المادية الفاسدة المفسدة.

وأما أحدث نظام جديد للحكومات العصرية فهو النظام البلشفي الذي ترتعد منه فرائص دول الأرض، وإنما يتمنى له النجاح والانتشار بعض المتململين من إرهاق دول الاستعمار لهم، ولكن غلاة التجديد الإلحادي معجبون به ميالون إليه، ولولا عقاب الحكومة لصرحوا ببث الدعاة له. ولو لم يكن من فوائده عندهم إلا هدم هداية الدين، وتقويض أركان الفضائل وأصول الشرائع الآلهية لكفى.

القول الحق الفاصل في الجديد والقديم

والقول الحق في الموضوع أنه لا بد للبشر في كل عصر من القديم والجديد، وإن في كل منهما الحسن والقبيح، والنافع والضار، وإن من الناس من هو أميل بطبعه إلى هذا ومن هو أميل إلى ذاك من أجناس الأشياء وأنواعها، وقلما يفضلها لمحض جدتها إلا الأطفال، ومن على مقربة منهم من النساء والرجال. وأما العقلاء المستقلون فلا يرغبون عن النوع القديم إلى الجديد إلا بمرجح يرجحه عليه عملاً بالقاعدة المنطقية في المتساويين. وإنما تكون الجدة مرجحة في جزئيات النوع الواحد إذا كانت متساوية في سائر صفاتها، فإن الجديد يكون أزهى وأبهج وأثبت وأبقى. فمثال الجنس من الأثاث والماعون سرر النوم، ومثال النوع منه في المادة ذوات المعادن المختلفة، وفي الشكل ذوات العمودين وذوات الأربعة الأعمدة. وجزئيات النوع منها أفراده، والعاقل لا يختار شيئاً منها لمحض جدته، إنما يرجحه بسبب من أسباب الارتفاق والانتفاع به، إما في ذاته وإما في أمر خارج عنه، كالاقتصاد واللياقة والوطنية والقومية.

من مُثُل ترجيح القديم على الجديد الذي هو خير منه في نفسه وفي الارتفاق والانتفاع به، وراء المثل المعروفة من رخص الثمن وغلائه ومراعاة قدرة المقتني المالية – أن في دار الصناعة البحرية الانكليزية آلات بخارية لثقب حديد المدافع وغيره قد حدث بعدها آلات من نوعها تدار بالكهرباء هي خير منها قوة وسرعة ونظافة – وربما كانت أقل نفقة أيضاً – وهم لا يستبدلونها لأن في استبدالها بها نفقة عظيمة لا تفي بها منفعتها. حدثني الدكتور يعقوب صروف أنه رأى هذه الآلات وأن الدليل الذي يطوف به هنالك قال له إن اليابانيين تعلموا من صنع هذه الآلات في عصر الكهرباء فجعلوا آلاتهم كهربائية فكانت خيراً من آلاتنا هذه. وإن

بقاء حاجتنا إليها لا يبيح لنا بذل النفقة الكبيرة التي يتقاضاها تغييرها.

ترجيح ما هو وطني أو قدمي على الأجنبي

وأما ترجيح كل ما هو وطني وقومي على غيره من جديد وقديم فهو ركن من أركان الحياة الاقتصادية والسياسية والأدبية في جميع الأمم الحية، ولا سيما الإنكليز الذين راعهم رواج المصنوعات الألمانية في بلادهم لرخص ثمنها، فألفوا عدة جمعيات للبحث في أسباب تلافي هذا. وقد سألت في بعض صيدليات برلين ومونيخ عن علاج إفرنسي من العلاجات التي أحملها في السفر، وأقتنيها في الحضر، لعروض الحاجة إليها فجأة في بعض الأوقات، فكان الجواب في البلدين واحداً وهو «هذا لاتيني، هذا لاتيني» لم يقولوا إنه غير موجود بل ذكروا سبب ذلك وهو أنه من صنع اللاتين لا من صنع الجرمان. ثم استبدلت به علاجاً ألمانياً خيراً منه فيما وضع له. ولو وجد علاج مصري أو عربي يقوم مقامها لفضلته عليها.

بمثل هذه القومية والوطنية ارتقت شعوب الغرب بأبنائها، البارين بأقوامهم، المعتزين بأوطانهم، فهم يفضلون كل ما هو لهم من صناعة وتجارة وتشريع وغير ذلك من مقومات الأمم ومشخصاتها على ما هو لغيرهم، فأحكام قضاة الإنكليز القدماء وقرارات ندوتهم من أصول التشريع عندهم، يحافظون عليه أشد من محافظتنا على الأحكام التي نؤمن بأنها منزلة من عند الله تعالى. بله الأحكام الاجتهادية التي استنبطها أئمتنا من نصوص شريعتنا وقواعدها. وقد سبق أسلافنا الإفرنج إلى الاعتزاز بما لهم من تشريع وغيره في صدر الإسلام. ومن ذلك ما وقع لعمر رضي الله عنه مع معاوية لما جاء الشام لابساً مرقعته، مرتحلاً ناقته، إذ قال له معاوية: يا أمير المؤمنين إن أهل الشام قد اعتادوا أن يروا حكامهم في ملابس فاخرة فهم لا

يهابون من يكون متبذلاً في لباسه وزيه، فقال له عمر رضي الله عنه نحن جئنا لنعلمهم كيف نحكم؛ لا لنتعلم منهم كيف يحكمون.

ومن ذلك أمره رضي الله عنه لقواده وعماله في بلاد الأعاجم بالتزام الزي العربي. فقد كتب إلى عامله في بلاد العجم (عتبة بن غرفد) كتاباً ينهاهم فيه عن زي الأعاجم ويأمرهم بالمحافظة على عادتهم العربية، ومما قاله في كتابه: تمعددوا - أي تشبهوا بجدكم معدّ بن عدنان في شدته وبأسه وخشونة معيشته - فالمعديون في العرب كالإسبرطيّين في الإغريق - تمعددوا واخشوشنوا وابرزوا واقطعوا الركب (أي ركاب الخيل) وارموا الأغراض وعليكم بالشمس فإنها حمام العرب وإياكم وزي الأعاجم الخ وقد حفظ العرب شخصيتهم القومية في الممالك التي فتحوها ما داموا متمسكين بهذه الوصايا وغيرها من مقوماتهم ومشخصاتهم ولا سيما لغتهم ودينهم، فكانت الأمم تندغم فيهم وتتعرب وتسلم، ومن تركها منهم ذاب واندغم في غيره من الشعوب.

وقد قلد الإفرنج أجدادنا في هذه السيرة ولا سيما الإنكليز. وأدعياء التجديد الإلحادي يحاولون إقناعنا بأن ننسلخ من ذلك كله حتى أحكام الميراث التي خالف الإنكليز فيها جميع شرائع الأمم كحيازة أكبر الذكور من الأسرة لجميع ما يتركه أبواه من العقار دون سائر إخوته من بنين وبنات.

احتقار الملاحدة والقبط للمسلمين بدعوتهم إلى ترك شريعتهم

وأما نحن المسلمين في هذه البلاد فقد بلغ من احتقار أدعياء التجديد لنا أن يجهر الملاحدة والقبط بها على أعواد المنابر في المدارس الجامعة بدعوتنا إلى ترك ديننا وشريعتنا كلها، لا إلى ترك أحكام الإرث وحدها، ذلك بأنهم احتجوا علينا بأن الحكومة تركت أحكام شريعتنا في كذا وكذا من العقوبات والأموال فسكتنا لها وقبلنا حكمها، فيجب علينا إذاً أن

نترك سائر ما شرعه الله لنا من الأحكام الشخصية في الإرث والزواج والطلاق، إذ لا فرق عند هؤلاء المفتين المجددين بين النوعين من أحكام الشريعة.

لقد هزلت حتى بدا من هزالها كلاها وحتى سامها كل مفلس

بل لم يقفوا عند هذا الحد من احتقارنا بالطعن في شريعتنا الإلهيّة الغراء، العادلة الكاملة البيضاء، من أعلى المنابر، وعلى صفحات المجلات والجرائد، حتى زعموا أن جميع شبابنا المتعلمين أو سوادهم الأعظم يوافقهم في آرائهم، ويدين لهم بالزعامة في تجديدهم، بل استخف المسلمين أجرؤهم على الجهر بالسوء فيهم وفي دينهم[1] فطفق يشتمنا ويشتم كل من يدافع عن الإسلام في مصر وفي غيرها وهو من غير أصلاب الفراعنة آلهة المصريين الأقدمين، التي يوجب عليها في تجديدها أن ترجع إلى مدنيتهم وإن مرّ عليها ألوف السنين. ويخص الكتاب السوريين المسلمين بالقدح والتفريق بينهم وبين المصريين، فالمدنية الفرعونية الوثنية لا تنافي التجديد المطلوب لمصر عنده، وإنما تنافيه الشريعة الإسلامية والحضارة العربية لأنها قديمتان باليتان بزعمه وزعم حزبه. وصرح في آخر مقال نشره في هذا الموضوع بأن النعرة الدينية التي انتصرت بها مجلة المنار على مجلة الجامعة فقتلتها «فكان الشباب المصري هو الخاسر بذلك» قد زالت في هذه الأيام بزوال سذاجة البلاد التي كانت «تجوز عليها هذه الأوهام» وحاول في هذه المقالة أن يجهز على هذه الأوهام الإسلامية، بتحريك النعرة الوطنية المصرية الفرعونية،

---

(١) هو شاب قبطي اسمه سلامه موسى شديد الشنآن للإسلام والطعن فيه من طريق الإلحاد والإباحة والعصبية الوطنية الفرعونية أي القبطية. ولم أذكر اسمه في المحاضرة تنزها عن الاشادة باسمه - ومن غريب المشاكلة في الإلحاد أن صاحب مجلة عربية من بيت كريم في سورية جاء مصر فكان هذا القبطي وبعض قرنائه الملاحدة محل مودته وإعجابه وما زال ينوه بهم في مجلته.

التي تأبى دخول آل الرافعي في جنسية مصر، ولعل تاريخهم فيها يقارن تاريخ بيت الملك، وينفي بالأولى جنسية هذا الواقف بين أيديكم أيها السادة لأن تاريخ هجرته إليها لا يزيد على ثلث قرن، وهو يحرم عليكم قراءة مجلته المنار الإسلامي بل السماح ببقائها في مصر إذ يقول في آخر هذه المقالة: « فلنفهم واجبنا ولنعلم أن الوطن خالد، وأن شيوخنا وشبابنا مصريون قبل كل شيء. عليهم واجب محتوم يقاضيهم إياه شرف البلاد. وهو أنه يجب أن تكون الصحافة المصرية صناعة مصرية لا تنحصر مصريتها في أن يكون قراؤها مصريين. بل يجب أن يكون أصحابها ومحرروها مصريين أيضاً » اهـ بحروفه.

ولهذا المجدد الذي كان أول داع إلى مساواة النساء بالرجال في الميراث في العهد الأخير من مجلته هذه دعاية جديدة إلى بث دين البابية البهائية في مصر مع تصريحه بأنه لا يؤمن به وتعليله ذلك بقوله « فإن لنا من المزاج الأدبي الفلسفي ما يجعلنا نتلمس لأنفسنا صوفية عالمية بغير الدين » (ولكن غرضه من الدعوة إليها صرف بعض المسلمين بها عن الإسلام لإضعاف جامعته الحائلة دون جعل مصر فرعونية أي قبطية محضاً. ولم أصرح بهذا التعليل في المحاضرة).

أيها السادة

إنني أذكر هذا لأنه من موضوع التجديد والمجددين الذي نعالجه لبيان حقيقته، والتمييز بين حقه وباطله، ومحاولة اتقاء ضرره، كما قدمت في أوائل هذه المحاضرة، فأنا أمر بسبه وقذفه كريماً بسلام كما الله أمر في

القرآن[١] وأتقي قول رسول الله ﷺ « المستبان شيطانان يتهاتران ويتكاذبان » رواه الإمام أحمد والبخاري في الأدب المفرد. ولا أريد أن أخوض مع الخائضين، في مسألة القبط والمسلمين، والعرب والفرعونيين، وإنما غرضي أن أنبه هذا الشباب المصري الإسلامي لما يتنازعه في دينه ولغته وثقافته من عوامل الإلحاد والفرعونية، برقيتي التجديد والوطنية، لتجريده من هداية دينه وأدبه وتشريعه وعربيته وماله في الإسلام والعربية من تاريخ مجيد، وماله بإسلامه وعربيته من زعامة في مئات الملايين من البشر، لتكون غاية ذلك أن يصير مسلمو مصر بنفوذ شبانهم ملاحدة حائرين، يتلمسون صوفية علمية بغير الدين، يتكلفون لمسها وهيهات أن يجدوها، أو يكونوا بابيين يعبدون البهاء دفين عكاء، أو نصارى كسادة وطنهم من القبط وأعوانهم يعبدون المسيح عليه السلام[٢].

وكل هؤلاء الدعاة إلى التجديد الإلحادي يعتقدون أن هذه هي العاقبة الطبيعية للإلحاد، كما قرره أحد كتاب فرنسة المستعمرين في كتاب جديد له

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) وقوله بعده (وإذا مروا باللغو مروا كراماً) وقد فهم الجمهور من الآية الأولى أن فيها إشارة لطيفة لاسم سلامه هذا. وقد صرحت في المحاضرة بزيادة عما هنا ومنها طعن هذا القبطي بالأمير شكيب أرسلان لدفاعه عن الإسلام ونبزه بلقب « وغد » وقلت إن الوغد في اللغة هو الدنيء من الرجال الذي يخدم بطعام بطنه. والأمير شكيب نابغة بني أرسلان، من سلائل ملوك العرب وأمرائهم من قبل الإسلام، وهو يعيش في أوربة مع أهل بيته عيشة الكبراء، ويزوره في داره ويأكل طعامه الملوك والأمراء والوزراء. (وأزيد الآن في هذه الحاشية أن ممن ضافه داره في لوزان ملك الأفغان السابق وخديو مصر السابق وغيرهما وآخرهم جلالة ملك العراق ومن كان معه في أوروبة من وزرائه وحاشيته في صيف هذا العام).

(٢) كان بعد هذا أن دعتني لجنة الخطابة والمناظرة في الجامعة المصرية إلى مناظرة في المفاضلة في هذا الموضوع (المفاضلة بين المدنيتين العربية والفرعونية) فكان لي الفلج بترجيح العربية على الفرعونية وتقدم ذكر هذا في المجلد الماضي من المنار (٣١).

رددت عليه في المنار. قال ما خلاصته إن تنصير المسلمين تنصيراً مباشراً من المحال، وإنما الطريقة المثلى لذلك إفساد دينهم عليهم بالإلحاد، ولما كان من المحال أن تعيش أمة بغير دين كانت العاقبة بعد زوال كل أثر للإسلام من أنفسهم، أن يختاروا دين الغالبين السائدين فيهم وفي غيرهم، وهو النصرانية.

وقد رأيتم في هذه الأيام كيف جدد الأستاذ عزمي دعوة الأستاذ سلامه موسى إلى نبذ حكم القرآن في الميراث وكيف قام الدكتور فخري يعزز هذه الدعاية، وسمعتم وقرأتم ما يحتجون به على المسلمين ويقنعون به شبانهم الغافلين، عما يراد بهم. وهو أن ترك الحكومة من قبل لبعض أحكام الإسلام المدنية والجنائية يوجب عليهم أن يتركوا سائر أحكامه حتى المسائل الشخصية.

القضية الثالثة

في بيان الحاجة إلى التجديد الديني والدنيوي

لا يسعنا في بيان وجه الحاجة إلى التجديد الديني والدنيوي وحكم الإسلام فيهما وحثه عليهما إلا أن نبدأه بمقدمة وجيزة في جمود العلماء، وما كان له من سوء التأثير في الحكام وطلاب التجديد الدنيوي من سياسي واجتماعي. وقد ذكرت بعض الشواهد على جمود علماء مصر في الكلام على القضية الأولى[1] وإن لي في المنار مقالات كثيرة في هذا الموضوع ومباحث أخرى في تفسير القرآن الحكيم وباب الفتاوى وغيره من أبواب المنار، وإنني أستغني عن ذلك هنا بكلام لغيري فأنقل لكم جملة من كتاب لبعض نابغي شبان المسلمين في الهند كتبه في السابع من هذا الشهر (رمضان) في السنة الماضية (سنة ١٣٤٨) وهو من الذين طلبوا العلم بمصر ويقرأ الآن بعض جرائدها ويراسلها، ويتبع كل حركة عامة فيها. وهذا نص ما أريده منه:

جمود علماء المسلمين في الهند

قال الكاتب الهندي المصلح في زعمائهم المسلمين:

«نحن معشر الدعاة إلى الإصلاح والانقلاب السياسي قد وقعنا في الأيام الأخيرة في مشكلة عويصة. وهي أننا نجد أمامنا حزبين يتنازعان الزعامة

(١) لم أنشره في المنار هنا لأنني نشرته في مقالات المساواة بين الرجل والمرأة.

في المسلمين: حزب الماديين وحزب الروحيين أو الدينيين. ونجد الأول يدعو إلى الانقلاب الاجتماعي والسياسي معاً. ونجد الثاني يدعو إلى الخرافات ويعارض كل تغيير في الحالة الحاضرة حتى أنه يخالف الانقلاب السياسي[1].

« هذه الحالة في بلادنا: إننا لا نرضى بحال أن نبقى مستعبدين للإنكليز بل نضحي بأرواحنا في سبيل الانقلاب السياسي. أي قلب الحكومة الإنكليزية وطرد أعدائنا من بلادنا. وإننا نعادي ونقاوم كل من يكون عقبة في سبيل هذا الانقلاب السياسي. وكذلك نحن نريد تغيير الهيئة الاجتماعية الحاضرة بعض التغيير. ونريد بث الأخلاق الفاضلة والعقائد السلفية في المسلمين. ولكننا نرى الحزب المادي يماشينا إلى حد بعيد. ونرى الحزب الديني يعاركنا في أول خطوة ولذلك ترون أننا قد وقعنا في مشكلة.

« نحن لا نحب الماديين ولكننا نريد الاستفادة من حركتهم، ونحب الدينيين لأننا منهم، ولكننا لا نستطيع تأييدهم لأنهم أعداء لكل ما يرجى منه الخير حتى أنهم أعداء الإسلام الصحيح.

« إني أتمنى لو ترشدوني إلى الخطة الرشيدة في هذه المسئلة. أنا أواظب على قراءة الجرائد المصرية وأعرف أن الماديين في مصر أناس قوالون، لا يعملون ولا يريدون أن يعملوا. ولا يعرفون كيف يعملون. وإنما هم يريدون الظهور بالكلام الفارغ وبمخالفة أحكام الشريعة الغراء. ولكن حالة الهند تختلف عن مصر اختلافاً كلياً (إلى أن قال بعد وصف حالة الهند ووجه الحاجة إلى جعل حركة الانقلاب مادية ما نصه):

(١) قد تغير موقف علماء الهند الشرعيين في هذا العام (١٣٥٠) ورفعوا أصواتهم بطلب الانقلاب السياسي.

« فالرجاء أن تبينوا لي أفكاركم العالية وتشرحوا لي ما ينبغي أن يفعله أناس مثلي وهم الذين يريدون الإصلاح الديني والاجتماعي والسياسي معاً[1] هذا ولا تؤاخذوني في بسط أعذاري وأفكاري لأني لم أصرح بها لكم فمن الذي ألجأ إليه غيركم في هذه المسائل » اهـ المراد منه.

جمود علماء المسلمين في الترك

وإنني أقفي على هذا الشرح المؤثر لحالة المسلمين في الهند بكلمتين لرجلين من رجال الترك في جمود علمائهم ونفوذهم المانع من الترقي: رجل من أكبر علماء الإسلام المستنيرين، ورجل من أشهر رجال الإلحاد المجاهرين، ثم أذكر كلمة حكيم الشرق فيهم.

(الرجل الأول) شيخ الإسلام موسى الكاظم رحمه الله تعالى كان يشرح لي في داره بضواحي الآستانة ما يريد وضعه من الإصلاح لحكومة اليمن وهو جعل أحكامها كلها شرعية، وإنشاء محكمة تجارية واحدة في الحديدة تختص برؤية القضايا المتعلقة بالأجانب واليهود. فقلت له إذا كنتم تتركون التزام مذهب الحنفية فأنا أضمن لكم أن أخرج لكم من الشريعة الإسلامية الواسعة ما تحتاج إليه جميع السلطنة من الأحكام الموافقة لحال هذا الزمان الخ. قال أنا أعلم أن هذا ممكن ولكن ماذا نفعل بمشايخ الفتوى خانه؟

يعني أن كبار الشيوخ المنوط بهم الإفتاء الرسمي للدولة عنده في باب المشيخة الإسلامية هم الذين يعارضون في ذلك. ومما علمته عنهم وعن شيخ

(١) كتبت إليه أنه يجب عليه هو ومن على رأيه من إخواننا طلاب الإصلاح المزدوج أن يكونوا وسطاً بين الحزب المادي والحزب الديني حتى يجمعوا بينهما ويوحدوا وجهة المسلمين على منهاجنا الذي فصلناه في المنار.

الإسلام المقيد بهم في الفتوى أنهم لا يفتون بأحكام المجلة العدلية وهي كلها شرعية لأن فيها ما يخالف القول المعتمد في مذهب الحنفية الذي عليه الفتوى في كتبها المتداولة.

(الثاني) الدكتور عبد الله بك جودت صاحب مجلة (اجتهاد) التي كان ينشرها في مصر قبل الدستور لأنه كان مضطهداً لا يمكنه دخول البلاد العثمانية وهو أحد المؤسسين لجمعية الاتحاد والترقي.

هذا الرجل المجاهر بالإلحاد كان يساعدني في الآستانة في مشروع الدعوة والإرشاد. وقال لي إذا نجحتم في هذا العمل وأسستم المدرسة الكلية الإسلامية فأنا أتبرع بالتدريس فيها وأجعل دروسي الصحية والعلمية على منهجكم في الإصلاح الديني. قلت كيف وأنت تحارب الدين؟ قال إنما أحارب دين مشايخ الفاتح والسّليمانية. لأنه لا يمكننا أن نرتقي مع اتباع أفكار هؤلاء. وأما الدين الإسلامي الذي يفهمه رشيد أفندي رضا والشيخ محمد عبده فهو يساعد على الترقي وتنتفع به الدولة فأنا أول من يتمنى خدمته تحت رياستكم.

(وقد بلغني بعد عودتي من الآستانة إلى مصر أنه قال لطلعت باشا وزير الداخلية وركن جمعيتهم في الحكومة: إنكم أخطأتم أن تركتم رشيد أفندي يسافر ولم تنفذوا تشبثه (أي مشروع الدعوة والإرشاد).

قد كان لعلماء الآستانة نفوذ عظيم في الأمة والحكومة ليس لعلماء مصر منه أدنى نصيب فيحاربوا باتهامهم بمقاومة الترقي المدني، وأين هو؟ ومتى قاوموه مقاومة عملية تخشاها الحكومة؟ وإنني لما عرضت مشروع الدعوة والإرشاد على الصدر الأعظم حسين حلمي باشا رحمه الله تعالى قال لي: هذا مشروع عظيم ضروري للدولة ولكن تنفيذه عندنا يتوقف على قبول العلماء

له وعلى موافقة جمعية الاتحاد والترقي وسأكلم شيخ الإسلام ليقنع العلماء، وأكلم صادق بك ليقنع الهيئة المركزية للجمعية، وأجتهد في إقناعها ببذل نفوذها في ذلك. وقال لي محمود شوكت باشا رحمه الله تعالى مثل هذا القول في نفوذ علماء الترك ثم قال: إن العلماء في بلادنا (أي العراق) ليس لهم مثل هذا النفوذ ولا أدري كيف حالهم عندكم في مصر؟

كلمة السيد جمال الدين في علماء الترك

وأما كلمة السيد جمال الدين التي أعنيها هنا ولها أمثال من كلامه في غيرهم من علماء المسلمين فهي ما قاله في النازلة الآتي بيانها:

كان ميكادو اليابان أرسل في عهد وجوده في الآستانة كتاباً إلى السلطان عبد الحميد يخطب فيه مودته ويقول إن كلا منا ملك شرقي، ومن مصلحتنا ومصلحة شعوبنا أن نتعارف ونتواد، وتكون الصلات بيننا قوية تجاه الدول والشعوب الغربية التي تنظر إلينا بعين واحدة، وإنني أرى شعوب الإفرنج يرسلون إلى بلادنا دعاة إلى دينهم لحرية الدين عندنا ولا أراكم تفعلون ذلك فأنا أحب أن ترسلوا إلينا دعاة يدعون إلى دينكم (الإسلام) ويمكن أن يكون هؤلاء صلة معنوية خفية بيننا وبينكم.

اهتم السلطان لهذا الكتاب وأمر بتأليف لجنة من أكبر أهل الرأي عنده في قصر يلدز للتشاور فيه وهم شيخ الإسلام وناظر المعارف وهما الوزيران المختصان بهذا الموضوع من الجهة الرسمية، والسيد جمال الدين الأفغاني الأخص به من كل جهة، وآخرون، فاجتمعوا لدى السلطان في قصر يلدز ودارت المذاكرة فاستحسن شيخ الإسلام ووزير المعارف تأليف بعثة من علماء مدارس الآستانة لإرسالها إلى اليابان، والسيد جمال الدين ساكت

فوجه إليه السلطان النظر وسأله عن رأيه فقال ما حاصله:

يا مولاي إن هؤلاء العلماء ينفرون المسلمين أنفسهم من الإسلام فكيف يناط بهم إقناع أمثال اليابانيين بالدخول فيه؟ إنما الرأي أن يُربَّى طائفة من الأذكياء ويعلموا تعليماً خاصاً يؤهلهم للقيام بهذا الواجب في هذا العصر، ويكتفي جلالة السلطان الآن بإرسال كتاب ودي إلى الميكادو مع هدية لائقة به ويذكر له في الكتاب أن ما اقترحه قد وقع في أعلى مواقع الاستحسان وسننظر في تنفيذه بالصفة المرضية، فكان عمل السلطان بهذا الرأي، ولكن دون تنفيذ اقتراح التعليم الخاص بالدعاة إلى الإسلام.

المقصد من موضوع التجديدين

أما بعد فقد تقدم في التجديد الديني حديث «إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها» وهو نص في الموضوع بلفظه وقد بينا معناه في أول المحاضرة وينحصر المراد منه بالرجوع بالدين إلى سهولته وهدايته كما كان في الصدر الأول وجمع كلمة المسلمين على ما أجمعوا عليه قبل التفرق والاختلاف، وجعل ما عدا القطعي منه مما يعذر فيه كل فرد باجتهاده، وكل مقلد باتباع المذهب أو العالم الذي وثق بعلمه، من غير تعصب يفرق الأمة الواحدة إلى شيع وفرق يعادي بعضها بعضاً. ولنا في تفصيل هذا الإجمال وبيانه مقالات كثيرة جمعنا أهمها في كتاب خاص باسم (الوحدة الإسلامية) ومن وسائل هذا التجديد إحياء اللغة العربية بالكلام والكتابة والخطابة وتأليف الكتب بالأساليب العصرية السهلة وتعميم التعليم والتربية على القواعد الفنية ونشر الدعاية الإسلامية في العالم.

وإذا كانت الأمة تحتاج إلى التجديد في إقامة أمر دينها وقد أكمله الله

تعالى لها وحظر عليها الابتداع فيه فهي أحوج إلى التجديد في أمور الدنيا التي تختلف مصالحها باختلاف الزمان والمكان وعرف الناس، والشرع يراعي ذلك كله كما هو مقرر في كتب الفقه.

والتجديد فيها نوعان: نوع يتعلق بالمصالح العامة وما تحتاج إليه من التشريع وقد حث الشارع على التجديد في هذا النوع بقوله ﷺ «من سن في الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعده كتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء» رواه مسلم من حديث جرير بن عبد الله.

وإن من هذه السنن العامة وضع قواعد العلوم والفنون النافعة وإنشاء المدارس والملاجىء والمستشفيات، ويستوي في هذا التجديد الأفراد والجماعات والحكومات، ومنها ما هو خاص بالحكومة كالمصالح العسكرية التي يتوقف عليها حماية البلاد وحفظ الأمة من العدوان.

وأما التشريع المتعلق به فهو موكول في الإسلام إلى أولي الأمر، والجماعة المعبر عنها بأصحاب الحل والعقد، فهم يقررونه بالشورى بينهم، والاجتهاد فيما ليس فيه نص قطعي ومن وحي ربهم، ولا سنة ماضية من سنن نبيهم، بشروطه المعروفة في محلّها، فإن الاجتهاد مع وجود النص ممنوع في الشرع وفي القوانين الوضعية جميعاً.

والنوع الثاني ما هو من أمور المعايش كالزراعة والصناعة والتجارة وأمور العادات التي ليس فيها مفسدة وقد وكله الشارع إلى تجارب الناس، وفي هذا قال ﷺ «أنتم أعلم بأمر دنياكم» رواه مسلم من حديث أنس

وعائشة رضي الله عنهما وقال في معناه « ما كان من أمر دينكم فإليَّ وما كان من أمر دنياكم فأنتم أعلم به » رواه أحمد.

وجملة القول إن التجديد المشروع يشمل كل ما تعتز به الأمة والدولة من العلوم والفنون والصناعات والنظم المالية والإدارية والعسكرية والمنشآت البرية والبحرية والجوية، فكل ذلك يعد في الإسلام من فروض الكفايات التي تأثم الأمة كلها بتركها والشرع لا يقيدها فيها إلا باجتناب الضرر والضرار والظلم (ومنه استغلال حاجة المعسر بأخذ الربا منه) مع قواعد إباحة الضرورات للمحظورات وتقديرها بقدرها ومراعاة الحق والعدل.

تصدير التاريخ[1]

بيان كنه التجديد والإصلاح الذي نهض به حكيم الشرق والإسلام (وشيخنا الأستاذ الإمام، ووجه الحاجة إليه، ووجوب المحافظة عليه)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ (٢٨ : ٥) ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ (٧ : ١٧٠) ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (٣ : ١٤٠).

جرت سنة الله تعالى في أفراد البشر أن يؤتيهم قوى المشاعر الحسية والمدارك العقلية بالتدريج حتى يبلغ أحدهم أشده، ويستكمل رشده، ويستقل بنفسه بالعلم والعمل والتجارب، وجرت سنته في الشعوب والأمم أن يمنح كلاً منهم من هداية الوحي في كل طور من أطوار حياتهم الاجتماعية ما هو مستعد له وصالح لحاله وزمانه، على مثال سنة التدريج في الأفراد، إلى أن استعد النوع البشري في جملته ومجموعه لفهم أعلى هداية إلٓهية لا يحتاج بعدها إلا لاستعمال عقله في الاهتداء بها، في كل زمان ومكان بحسبها،

---

(١) المنار، جزء ١، مجلّد ٣٢ (٣ أكتوبر ١٩٣١).

ووهبه هداية القرآن، وختم النبوة برسالة محمد عليه الصلاة والسلام.

ولما كان من طباع البشر أن يضعف تأثير الوحي في قلوبهم بطول الأمد على عهد النبوة فيفسقوا عن أمر ربّهم، ويتأولوا كتبه بأهوائهم، أنعم عليهم بما يحيي هداية النبوة فيهم، بأن يبعث فيهم بعد عصر النبوة مجددين، وأئمة مصلحين، يرثون الأنبياء بالدعوة إلى إصلاح ما أفسد الظالمون في الأرض، ويكونون حجج الله على الخلق، وقد بشرنا نبينا محمد خاتم النبيين وإمام المصلحين، بأن الله تعالى يبعث في هذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها، ليكونوا خلفاءه فيما جدده من دين الله تعالى للأمم كلها (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) إذا طال عليهم الأمد، فقست قلوبهم، وفسقوا عن أمر ربّهم.

إنما كان المجددون يبعثون بحسب الحاجة إلى التجديد لما أبلى الناس من لباس الدين، وهدموا من بنيان العدل بين الناس، فكان الإمام عمر بن عبد العزيز مجدداً في القرن الثاني لما أبلى قومه بنو أمية وأخلقوا، وما مزقوا بالشقاق وفرقوا، وكان الإمام أحمد بن حنبل مجدداً في القرن الثالث لما أخلق بعض بني العباس من لباس السنة، ورشاد سلف الأمة، باتباع ما تشابه من الكتاب ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وتحكيم الآراء النظرية في صفات الله وما ورد في عالم الغيب، بالقياس على ما يتعارض في عالم الشهادة. وكان الشيخ أبو الحسن الأشعري مجدداً في القرن الرابع بهذا المعنى، وحجة الإسلام أبو حامد الغزالي مجدداً في أواخر القرن الخامس وأول السادس لما شبرقت نزعات الفلاسفة وزندقة الباطنية، والإمام أبو محمد علي بن حزم الظاهري في القرن السادس لما سحقت الآراء من فقه النصوص الشرعيّة – وشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم مجددين في آخر القرن السابع وأول الثامن لجميع ما مزقت البدع الفلسفية والكلامية

والتصوفية والإلحادية، من حلل الكتاب والسنة السنية، في جميع العلوم والأعمال الدينية، وحسبنا هؤلاء الأمثال في التجديد الديني العام.

وظهر مجددون آخرون في كل قرن كان تجديدهم خاصاً انحصر في قطر أو شعب، أو موضع كبير أو صغير، كأبي إسحاق الشاطبي صاحب الموافقات والاعتصام في الأندلس، وولي الله الدهلوي والسيد محمد صديق خان في الهند، والمولى محمد بن بير علي البركوي في الترك، والشيخ محمد بن عبد الوهاب في نجد، والمقبلي والشوكاني وابن الوزير في اليمن.

وهنالك مجددون آخرون للجهاد الحربي بالدفاع عن الإسلام، أو تجديد ملكه وفتح البلاد له، وإقامة أركان العمران فيه، وهم كثيرون في الشرق والغرب والوسط، ورجاله معروفون، كبعض خلفاء العباسيين والأمويين، ومنهم من جمع بين أنواع من التجديد كالسلطان صلاح الدين الأيوبي الذي كسر جيوش الصليبيين من شعوب الإفرنج المتحدة، وأجلاهم عن البلاد الإسلامية المقدسة وغيرها، وأزال دولة ملاحدة العبيديين الباطنية من البلاد المصرية، وكذلك فتح الترك لكثير من ممالك أوربة عرف فيها مجد الإسلام.

ضعف الإسلام السياسي وملكه

ثم اتسع ملك الإسلام وزالت وحدة أحكامه بانقسام الخلافة إلى خلافتين فزوال كل منهما، وكثرت دوله فتفرقت وحدة أمته السياسية إلى شعوب مختلفة في الأجناس والأوطان، ووحدة ملته الدينية إلى مذاهب مختلفة في الأصول والفروع، فتعادوا في الدنيا والدين، وتقاتلوا على عصبيات الملوك والسلاطين، فحق عليهم قول كتاب ربهم (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) فسلط الله عليهم أعداءهم فَثَلّوا أكثر عروشهم،

وانتزعوا منهم أكثر بلادهم (ذلك بأن الله لم يك مغيّراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم)(٨ : ٥٣). (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مُصلحون) (١١ : ١١٧) وكان يظهر في هذه الدول المتفرقة مجددون متفرقون في العلم كما تقدم وفي الإدارة والعمران كمحمد علي باشا بمصر – وفي الحرب كالأمير عبد القادر في الجزائر ويعقوب بك في تركستان الصينية – وفي السياسة كمصطفى رشيد باشا وعالي باشا وفؤاد باشا في الترك، وخير الدين باشا في تونس – وفي إرشاد العامة والبدو للدين والدنيا كالسيد السنوسي.

حال البشر الأخير وما يقتضيه من التجديد

في أثناء هذا الضعف الإسلامي العام – دخلت الشعوب الإفرنجية في طور جديد في الفتح والغلب والسياسة والعمران، قوامه العلوم الكونية والفنون والصناعات والثروة والنظام، وتجدد فيها من آلات الحرب وكراعها، وأسلحة القتال وعتادها، ما يمكن الجند القليل من إبادة جند يفوقه أضعافاً مضاعفة في العدد والشدة والشجاعة في زمن قصير.

واستحدث فيه من النظام ما يسهل به على أفراد ممن حذقوه ومردوا عليه أن يسخروا لخدمتهم شعباً كبيراً غريباً عنهم في جنسه ولغته ودينه كما يسخرون الأنعام الداجنة والسائمة، والحمر الموكفة والخيل المسومة، فيذلون بالجماعات المذللة منه الجماعات المتمردة، ويستنزفون ثروته كلها فيجرفونها إلى بلادهم التي نزحوا منها فاتحين مستعمرين، ويتصرفون في قواه المعنوية، وروابطه القومية والدينية، كما يتصرفون في حرثه ونسله، ولحمه ودمه، وأرضه وماله، وهكذا يتصرّف العلم بالجهل، والنظام بالفوضى.

وابتدع فيه من مراكب النقل والتسيار، وآلات رفع الأثقال، وأجهزة تبليغ الأخبار، ما مهد السبل لمبتدعيها ومتخذيها من كل ما أشرنا إليه من الأعمال الحربية، والتصرفات السياسية، والوسائل الاقتصادية، وصارت المسافة بين القارة والقارة، أقرب من المسافة بين بلد وأخرى من مملكة واحدة، وهو ما عبر عنه في الحديث النبوي بتقارب الزمان.

اتسعت بذلك مسافة الخلف بين الشعوب في العلم والعمل ووسائلها، واشتدت الحاجة إلى تجديد الحياة في المتخلفة منها عن المتقدمة، لا ينهض بمثله أمثال أولئك المجددين القدماء بالوسائل القديمة وحدها، ولا يطمح إليه صوفي يستمد قوته من الأموات، ويتكل على الكرامات ويغتر بالمنامات، ولا يطمع في تذليل صعابه واقتحام عقابه غريق في بحار النظريات العقلية، ومغترق الأفكار بنظريات الفلسفة، ولا يطلع ثناياه، ويجتلي خفاياه، منقطع إلى كتب الشرائع، واستنباط أحكام الوقائع ولا يتسامى إليه من تعلم العلوم والفنون العصرية تعلماً آلياً ليكون أحد العمال في دائرة من دوائر الحضارة أو ديوان من دواوين حكومتها.

إن هذا لبدع من الخطوب الكبرى غير عادي، لا ينبعث إلى تلافيه إلا بدع من كبراء الرجال غير عادي: أمم قوية بالعلم الجديد والفن الجديد، والسلاح الجديد، والنظام الدقيق في السياسة والإدارة والمال، والتعاون بتوزيع الأعمال، واستخدام قوى الطبيعة، تستلب ملك أمم جاهلة، متفرقة متخاذلة، مختلة النظام، مستعبدة للمستبدين، منقادة للخرافيين، وقد قذف في قلوبهم الرعب فكانوا مصداق قول النبي ﷺ «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها»[1] فقال قائل: ومن قلة نحن

(١) تداعى بفتح الدال أصله تتداعى أي يدعو بعضها بعضاً. والأكلة بفتحتين جمع آكل.

يومئذ؟ قال « بل أنتم يومئذ كثير، ولكن غثاء كغثاء السيل، وسينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن » قال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال « حب الدنيا وكراهية الموت »[1] فمن ذا الذي يضطلع بتجديد حياة هؤلاء الموتى ويحشرهم من قبورهم.

ألا إن الرجل الذي ينبعث إلى نفخ روح الحياة في شعوب هبطت إلى هذه الدركات من الوهن، وبعثها إلى مجاهدة أمم عرجت إلى تلك الدرجات من القوة يجب أن يكون ذا روح علوية، أوتيت حظاً عظيماً من وراثة النبوة، في كمال الإيمان، وصحة الإلهام، وعلو الهمة، وقوة الإرادة، وصدق العزيمة، وإخلاص النية، وقوة الفراسة، والزهد في الشهوات البدنية، واحتقار الزينة الخادعة، والزهد في الجاه الباطل وعدم الخوف من الموت، وأن يكون ذا وقوف على حالة العصر، وتاريخ الشعوب الديني والسياسي، وسنن الله في الاجتماع، وفصل الخطاب في الإقناع، وفصاحة اللسان وبلاغة التعبير، وقوة التأثير، ثم يكون ما يحذقه من سائر العلوم مدداً له في عمله.

حكيم الشرق والإسلام

كذلك كان ذلك الروح العلوي النبوي، الذي تمثل للأفغان في ناسوت بشري جلس في دروس العلم فحذق العلوم والفنون القديمة نقليّها وعقليها في بضع سنين، وألمّ بالهند لتلقي مبادىء العلوم الأوربية فوقف على ما شاء منها في زهاء سنتين، ثم حج في سنة ١٢٧٣ ومكث في سفره زهاء سنة يتقلب في البلاد الإسلامية، لاكتناه أخلاقها وعقائدها الدينية، واختبار أحوالها الاجتماعية والسياسية.

---

(١) رواه أبو داود والبيهقي في دلائل النبوة من حديث ثوبان (رض).

ثم عاد إلى بلاده فانتظم في سلك حكومتها وهي ممزقة بالفتن الداخلية، وموبوءة بالدسائس البريطانية، فكاد بتدبيره يخلص الأمر فيها لأميرها محمد أعظم خان الذي بوأه مكان الوزير الأول عنده لولا ما عارض ذلك من الدسائس الانكليزية، التي تمدها القناطير المقنطرة من الجنيهات الاسترلينية، والروبيات الهندية.

واضطر بفشل أميره إلى هجر وطن ولادته ونشأته، إلى حيث يمكنه الإصلاح من أوطان أمّته، فمر بالهند فبالغت حكومتها الانكليزية بالحفاوة في ضيافته، مع إحاطة عمالها وجواسيسها بمجالسه، ومنع علمائها من الاتصال به، ولكنه نفخ فيمن لقيه من كبرائها روح الاستقلال، والجرأة على كسر مقاطر الاستعباد، ثم كان يغذي ذلك الروح بالكتاب وتلقين الأفكار، لمن يلقى من رجالها في مصر وأوربة وسائر البلاد، وبمقالات له في الجرائد نشرناها في المنار، وناهيك بالعروة الوثقى التي كادت تضرم نيران الثورة فيها، وكان موقناً باستقلالها من بعده، حتى أنه قال للشيخ عبد الرشيد التتاري: يا ولد إنك ستصلي صلاة الجنازة على القيصرية الروسية، وستحضر تشييع جنازة الامبراطورية الانكليزية في الهند، وقد تمت البشارة الأولى وظهرت بوادر الثانية في هذه الأعوام.

وأغرب من ذلك أنه حمله تقريراً منه إلى جمعية سياسية سرية في عاصمة الروسية رئيسها عم القيصر وقال له إذهب بهذه الرسالة وأوصلها إلى الغراندوق فلان، واعلم أنك إما أن تقتل، وإما أن تفوز وتغنم، فأوصلها فقام الغراندوق لها وقعد، ثم أعاده بها إلى بلاد اليونان ليطبعها فيها باللغة الروسية ويرسلها إليه، وعرض عليه من المال ما شاء فلم يأخذ إلا القدر الضروري، ولقي أهوالاً كادت تذهب بحياته.

جاء هذا السيد مصر فنفخ فيها روح الحكومة النيابية، وألف فيها الحزب الوطني الأول لتقييد سلطان الحكومة الشخصية، وغذى تلاميذه ومريديه بعشق الحرية ووسائلها من العلم والكتابة والخطابة، كما أرشد المسلمين منهم إلى الإصلاح الديني، والجمع بينه وبين العلم العصري وكان من أثر هذا ما شرحه هذا الكتاب.

ذهب إلى إيران، فنفخ فيها روح التجديد في السياسة والعمران، فما زال يفعل فعله فيها بين قيام وقعود، وهبوط وصعود، حتى ظفرت بالحكومة النيابية في عهد الشاه مظفر خان، وما زالت تنتقل في أطوار التجديد والإصلاح.

ثم انتهى إلى عاصمة الدولة العثمانية، فأنشأ يرشد السلطان لوسائل الاستفادة من منصب الخلافة الإسلامية، ويجمع له كلمة الشعوب والمذاهب المختلفة، حتى أنه أقنع كثيراً من علماء الشيعة المجتهدين بالاعتراف بخلافته وجعلها مناط الوحدة الجامعة للمسلمين، ولكن قرناء السوء خوفوا السلطان من النهوض بهذه الجامعة، فأعرض عنها. وكان السيد مع ذلك يبث هنالك أفكار الإصلاح والتجديد، الجامع بين الطريف والتليد، إلى أن قضى نحبه، ولقي ربه رحمه الله وقدس سره.

الأستاذ الإمام

أرأيتك هذا المصلح العظيم، والمجدد الحكيم، إنه لم يظفر في شعب من الشعوب الإسلامية بمن يصلح أن يكون خليفة له، ومتمماً لإصلاحه بما يرجى به دوامه، بعد أن وجه إليه الوجوه، وعلقت بطلبه القلوب، على كثرة من المصطبغين بصبغته، إلا رجل مصر الشيخ محمد عبده، لأن منصب إمامة الإصلاح والتجديد، لا يرتقى إليه بوسائل الذكاء والتفكير والتربية

والتعليم وحدها، بل لا بد فيه من الاستعداد الروحي والمواهب الفطرية كما قررنا.

كان الشيخ محمد عبده سليم الفطرة، قدسي الروح، كبير النفس، وصادف تربية صوفية نقية، زهدته في الشهوات والجاه الدنيوي وأعدته لوراثة هداية النبوة، فكان زيته في زجاجة نفسه صافياً يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار، فمسته شعلة من روح السيد جمال الدين فاشتعل نوراً على نور (يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكرون).

والكلّ يعلم كيف زار السيد للمرة الأولى هو وصديقه وأستاذه الشيخ حسن الطويل في خان الخليلي. وكيف كان أول حديثه معهما السؤال عن تفسير بعض آي القرآن وما يقول العلماء والصوفية فيها، وأنه بين لهما قصور كل ما قالوه وجاء من عنده بخير منه، وكيف أعجبا كلاهما بما قال، ولكن الشيخ حسن ظل على حاله، لأنه كان قد بلغ منتهى استعداده، وكان أرقى علماء الأزهر عقلاً وعلماً وزهداً.

وأما الشيخ محمد عبده فكان يشعر بأن كل ما أصابه من حسن تربية الشيخ درويش، ومن علم الشيخ الطويل والشيخ القصير[1] دون ما تسمو إليه نفسه، ويتطلع إليه عقله، وتضطلع به همته، وكان يطلبه بما استطاع من الوسائل فلا يجده، ذلك أن روحه كانت مستشرفة للعرفان الذي يصعد بها إلى سماء الوراثة النبوية في إصلاح البشر، وتجديد أمر الدين الذي بشر به المصلح الأعظم ﷺ فاتصل بالسيد جمال الدين من ذلك اليوم حتى

---

(١) المراد بالشيخ القصير أحمد الرفاعي القصير القامة وكان أصلب الأزهريين جموداً كما كان الشيخ الطويل أشدهم استقلالاً.

اقتبسه منه، وكان خليفته فيه، لكن من ناحية تربية الأمة التي كان يتمنى قيام السيد بنفسه بها، إذ لا يثبت إصلاح الحكومات بدونها.

تلك الوراثة النبوية التي عبر عنها يوم موت السيد بقوله في رثائه الوجيز البليغ: «والدي أعطاني حياة يشاركني فيها علي ومحروس[1] السيد جمال الدين أعطاني حياة أشارك بها محمداً وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام والأولياء والقديسين، ما رثيته بالشعر لأنني لست بشاعر، ما رثيته بالنثر لأنني لست الآن بناثر، رثيته بالوجدان والشعور لأنني إنسان أشعر وأفكر» اهـ بنصه تقريباً[2].

هذه الوراثة هي التي أخرج الله تعالى بها محمداً عبده من خمول تصوفه وخمود أزهريته إلى ميادين الجهاد في سبيل التجديد الديني، والإصلاح الاجتماعي المدني، يخوض غمرات الثورات، وتتقاذفه أمواج الأسفار، وتكافحه فتن الأمراء المستبدين، وجهالة حملة العمائم الجامدين، من حيث بقي حسن الطويل نديده في التصوف والفلسفة قابعاً في كسر بيته، راضياً بخموله وراحة نفسه، وإن في الصلاة لراحة، وإن في العلم والذكر للذة، ولكن ثوابها قاصر على صاحبها، وثواب الجهاد متعد لكل من ينتفع به والإنسان الكامل من يجمع بينهما.

بهذا الروح العلوي كان يقول له أستاذه السيد جمال الدين وهو مجاور يلبس الزعبوط: قل لي بالله أيّ أبناء الملوك أنت؟ ذلك السيد الذي كان يخاطب الملوك المستبدين خطاب الأقران، بل يهدد بعضهم ويمن على بعض فيقول للسلطان عبد الحميد إنني لأجل أمرك قد عفوت عن شاه إيران،

(١) هما أخواه اللذان يشتغلان بالزراعة.
(٢) كنت كتبت العبارة من مذكرة له وفقدت المكتوب، وبقي المحفوظ.

ويقول له السلطان: بحق يخاف منك الشاه خوفاً عظيماً[1].

بهذا الروح العلوي كان يشرف من سماء إدارة المطبوعات بالسيطرة والسلطان على الحكومة المصرية من أعلاها إلى أدناها، فيأمرها وينهاها، منتقداً أعمالها، مرشداً عمالها، يخطىء لغتهم الكتابية فيضطرهم إلى إصلاحها في معاهد التعليم، ويفند أعمالهم فيقيمهم على صراط العدل المستقيم، بل أزعج بمقالاته في انتقاد وزارة المعارف ناظرها حتى شكاه إلى رئيس النظار رياض باشا فما أشكاه، وكلم الرئيس الشيخ فأقام له البرهان على وجوب الإصلاح، وأقنعه بإنشاء المجلس الأعلى المقيد لاستبداد وزيرها في الأعمال، فأنشأه برأيه. وكان هو سكرتير ذلك المجلس وصاحب التأثير الأكبر فيه.

بهذا الروح العلوي كتب ذلك الكتاب البليغ في سجنه وأعلن فيه عفوه عمن وشوا به وأساؤا إليه على ما كان من إحسانه إليهم، وجزم بما أعدت له العناية من الجد، واعداً بأن سيفعل المعروف، ويغيث الملهوف... وكذلك كان.

بهذا الروح العلوي كان هو الرأس المدبر في كل مجلس رسمي عين عضواً مرؤساً فيه، كمجلس إدارة الأزهر، ومجلس الأوقاف الأعلى، ومجلس شورى القوانين، وتجد إثبات ذلك في بيان أعماله فيها من هذا الكتاب، سافرة الوجه ليس دونها نقاب.

بل بهذا الروح العلوي كان أميره يكبره ويهابه، ويقول إنه يدخل علي كأنه فرعون، وإنما كان يدخل عليه كدخول موسى عليه السلام على فرعون، متوكئاً على عصا الحق، داعياً إلى الإصلاح والخير، ناهياً عن الاستبداد

(١) هذا لفظ السيد في ترجمة لفظ السلطان سمعه منه كثيرون في الآستانة.

والبغي، كقوله له في مجلس تشريف المقابلة الحافل بالعلماء: إن مجلس إدارة الأزهر لا يعرف لسموكم أمراً عليه، إلا بهذا القانون الذي بين يديه، دون الأوامر الشفوية التي يبلغها عنكم، من لا يثق به المجلس لمخالفته لقانونكم.

* * *

تلك آيات بينات من حياة كل من الروحين على الانفراد. فما رأيك إذا اجتمع هذا الروح العلوي بذلك الروح الأعلى الذي أذكى سراجه الوهاج، واتحدا في عمل من الأعمال؟ ذلك ما كان من إصدارهما جريدة العروة الوثقى، التي لا نعرف في تاريخنا كلاماً بشرياً أبلغ من مقالاتها في إصابة مواقع الوجدان من النفس، ومواضع الإقناع من العقل، وتَجْرِئة الضعفاء على الثورة على الأقوياء، والجهاد لتحرير أمتهم، واستقلال بلادهم.

فإن سألت عن تأثيرها في رعب العظمة البريطانية، وإثارة العالم الإسلامي والشعوب الشرقية، فإنك تجد قصصها مبسوطاً في هذا الكتاب، بما يشبع نهمتك السياسية من إسهاب، ويروي غلتك الأدبية من إطناب.

وإنه ليبسط لك بالروايات الصحيحة، والشواهد الصادقة، كل ما أشرنا إليه في هذا التصدير من آثار تلك الروح القدسية، وتجديد الإصلاح المنقذ للأمم والشعوب من رق الفاتحين المستعمرين، وظلم المستبدين القاهرين، وجمود الفقهاء المقلدين، ودجل المتصوفة الخرافيين، فاطلبه من هذا التاريخ فإنه يقصه عليك مفصلاً تفصيلاً.

فاقرأه أيها الغيور على قومه ووطنه فصلاً فصلاً، وتدبر مقاصد فصوله مقصداً مقصداً، ثم اقرأ في الجزء الثاني له مقالات الإمام الاجتماعية والأدبية، ولوائحه في إصلاح التربية والتعليم، ورسائله الدينية والأدبية

للعلماء والأدباء. ثم ارجع البصر إلى الجزء الثالث واعتبر بتأثير وفاته في العالم الديني والمدني، وتأمل إجماع كتاب الأمم والشعوب المختلفة الأجناس والأديان والآراء والأفكار على تزكيته وتقديسه، أو تدبر مقدمتنا لكل منها – تعلم أنه هو الإمام الذي يجب اتباعه في تجديد الأمة وإحياء الملة، وإيجاد المدنية الفاضلة، ثم انظر ما اقترحته على مصر في خاتمة هذا الكتاب لعلك تكون من حزب الدعاة المصلحين، وأنصار التجديد المستبصرين الذين قال الله تعالى فيهم (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين).

هذا ما توخيت التنويه به من هذا الضرب البديع من التجديد لحياة الشرق على ما وصفت من التباين بينه وبين الغرب، وما كان من تأثيره الذي يشبه خوارق العادات، كإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الأموات.

المجددون للوثنية والدجل

ألا وإنه قد نجم في هذين القرنين قرنان أو قرون من أدعياء التجديد، بعضهم في إيران وبعضهم في الهند، وإن هم إلا مسحاء دجالون، ومتنبئون كذابون، لبسوا على الناس لباس الإصلاح الديني، وتمثلوا لهم بالشكل الذي تصوره تقاليدهم لما ينتظرون من المسيح والمهدي، وانتحلوا لدعايتهم آيات، واخترقوا لأنفسهم معجزات، فمنهم من ادعى النبوة، ومنهم من ادعى الألوهية، وقد اتبعهم فئام من المحرومين من مزايا الإنسان، الكافرين بنعمتي العقل والقرآن، الجاهلين لثبوت نبوة خاتم النبيين بالعلم والعقل، وإن الله ختم به نزول الوحي، فزادوهم رجساً على رجسهم، وعبودية للأجانب على عبوديتهم، فكانوا دعاة وأنصاراً للمعتدين على استقلال بلادهم، المستعبدين لأقوامهم، فوالله لو عمت فتنتهم لاستولى الانكليز على

بلاد فارس كلها، ولما وجد في الهند من يطالب الانكليز باستقلال، ولا بحق من الحقوق ولا عمل من الأعمال.

أليس من مثار العجب الذي جاء بها أبو العجب[١] أن يضع كل من أتباع هؤلاء الدجالين لأنفسهم نظاماً، ويجمعوا لبث نحلتهم أموالاً، وينفروا للدعوة إليها خفافاً وثقالاً؟ فيكون لهم في كل واد أثر، وفي كل قطر ذكر، وينضوي إليهم بعض الملاحدة طمعاً في أموالهم، لا إيماناً بمسيحهم أو إلههم؟

أوليس بأوغل من هذا في أعماق العجب وأولغ في أحشائه أن يتخاذل العارفون بقدر حكيمي الشرق، وإمامي الإسلام بالحق، عن تأليف حزب لتعميم إصلاحها واستمرار تجديدهما، وأن يكون لجماعتهم نظام يكفل دوام سيرهم ومال يضمن نجاح سعيهم، ومدارس تربي النابتة على منهاجهم، وأطباء يداوون أمراض الاجتماع بعلاجهم، على استقلال الفكر، وحرية العلم والرأي، وهداية الدين، وتوطين النفس على الجهاد لإعلاء كلمة الحق. وإقامة ميزان العدل لتكون عزيزة لا تدين لأجنبي معتد، ولا لوطني مستبد؟

نعم إن ذلك لعجيب! وإن هذا لأعجب منه. ويشبههما في العجب أن المنتمين إلى السنة من المسلمين أقل من المبتدعة تعاوناً وتناصراً وعصبية ودعاية: أفلا أنبئك بالسبب، الذي ينتاشك من حيرة العجب؟

إن حقيقة السنة والجماعة هي حقيقة الإسلام. وإن الإسلام الحق هو دين توحيد العبوديّة والربوبية لله وحده. والحرية وعزة النفس تجاه ما سواه. واتباع رسوله وحده فيما بلغه عنه والعمل بمقتضى الوازع النفسي التابع

---

(١) أبو العجب: الشعوذي وكل من يأتي بالأعاجيب.

للعقيدة، والنظام الاجتماعي الذي تقرره الشريعة، فلا تذل نفس صاحبه بالانقياد لرئيس ديني ولا دنيوي لذاته، ولا لسلطان وراثي أو تقليدي فيما وراء تنفيذ أحكامه.

وأما هذه النحل الباطلة والمذاهب المبتدعة التي أشرنا إلى بعضها فأساسها العبودية والخضوع لفرد أو جماعة من البشر، يقدس منتحلها أشخاصهم ويرفعهم على نفسه وعلى سائر الناس وهم منهم، ويوجب طاعتهم عند فريق وعبادتهم عند آخر. فتكافل هؤلاء يكون تاماً شاملاً لأنه تعبدي، وعصبيتهم تكون أقوى لأنها وجدانية لا عقل للأفراد ولا رأي للجمهور فيها.

ويرد علينا ههنا أن العقائد الباطلة والتعاليم الواطئة، خير للجماعات وللشعوب التي تأخذ بها من العقائد الصحيحة والتعاليم العالية، من حيث جمع الكلمة ووحدة الأمة. ونرد هذا الإيراد بقولنا إن العقائد الحق والتعاليم الصحيحة لا يقوم بها إلا أصحاب العقول النيرة والأفكار المستقلة الذين آمنوا بها عن حجة وإذعان. وما تنازع هؤلاء مع المخالفين لهم إلا وكان لهم الرجحان. سواء أكان التنازع في الدين أو في الحكم والسلطان، وبهذا ظهر الإسلام على جميع الأديان.

وهذا الفريق فريق العقل واستقلال الفكر قلّ في جميع فرق المسلمين ببناء التعليم فيهم على أساس التقليد الذي يحتم على طالب العلم أن يقبل كل ما يقرره شيوخه بعنوان مذهبه وإن لم يكن منه، سواء أعقله أم لم يعقله، فإن نازعه فيه حكَم بكفره، ولهذا صار أكثر المسلمين يقبلون البدع والخرافات مهما تكن المذاهب التي ينتمون إليها، إذ ليست المذاهب فيهم إلا عناوين لعصبيات لها رؤساء يطاعون باسمها، وأكثرهم يجهلون أصولها وقواعدها. ومن تلقى منهم شيئاً منها فإنما هو لفظ ينقله ولا يعقله، ولا

يرجع إليه في فروع علمه ولا عمله، ومن كان غير مستقل الفهم والعقل في عقيدته، لا يكون مستقل الإرادة في عمله. ومن نتائج هذا الخضوع أن صاروا خانعين للمستبدين، وظهراء للظالمين، وإن كانوا بملتهم كافرين.

وأساس الإصلاح الديني والسياسي الذي قام به وعليه الإسلام ديناً ودولة وقامت عليه الدول القوية هو الاستقلال بنوعيه. وهو الذي دعا إليه الحكيمان المجددان الأفغاني والمصري، وقد بينه الأستاذ الإمام في رسالة التوحيد، لهذا كان أنصارهما من رجال الدين هم الأقلين وخصومهما منهم هم الأكثرين. وكان أشد ما أنكروه عليهما القول بوجوب الاجتهاد وتحريم التقليد - ويقابله أن كان أكثر المعجبين بهما والذين قدروهما قدرهما، هم الذين نبغوا في المدارس المدنية العالية التي يسير فيها التعليم على منهاج استقلال الفكر وكذا من تلقى من بعض أهلها وعاشرهم على استعداد فيه فصار مستقلاً. ثلة من المدنيين وقليل من المعممين.

ولو كان ما دعا إليه الحكيمان هو التجديد السياسي والمدني دون الديني لألّف له هؤلاء الأنصار حزباً كبيراً منظّما كما فعل سعد باشا من تلاميذهما بعدهما.

ولو دعا الأستاذ الإمام إلى نهضة دينية تقليدية صوفية لوجد من الأزهريين وأهل الطرق من يؤسس له عصبية قوية يتبعها الألوف وألوف الألوف في زمن قريب، ولا سيما إذا أباح لنفسه أن يظهر لهم تعبده الخفي، ومعرفته بأسرار التصوف، وغير ذلك من خصائصه الروحانية، التي كان يعتقد وجوب كتمانها لأنها غير طبيعية فإظهارها للمقيدين بالسنن الطبيعية فتنة لهم، وفيها كثير مما يعد من الكرامات عندهم، وقد نقلت هذا عنه في بيان رأيه في التصوف والصوفية.

بيد أن كلًّا منهما حكيم عاقل، وإن السيد جمال الدين رجل دين وإن غلبت عليه السياسة. والشيخ محمد عبده رجل سياسة وإن غلب عليه الدين. بل هو أقرب من أستاذه إلى الموقف الوسط بين رجال الدين والدنيا من المرتقين فيهما، فقد كان في الأزهر لا يعلو قوله قول ولا يغلب رأيه رأي. وكذلك كان بين الراقين من رجال الدنيا كالوزراء والقضاة والمحامين والأدباء والمنشئين، بل كان كذلك بين علماء الإفرنج وساستهم، وترى نموذجاً من شهادات الجميع له في هذا التاريخ.

وخلاصة ما أريد عرضه على قراء هذا التاريخ في هذا التصدير أن إصلاح الأمة الإسلامية في أي شعب من شعوبها لن يكون إلا بالجمع بين التجديد الديني والدنيوي. هذا ما صرح به الحكيمان وجريا عليه بالعمل. وصرح لي به سعد باشا زغلول وقد نقلته عنه في المنار. بل هذا ما يعتقده أهل الرأي الناضج من غير المسلمين، وقد صرح به الكثيرون منهم قولاً وكتابة، كما يراه القارىء فيما كتبه بعضهم في تأبينهم الأستاذ الإمام وترجمتهم له من الجزء الثالث، وذكرت كلمات منها في الشهادات المعدودة لأشهرهم قبل خاتمة هذا الجزء.

فالجهاد الذي يخوض غمراته دعاة الاستقلال السياسي والإصلاح المدني لا يتم لهم النصر فيه، ولا يتسق أمره وتثبت بوانيه، إلا بالتعاون والتظاهر مع دعاة الإصلاح الديني، وقد كثر جنده المستقلون في فهم الإسلام في الأزهر وغيره من القطر المصري وفي سائر الأقطار الإسلامية وهم منذ سنين يفكرون في تكوين وحدتهم وتنظيم حزبهم، فإذا وجدوا من زعماء الأحزاب المدنية رغبة في الاتحاد بهم والتعاون معهم، ظهر لهؤلاء من قوتهم في الرأي، وتأثيرهم في الشعب، بألسنتهم الخاطبة، وأقلامهم الكاتبة، ما لم يكونوا يحتسبون.

وأختصر في هذا الموضوع هنا لأنني قد وفيته حقه في خاتمة الكتاب بما ليس وراءه مزيد، إلا إذا ظهر الاستعداد له وانتقل إلى حيز التنفيذ.

راجع الخاتمة، واجمع بينها وبين هذه الفاتحة، وإنما الأعمال بالخواتيم. (ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم).

الجمع بين مسألة الذكران والإناث في المدارس[1]

ومسألة التجديد والتجدد

إن مسألة جمع البنات مع البنين في مقاعد التعليم الثانوي والعالي من أعظم الأغراض التي يرمي إليها دعاة الثورة الدينية المدنية باسم التجديد المراد به هدم القديم من مقوّمات الأمة من دين وتشريع وأدب وسياسة، ومشخصاتها من العادات والأزياء وغير ذلك. والتجديد سنة من سنن الاجتماع، كما أن التجدد من مقتضى الفطر والطباع، ومثلها مقابلها من المحافظة على القديم ولكل منها موضع فلا تناقض بينهما ولا تضاد، إذا وضع كل منها في موضعه بغير تفريط ولا إفراط.

من التجدد في نظام الفطرة أن كل أحد يخالف خلق والديه وأخلاقهما بعض المخالفة - ولولا ذلك لم يكن ما نرى من التفاوت العظيم بين البشر - ومن حفظ الأصل ما لا يجهل من إرثه لهما وشبهه بهما في بعض صفاتهما الجسدية والنفسية، ولولا ذلك لوقع من التباين بين أفراد الناس ما يكاد يكون به كل منهم نوعاً مستقلاً بنفسه.

ومن حفظ القديم في الأعمال وراء سنة الوراثة ما تقتضيه غريزة التقليد من محاكاة الإنسان لمن يعيش بينهم من أول سن التمييز إلى نهاية

(١) المنار، مجلد ٣٠، جزء ٢، (٨ يوليو ١٩٢٩). مجمل محاضرة ألقيت في نادي جمعية الشبّان المسلمين؛ بالقاهرة.

أجل الشيخوخة، ثم تقليد الجماهير لمن يرونهم أوسع منهم علماً، أو أعلى مكانة وقدراً – ولولا هذا لما تكونت البيوت والفصائل والشعوب والقبائل، بما يربط بعضها ببعض من المشاركات في الأعمال، التي تطبع في الأنفس ملكات الأخلاق والعادات، فتكوّن رابطة الوحدة، التي تجتمع بها وشائج الكثرة، فتكون بها الفصائل قبيلة والبيوت أمة.

ومن التجديد في الأعمال البشرية ما تهدي إليه غريزة الاستقلال المقابلة لغريزة التقليد، والميل إلى الاستنباط والاختراع، ولولاه لكانت جماعات البشر كأسراب الطير، ومساكنهم لا ترتقي عن خلايا النحل وقرى النمل.

التجديد الاجتماعي والسياسي والمدني والديني كل منها حاجة من حاج الجماعات البشرية بمقتضى غرائزها واستعداد نوعها، به يرتقون في مدارج العمران، ويصعدون في معارج العلم والعرفان، حتى إن الدين الإلهي الذي يستند إلى وحي الرب الحكيم بمحض فضله، لبعض من أعد أرواحهم القدسية لذلك من أصفياء خلقه، قد سار مع غرائز الجماعات البشرية في ترقيها من طور إلى طور حتى أكمله تعالى لهم بالإسلام عندما وصل مجموعهم إلى سن الرشد والاستقلال.

ومع هذا الإكمال يروي لنا المحدثون عن خاتم النبيين، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، أنه قال «إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها» رواه أبو داود في سننه والحاكم في مستدركه والبيهقي في المعرفة وغيرهم من حديث أبي هريرة. وأشار السيوطي في جامعه الصغير إلى صحته. والمراد بتجديد الدين تجديد هدايته، وبيان حقيقته وحقّيته، ونفي ما يعرض لأهله من البدع أو الغلو فيه أو الفتور في إقامته، ومراعاة مصالح الخلق وسنن الاجتماع والعمران في

شريعته. وبهذا المعنى أعد نفسي داعية تجديد ديني مدني، وعدواً مجاهداً للجمود على التقليد، والإصرار على ما ثبت بطلانه أو ضرره من القديم، فلا يحسبن أحد من شباننا أنني أحكم في موضوعنا بتأثير الجمود على كل قديم.

أول شاهد لي على هذا مقدمة العدد الأول من صحيفتي المنار التي كتبتها في مثل هذا الشهر[1] (شوال) أي سنة ١٣١٥ منذ ثلاث وثلاثين سنة، فقد أشرت في أولها إلى الجديد والتجديد المدني بهذه الكلمة:

«أيها الشرقي المستغرق في منامه، المبتهج بلذيذ أحلامه، حسبك حسبك، فقد تجاوزت بنومك حد الراحة، وكاد يكون إغماء أو موتاً زُؤَاماً.

«تنبه من رقادك، وامسح النوم عن عينيك، وانظر إلى هذا العالم الجديد، فقد بدلت الأرض غير الأرض، ودخل بها الإنسان في طور آخر خضع له به العالم الكبير».

ثم أشرت فيها إلى جملة المخترعات الصناعيّة، وما تجدد في العلوم الطبيعية، وانتقلت من ذلك إلى بيان أغراضي من إنشاء الصحيفة، مبتدئاً بقولي «وغرضها الأول الحث على تربية البنات والبنين» هكذا بتقديم ذكر البنات على البنين، فأنا داعية إلى تجديد من أهم قواعده ترقية مدارك النساء بالتربية والتعليم، وفي المنار مقالات كثيرة وفتاوى في ذلك؛ من أشهرها مقالات (الحياة الزوجية) التي أودع بعضها الأستاذ الاجتماعي الاقتصادي محمد طلعت بك حرب الشهير كتابه (تربية المرأة).

---

(١) كنت كتبت هذا بطلب من الجامعة المصرية في شوال العام الماضي ليكون موضوع مناظرة فيها فمنعتها الحكومة لسبب سياسي عارض، ثم ألقيته في جمعية الشبان المسلمين في المحرم الماضي مع زيادات تناسب المقام.

فأنتم ترون أنني كنت منذ ثلث قرن داعية تجديد، وذلك قبل شيوع هذا اللفظ في هذه السنين، وقد تفضل علي بلقب (المجدد) بعض الكتاب والمحبين، قبل أن ينتحله ويريد احتكاره بعض المعاصرين، ولكني أسير في كل من التجديد والمحافظة على سنن الطبيعة التي أشرت إليها آنفاً، فأقول في الدين بقاعدة الإمام مالك رحمه الله تعالى وهي الوقوف في العقائد والعبادات عند نصوص القرآن وبيان السنة النبوية له وسيرة السلف الصالح فيه قبل حدوث الآراء والبدع – ومراعاة مصالح الأمة العامة في الأحكام الدنيوية من مدنية وسياسية وغيرها.

وأما ما فوضه الشارع إلى الناس من أمور دنياهم، ووكله إلى علمهم وتجاربهم في قوله ﷺ «أنتم أعلم بأمور دنياكم» وقوله صلوات الله وسلامه عليه «إنما أنا بشر مثلكم إذا أمرتكم بشيء من أمر دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر» رواهما مسلم في صحيحه، أما هذا فأنا أدعو فيه إلى أحدث ما انتهت إليه علوم البشر وفنونها، وإلى ما لا يعرف له حد من الزيادة عليها، بقصد إعزاز الأمة وإعلاء شأن الملة بها. ولا بد فيه من المحافظة على مقومات الأمة ومشخصاتها التي كانت بها أمة في وسائلها ومقاصدها.

أومأت إلى هذا التجديد في مصالح الدنيا وهداية الدين، ومقاومة التقليد الديني للكتب والمؤلفين، بقولي في تلك الفاتحة بعد الحث على تربية البنات والبنين «وإصلاح كتب العلم وطريقة التعليم، والتنشيط على مجاراة الأمم المتمدنة في الأعمال النافعة وطروق أبواب الاقتصاد، وشرح الدخائل التي مازجت عقائد الأمة، والأخلاق الرديئة التي أفسدت الكثير من عوائدها، والتعاليم الخادعة التي لبست الغي بالرشاد، والتأويلات الباطلة التي شبهت الحق بالباطل، حتى صار الجبر توحيداً، وإنكار الأسباب إيماناً

وترك الأعمال المفيدة توكلاً، ومعرفة الحقائق كفراً وإلحاداً، وإيذاء المخالف في المذهب ديناً، والجهل بالفنون والتسليم بالخرافات صلاحاً، واختبال العقل وسفاهة الرأي ولاية وعرفاناً، والذلة والمهانة تواضعاً، والخنوع للذل والاستبسال للضيم رضى وتسليماً، والتقليد الأعمى لكل متقدم علماً وإيقاناً».

وعلى هذا الأساس المتين، أبني رأيي في موضوع تعليم البنات والبنين، فأقول:

تقليدنا للإفرنج وما يجب نظره فيه

إنني أرى أن ما يقال في فائدة الجمع بين الذكران والإناث في مقاعد التعليم في جميع درجاته أقرب إلى الخيال منه إلى الحقيقة، وأنه ناشىء عن تقليد للإفرنج، لا عن خبرة تامة واستقلال في الرأي، ولا موازنة بينه وبين ما يعارضه في الضر والنفع، ولا نظر دقيق في الفروق بيننا وبين أولئك القوم. وإنني خصم للتقليد الديني والدنيوي معاً، وقد كان من أول نظمي للشعر في عهد طلب العلم في طرابلس الشام قصيدة هذا مطلعها:

ليس التمدن تقليد الأوربيّ ... فيما انتحاه من العادات والزيّ
إن المقلد لا ينفك مرتكساً ... في الضعف يخبط في ليل دجوجيّ
بل التمدن ملزوم التقدم مَد ... عاة الرفاهة منفاة الألاقيّ(١)
روح شريف به تحيا الشعوب بما ... يبث فيها من العلم الحقيقي
حتى ترى كثرة الآحاد راجعة ... لوحدة والفرادى كالأثابيّ(٢)

---

(١) الألاقي جمع ألقية وهي الشدائد والدواهي.

(٢) الأثابي الجماعات الكبيرة.

والاختلاف بآراء الرجال لأجـ ـل الاتفاق على نيل الأمانيّ

نعم إن الباعث الأول على التقليد هو احتقار المقلد لنفسه، وتعظيمه لشأن من يقلده، سواء أكان المقلد فرداً أو جماعة كبيرة أو صغيرة وهي الأمة. فمن وطن نفسه أو أمّته على التقليد فقد حكم عليها بالذل، وأن تكون تابعة لا متبوعة، مستعبدة لا مستقلة، قاصرة لا رشيدة، وقد عقد حكيمنا العربي الاجتماعي ابن خلدون في مقدمته الشهيرة فصلاً خاصاً في بيان «أن المغلوب ولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر عوائده».

فيجب علينا أن نتقي هذا الخطر في حكمنا الاستقلالي على ما ندعى إليه من اتباع غيرنا، مما أشار إليه حكيمنا، وأن نكون على حذر في كل تغيير في مقومات أمتنا ومشخصاتها، وأن نعتبر في ذلك بسير الأمم العزيزة في كل انقلاب حدث فيها، ونوازن بين نفعه وضره، وما ينطبق وما لا ينطبق علينا منه، ولا يجب مثل هذا فيما نحتاج إليه من الفنون الصناعية والزراعية والاقتصادية والعسكرية ونحوها لأن الحاجة إليها في جميع الأمم واحدة مهما تكن أديانها وآدابها ولغاتها وتقاليدها.

وأول مثل يجب أن نعتبر به الأمة الانكليزية التي هي أعز أمم الإفرنج وأعظمها حضارة وسلطاناً، فإننا نراها أشد الأمم اعتصاماً بكل ما يتعلق بروابطها الملية والقومية، من دينية ودنيوية. ومن أهم ذلك مسألة التغيير في كتاب الصلاة التي كثر الخوض فيها أخيراً. ورفض البرلمان قبول اقتراح التغيير فيه مع العلم بأنه من وضع الكنيسة وتقاليدها، وكون تنقيحه بما يحتج به المقترحون من المصلحة الدينية العامة لا يتضمن تغيير شيء من كتب العهدين القديم والجديد التي هي عندهم ينابيع الدين.

ودون هذا ما يصر عليه الإنكليز من مقاييسهم وموازينهم لأنه

إنكليزي وعدم قبولهم ما يخالفه من المقاييس والموازين العشرية على أفضليتها وتسهيلها لوسائل التعامل العام بين البشر - لأنها من صنع اللاتين لا من صنع الانكليز.

ولنلق نظرة عجلى على تعليم النساء عندهم نجدهم إلى منتصف القرن التاسع عشر قلما كانوا يَعْدُون في تعليم البنات الابتدائي شغل الإبرة والرقص والعزف بالبيانو - ثم زادوا في منهاج تعليمهن الدين والأخلاق وتدبير المنزل. وفي ذلك العهد أسست في إنكلترة مدارس البنات الابتدائية، وفي العشر الأواخر منه بدىء بتأسيس مدرستين كلّيتين لهن وتلاهما غيرهما - ونجد أن مدرستي كمبردج وأكسفورد الجامعتين كانتا تتنعان عن إعطاء البنات الدرجة العلمية التي يستحققنها بالامتحان، إلا أن الثانية رجعت عن هذا الحرمان لهن في سنة ١٩٢٠ أي بعد أن عظم سلطان النساء في أوربة كلها بما أبلين في عهد الحرب الكبرى، وبقيت الثانية مصرة عليه إلى العام الماضي على ما رأيت في بعض المجلات العلمية، ولا أذكر أنني رأيت نصًّا في رجوعها عنه.

ومما يجب أن ينظر فيه في مسئلتنا نظرة تدقيق واعتبار ما بين نسائنا ونساء الإفرنج من الاختلاف في العلم والعمل والتقاليد، ومن أهمه مشاركة النساء للرجال عندهم في الكسب، وهو يسوغ من مشاركتهن لهم في التربية والتعليم ما لا يسوغه حال نسائنا.

حجة القائلين باختلاط الجنسين

إن الذي أعلمه أن أقوى حجج القائلين باختلاط الجنسين في جميع مراحل التعليم وزعمهم أنه خير وسيلة للتربية الصحيحة هو أن كلًّا منهما يختبر الآخر حق الاختبار، فيقف على أخلاقه وآدابه وآرائه ومقاصده من

الحياة، فيكون من فوائد ذلك أن تبنى البيوت (العائلات) التي تتكون منها الأمة على أساس ثابت صحيح لا تقوضه أهواء جهل كل منهما بما ذكر وما ينجم عن هذا الجهل من خلاف وشقاق.

والذي أراه أن هذه نظرية خيالية، تنقضها الخبرة والتجارب العملية، ولو ثبتت من بعض الوجوه لكان ما يعارضها من غوائل الاختلاط في أمتنا أحق وأولى بالترجيح عليها، وهو ما سأشير إليه بالاختصار بعد نقضها.

أقول في هذا النقض (أولاً) إن كلًّا من الفريقين الشقيقين يعرف في بلادنا ما عليه الفريق الآخر في جملته من الأخلاق والآداب والعادات والتقاليد العامة وأغراض الحياة ومنازعها بما يسمعه كل منهما ويراه ويبلوه من معاشرة الأقربين والجيران وغيرهم، وأما معرفة كل فرد منهما لكل فرد من الآخر فلا سبيل إليه بالاختلاط في المدارس، ولا فيما سيكون عاقبة له من الاجتماع في المحافل والجامع.

(ثانياً) كانت هذه النظرية مسلمة عند جماهير المتفرنجين وكثير من غيرهم فيمن يريدان التزاوج، وقد بينا بطلانها في مقالات الحياة الزوجية بما يؤيده ما فشا في هذه السنين من قلة الزواج وكثرة الطلاق في العالم الإفرنجي القديم والجديد وفي الشعوب المقلدة له وفي مقدمتها شعبنا المصري. وإنني في غنى عن إيراد الشواهد وسرد الإحصاءات المخيفة في هذا بما تنشره الصحف منها في هذه الأيام نقلاً عن صحف أوربة والولايات المتحدة الأميريكانية [١].

(ثالثاً) إن من المعلوم بالاختبار أن كلًّا من الجنسين يتجمل ويرائي

---

(١) يراجع قراء المنار ما نشرناه من إحصاء الطلاق في الولايات المتحدة الامريكانية في ص ٣٠٨ من المجلد ٢٩.

الآخر في معاشرته له منذ يشعران بالميل الغريزي الذي جعله الخالق الحكيم داعية التناسل فيهما، فيخفي كل منهما عن الآخر ما يعهد أو يظن أنه يكرهه أو يستنكره، ويتوخى إظهار ما يرجو أن يحبه ويؤثره، ولا سيما إذا كانا يميلان إلى الاقتران، وقد شرحت هذا في مقالات الحياة الزوجية.

وإننا نرى علماء الإفرنج الأحرار يصرحون بأنه قلما يوجد عندهم زوجان يعيشان كل عمرهما أو جله متحابين متوادين كما يصوره كتاب القصص الخيالية التمثيلية وغيرها، ومنهم من قال إن الاتفاق الودي بين الزوجين لا يكاد يزيد عن ثلاث سنين، ومنهم من مدّ في أجله إلى خمس سنين، ولعل كثيراً من السامعين لهذه المحاضرة قد وقفوا على ما كتبه ذلك الحكيم الألماني الذي صور فقد السعادة الزوجية من بيوت عاصمتهم بطرق أبواب كل بيت منها قائلاً لأهله: إنني سمعت أن السعادة هبطت على الأرض ودخلت بيتكم فأرجو أن تأذنوا لي بالدخول لزيارتها، وبأن جواب أهل كل بيت منهم كان واحداً: إن السعادة لم تدخل بيتنا ولم نرها. وقد نشرت جريدة السياسة من عهد بعيد أقوالاً لبعض الرجال والنساء من الإنكليز في الحياة الزوجية تؤيد هذا.

والذي نعلمه عن الحياة الزوجية في الشعب الألماني أنها خير منها في غيره من شعوب أوربة، كما حدثنا بذلك صديقنا المرحوم الدكتور الشيخ حامد والي الذي تزوج ألمانية رزق منها بعدة أولاد وكان مغتبطاً بها كما كانت مغتبطة به.

ويظهر لي أن فضلاء الإفرنج ولا سيما القائمين بحقوق الزوجية بما يرضاه كل من الزوجين من الآخر إنما يعملون بحكمة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وإن لم يقفوا عليها، ذلك أن امرأة كانت تختصم إليه

مع زوجها فغلبها الغضب على الجهر بأنها لا تحبه. فقال عمر: إذا كانت إحداكن لا تحب الرجل منا فلا تخبره بذلك فإن أقل البيوت ما بني على المحبـة، وإنما يتعاشر الناس بالحسب والإسلام. والمراد بالحسب الشرف ولاسيما إذا كـان موروثاً - والمعنى أن شرف الزوجية والأسرة يدعو كلًّا من الزوجين لحفظ كرامة الآخر وشرفه وأن العمل بما تدعو إليه أحكام الإسلام كاف لهناء المعيشة من فرضه المعاشرة بالمعروف والمساواة في الحقوق بين الزوجين إلا رياسة الأسرة الخاصة بالرجل، وإحصان كل منهما للآخر الذي يمنع بطبعه تطلعه إلى غيره، وكذا توزيع الأعمال بينهما يجعل الخارجية للرجل والداخلية للمرأة.

وأما غير الفضلاء منهم فلا يطيق الزوجان منهم الصبر على الحياة إلا بإطلاق كل منهما الحرية للآخر حتى في اتخاذ الأخدان، واتباع خطوات الشيطان، وقد سرت عدواهم في بلادنا إلى بعض المتفرنجين، المجردين من هداية الدين.

بعد هذه الإشارة إلى تفنيد نظرية القاس السعادة الزوجية بالاختلاط بين الجنسين في المدارس أشير إلى غوائله الشخصية والملية فأقول:

غوائل الاختلاط بين الجنسين

(الغائلة الأولى) من المعلوم أن الشعور بالميل الفطري في كل من الجنسين إلى الآخر يبتدىء في سن المراهقة ويقوى بعد البلوغ، والقرب يذكي ناره، والمعاشرة تضرم أواره، فإذا جمع بينهما في مقاعد التعليم كان لكل منهما من شغل القلب ومسارقة النظر، ومساوقة الحديث الشاغل للفكر، ما يكون صارفاً له عن توجيه قوة الذهن كلها إلى العلم.

ولعل هذا هو السبب في إباحة اليابانيين للجمع بينهما في التعليم الابتدائي، والمنع منه في التعليم الثانوي، على أنه ليس عندهم من صيانة الحجاب ولا من شدة المحافظة على الاعراض ما عندنا بوازع الدين والوراثة والوجدان، فنحن أولى بمنعه في جميع الأطوار والأحوال.

(الغائلة الثانية) إن قرب السَّواد من السواد، يدعو إلى المناجاة وطول السِّواد، ويثير فيها ذكرى الوساد[1] فيفضي إما إلى التبكير بالزواج إن تيسر وفيه من الصد عن العلم ما فيه، دع ما يذكره الأطباء وغيرهم من المضار الأخرى له، وإما إلى مفاسد أخرى من دينية وصحية واقتصادية واجتماعية، بدأ الباحثون يشكون بوادرها، ونعوذ بالله مما يتوقع من عواقبها.

وإنا لنعلم أن من دعاة ثورة التجديد، والإباحة المعنية من التحرير، من لا يبالون هذه العواقب، وأن منهم من يكابر الحس، ويماري في غرائز النفس، فيدعي أن اختلاط الجنسين أقوى وسائل العفة والصيانة، يكسب كل منهما حصانة أي حصانة، يعنون أنه كالتلقيح بمصل بعض الأدواء المعدية والتسمم بميكروبها، يكسب صاحبه مناعة تقيه من العدوى بوبائها. وهذا قياس مع الفارق، فإن ما نحن فيه هو أشبه بالتعرض لعدوى الوباء في عنفوان شدته، منه بالتلقيح ببعض ميكروبه مع البعد عنه.

ولو شئنا لسردنا ما علمناه من الشواهد التي نقرؤها في الجرائد، أو نسمعها من كل مختبر أو مشاهد، على ما منيت به بلادنا من شرور الإباحة،

---

(١) السواد بالفتح هنا الشخص وشبح إنسان والسواد بالكسر المسارة في الكلام فهو مصدر ساوده أي ساره وبالضم اسم منه. والوساد بالكسر بل بالتثليث المخدة والمتكأ وهو هنا كناية عن الفراش، ظاهرة المعنى.

وضروب التهتك والوقاحة، وما أراني إلا من أقل السامعين لمحاضرتي علماً بها.

وإنني أذكر من تنفعه الذكرى بأن تأثير هذا الاختلاط في مثل أمتنا أدهى وأمر من مثله في أوربة بقدر ما بيننا وبين أهلها من التفاوت في العقائد والتقاليد والعادات، وناهيكم بسرعة الانتقال من طور إلى طور وما تقتضيه من غلو وإسراف، وقد ثبت أن الذين ابتلوا بمصيبة السكر من المسلمين في الكبر، كانوا أشد إسرافاً فيه ممن اعتادوه وكانوا يستحلونه من أول النشأة، وهذا يرجع إلى السنة المعروفة في الطبيعة والاجتماع بناموس رد الفعل.

ومنه ما حدثني به عالم إجتماعي مؤرخ في سورية قال: إننا نحن النصارى لما هتكنا ما كنا نجاري فيه إخواننا المسلمين من حجاب النساء لم يبق في مدينتنا امرأة منا إلا ولها خدن أو أخدان، وقد هبط هذا الإسراف الآن. قال هذا منذ عشرات من الأعوام، ولا بد أن يكون الإسراف قد عم وطمّ بما تجدد من حرية الإباحة بعد الاحتلال الأجنبي.

(الغائلة الثالثة) أن الجمع بين الجنسين في مقاعد التعليم في جميع مراحله وأسنانه، هو مبدأ ما ظهرت بوادره من إباحة الاختلاط بجميع صوره وأشكاله، من رقص وسباحة وسفر مع الأجانب ومخادنة لهم وتزوج بهم، وفي ذلك من المفاسد والمضار الأدبية والاجتماعية والصحية والمالية ما لا يمكن بيانه إلا في محاضرة مستقلة أو رسالة طويلة.

(الغائلة الرابعة) أنه هَدْمٌ لكثير من أحكام الدين وآدابه، وقطع لأقوى الروابط المعنوية في الأمة، فهو جناية على الأفراد وعلى البيوت وعلى الأمة بجملتها، ولا سيما أمة كالأمة الإسلامية استولى على نظام التربية والتعليم

فيها أناس من خصومها في دينها وفي سياستها. فلم يبق لها من القوى الروحية والأدبية ما يقاوم فتك هذه المفاسد فيها، ولم يوجد فيها من السروات والزعماء ولا من رجال الدين من يتلافى شيئاً من شر منع السيطرة الأجنبية على المدارس الأميرية والأهلية، دع شرور المدارس التبشيرية، وإنما كان الباقي لها من صيانة الدين بعض تقاليده الموروثة، وكانت كافية لحكم المختبرين بأن المسلمين أطهر أهل الملل أعراضاً، وأصحهم أنساباً.

ودعاة التجديد الإباحي يريدون التذفيف على هذه الجروح العميقة التي أحدثتها هذه المدارس التي صرح لورد سالسبوري بأنها الخطوة الأولى لاستعمار البلاد التي تنشر فيها، لأن أول تأثيرها أنها تحدث الانقسام والتفريق بين الأمة فتجعل بعضها لبعض عدواً – فهؤلاء الدعاة أعداء لأمتهم ووطنهم أعوان لأعدائها، فإذا لم تقو على القضاء عليهم قضوا عليها.

حياة الأمم وموتها[1]

إن للأجسام حياة وللنفوس حياة غير حياة الأجسام ولكن بعضها يرتبط ببعض، وإن للأفراد حياة وللأمم حياة غير حياة الأفراد ولكن إحداهما تتوقف على الأخرى.

يعرف الجسم الحي بطلب الغذاء الذي يحفظ حياته من الخارج ويدفع العوارض الضارة عنه وإفراز المواد الميتة من بنيته. ويستوي في هذه الحياة النبات والحيوان. وتعرف النفس الحية بالحرص على الكرامة وارتفاع المنزلة بالحق وبدفع أسباب المهانة وتوقي طرقها وبالنضال عن الشرف أن تصل إليه أيدي العابثين، أو يصيبه وهم الواهمين؛ وأما حياة الأمة فهي أثر روحيّ يسري في أفرادها فيشعرهم بأنّ مكان كل واحد منهم من مجموع الأمة مكان أحد أعضائه من جسده. فهو يلاحظ في كل عمل منفعة نفسه ومنفعة أمته معاً كما أن عمل كل عضو في البدن يكون سبباً في حفظ حياته من حيث هو سبب لحفظ حياة البدن كله.

الجسم الحي أشرف من الجسم الميت وأبقى بل الأجسام الميتة تكون غذاء للأجسام الحية ومتاعاً وتتناول منه ما تحتاج إليه لتجعله عوضاً عما يندثر منها وينفصل عنها، كذلك الأمم الحية تتغذى من الأمم الميتة وتنتزع منها ما تحتاج إليه في حفظ حياتها وطول بقائها ودوام عزتها

(١) المنار، (المجلد ٨، جزء ٢، ص ٦٧ – ٧١ (٢٢ مارس (آذار)، ١٩٠٥).

وشرفها. فالأمة الحية أشرف من الأمة الميتة وأرقى في مرتبة الوجود.

قد يشتبه على الجاهلين التفاضل بين الناس في الحياة والموت بهذا المعنى فيذهب الجهل ببعضهم إلى أن زيداً الميت أفضل من عمرو الحي بما هو أكثر مالاً وعشيرة وأحسن أثاثاً ورئياً. ولو رجعوا إلى العلم الصحيح والاختبار الدقيق لرأوا أنفسهم يفضلون معاملة فلان التاجر الذي يملك ألف دينار على فلان الوارث الذي يملك مئة ألف ويرون من الثقة والرجاء في الأول ما لا يرون في الثاني لأن الأول يجمع ويشيد، والثاني يبيد ويبدد، فالألف تنمو في كل عام، ومئة الألف تنقص في كل يوم من الأيام، حتى أن حديد البصر يرى الأول غنيًّا مثرياً، والثاني فقيراً مستجدياً، ذلك أنه ينظر إلى المستقبل الذي يسيران إليه، فيمتثل له في الحاضر الذي يراهما فيه.

معرفة شؤون الأمم والشعوب، أخفى على الأكثرين من معرفة الأفراد والبيوت، فكم من جاهل يفضل أمة على أخرى لأنها أصحّ ديناً وأعدل شريعة، أو لأنها أشرف أرومة وأعرق في الجد جرثومة، أو لأن تراثها من سلفها أكثر، ومزاياها الجنسية أشهر، أو لأنها أكثر عدداً ومدداً؛ وأعز عشيرة ونفراً، وإذا صح أن يكون هذا كله أو بعضه للأمة الميتة زمناً من الأزمان فإنه لا يبقى إلا ريثما تتصل بها أمة حية، فترى هذه تمتص جميع مزايا تلك ومقوماتها الحيوية. وتلك تتحمل آفات هذه وعللها البشرية، حتى تكون إحداهما في عليين، والأخرى في أسفل سافلين.

يسهل على القارىء في الشرق القريب، أن ينظر فيما بين يديه من الشعوب التي تضمها جنسية سياسية أو لغوية، وتفصل بينها روابط نسبية أو ملية، فإنه يرى شعبين يمتاز أحدهما بكثرة العدد وكثرة المال وقوة الحكم وقوة العلم. ثم يجد نفسه تفضل قليل المزايا منها على كثيرها لأنه يرى الشعب

الكثير المزايا يتمزق ويتفرق فتذهب مزاياه بذهاب الأعوام، والشعب القليل المزايا ينمو ويسمو ويجتمع ويتألف فيعتز ويشرف بإقبال الأيام، يرى الشعب الكبير يتخاذل فيتضاءل، والشعب الصغير يتلاءم ويتعاظم، وما ذلك إلا أن في أحدهما نسمة حياة تدفع عنه الأعراض الضارة بالشعوب فيقوى ويزكو، وتغذيه كل يوم بغذاء جديد فينمو ويسمو، وليس في الآخر شيء من هذه الحياة فهو كجسم العاشق يذوب ويضمحل، ويحقر ويذل.

ويسهل على القارىء في الشرق البعيد (كالهند) أن يرى مثل هذين الشعبين المتقابلين في الحياة والموت ولكنه يرى أكبرهما هو الذي يعز ويترقى، وأصغرهما هو الذي يذلّ ويتدلّى، فلا تغره حينئذ دعوى بعض المتطفلين على علم الاجتماع وسنن الخليقة أن علة الحياة في الشعب الصغير القريب هي صغره وقلة عدده لأن اجتماع العدد القليل للتعاون والتناصر وتوحيد المصلحة العامة أسهل من اجتماع العدد الكثير. ويشبه هذا الوهم تعليل بعضهم لنجاح صاحب الألف ونمّو ثروته، وخيبة صاحب المئة الألف والعقار الواسع وتبدد تراثه، بأن تثمير المال القليل أسهل من تثمير الكثير. كذلك يقول من لا يعرف معنى الحياة في الأمم والأفراد، ولسنا بصدد بيان علة حياة الحي وموت الميت على الإطلاق ولا بيان علة حياة أمة معينة وموت أخرى فنفيض في كشف وهم الواهمين وجهل الجاهلين، وإنما غرضنا بيان معنى الحياة المعنوية ومميزات واجديها، ومخازي فاقديها.

التمييز بين أمة في أعلى مراقي الحياة وأوج العزة والقوة، وأمة في الحضيض الأوهد، والشقاء المؤصد، مما يتناوله كل نظر، ويحكم به كل عقل، ولكن التمييز بين أمتين أو شعبين أحدهما يموت بعد حياة وثانيهما يحيا بعد موت هو الذي يخفى على غير علماء الاجتماع المدققين لأن الذي اعتاد على الحكم بادي الرأي ينخدع بما يرى في الأول من علامات الحياة

الموروثة كأثارة من علم، وبقية من حكم؛ لا يجد مثلها عند الثاني فهو كمن يفضل وارث مئة الألف على كاسب الألف جاهلاً بما وراء ذلك من مصير ثروة الوارث إلى الزوال، ومسير ثروة الكاسب إلى الكمال.

لا يغرنك ما ترى من آيات الحياة في أمة تقطعت روابطها، وانفصمت عروة الثقة بين أفرادها، وبغض إليها النظام، وفقدت التلاحم والالتئام، وإن كان ما تراه أخلاقاً كريمة، ومعارف صحيحة، وثروة واسعة، وسلطة نافذة، مع العلم بأن هذه الأشياء كلها هي آثار الحياة توجد بوجودها وتذهب لذهابها، فقد يكون ذلك من بقايا إرث قديم، يعبث به الفساد الحديث، إلا أن ترى العلم والأخلاق تقرب البعيد، وتجمع الشتيت، وتزيد في الثقة بين الناس، وتدعو إلى التعاون على البر والإحسان، وترى الثروة تجمع مع ملاحظة مصلحة الأمة، وينفق جزء منها على المنافع العامة، وترى السلطة موجهة لدفع الأذى عن البلاد، وإقامة العدل في العباد، وإسعاد الأفراد على الاستقلال، وإعدادهم لمشاركة الحاكمين في الأعمال.

روح الحياة في الأمة تحول الشر إلى خير. وفقدها يحوّل الفضائل إلى رذائل، فما يكون فيها من عزة وإباء يصير كبراً وعجباً، وما يبقى من كرم وسخاء يصير إسرافاً وتبذيراً، وتكون الشجاعة فيها سبباً للاعتداء والإيذاء، وجودة الرأي وسيلة للمكر والاحتيال، ويتحول فيها حب الشرف والكمال، إلى حب الفخفخة بالألقاب، وينقلب التنافس تحاسداً، والإيثار أثرة وطمعاً، وقس على هذا سائر الأخلاق التي تفسد. كذلك يكون العلم آلة لأهله يكيدون بها للناس ويوقعون بينهم ليستفيد الكائد من النزاع والشقاق. أما السلطة فإنها تكون الآلة المحللة لكل التئام، والممزقة لكل شمل، والمفرقة لكل اجتماع، إلا الاجتماع لتأييدها والخنوع لأصحابها حتى أن الملك أو الأمير ليتجر بالأمة اتجاراً، بل يكون هو الغاصب والناهب

ما استطاع، حتى إذا لم يبق للأمة قوة حافظة، يبيعها للأجانب بالمحافظة على رياسته الصورية، وتمكينه من شهواته الحيوانية والشيطانية.

تسري الأمراض الاجتماعية في الأمم فتذهب منها بمقومات الحياة من حيث لا تشعر ولا تدري ولذلك يبقى لها الغرور والدعوى بأنها أشرف الأمم وأفضلها ويعسر على من يكون على علم بأمراض الأمم أن يقنعها بأنها أمة وضيعة مهينة وإن كانت أصوات الإهانة تصيح بها في كل يوم، وأسواط العذاب تقع عليها في كل آن، وإذا كانت متكئة في غرورها على عصا الدين كان إقناعها أعسر، وإشعارها أبعد، وإن نخرت أرضة البدع تلك المنسأة فانكسرت، وخرت الأمة في مهواة الضلال فهلكت.

إذا أهاب الداعي بالأمة المغرورة بالدين، وحاول إقناعها بالبراهين، وإيقاظ الشعور فيها بما تذوق من العذاب المهين، واثبه حماة البدع الجديد، وحمل عليه أنصار التقليد، واستعانوا عليه بالأمراء المستبدين، وحالوا بينه وبين العامة المساكين، بل العامة هي قوة رؤساء الدنيا والدين، بها يصولون على المصلحين، ولو كانوا يقارعون الدليل بالدليل، ويصارعون البرهان بالبرهان، لظهر للعامة سوء حالهم، وفساد أقوالهم وأفعالهم، ولكان للمصلح على انفراده، وضعف أنصاره وأعوانه، ما يغلبهم به على عزة سلطانهم، وعظم شأنهم، لأن الحق نصيره، والفطرة البشرية عونه، لولا أنهم يفسدونها بتقاليدهم؛ ويحولون بينها وبين نور الإصلاح بغيوم سلطتهم «وقالوا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون».

أظهر دلائل الحياة في الأمة التولد والنموّ في أسباب الارتقاء من العلوم والفضائل والأعمال العمومية فلا يموت فيها شيء بموت القائم به. وأظهر دلائل الموت العقم والتحلل في ذلك فلا يكاد يذهب منها شيء من الخبر

ويخلفه مثله وإنما يموت العلم بموت العلماء والفضل بموت الفضلاء حتى تبقى حثالة بهم تبسل الأمة.

لا تنزع روح الحياة من الأمة بما يعرض عليها من الأمراض إلا إذا فتكت هذه بمزاج الأمة الجامع لأفرادها وإذا كان مزاج الجسم يتألف من أمشاج متعددة كالدم والعصب واللمفا، فمزاج الأمة الاجتماعي يتألف مثله من أصول متعددة كالنسب والجنسية والدين والحكومة، لذلك ترى الباحثين في إصلاح الأمم الفاسدة المزاج يختلفون فيقول بعضهم إن الأمة لا تحيا إلا بتربية النساء التي هي الأصل في صلاح البيوت ويقول آخرون إنها لا تحيا إلا بتقوية الرابطة الجنسية التي تكون باللغة أو الوطن ويقول غيرهما إن الأصل في الحياة الإصلاح الديني – على أن الدين عند المسلمين حاكم في كل شيء فإصلاحهم من جهته إصلاح لكل شيء – ويخالفهم مخالفون قائلين بل الإصلاح إنما يكون بصلاح حال الحكومة لأن السياسة هي المدبرة لكل شيء. والصواب أن معالجة كل ما فسد من الأصول التي يتألف منها المزاج مما لا بد منه لشفاء الأمة وجعلها في عداد الأمم الحية. ولكن يقال إن هذه الأصول ترجع إلى أصلين الأمة والحكومة أيهما صلح يسهل عليه إصلاح الآخر، ولكن ما يجيء من جانب الحكومة يكون أسرع، وما يأتي من الأمة يكون أدوم وأثبت. وقد بينا ذلك في السنة الأولى من سني المنار، وسننشر في الأجزاء الآتية مقالات في أنواع الحياة النسبية أو الزوجية والملية والجنسية والسياسية ونبين كيف يكون الإصلاح فيها والله الملهم للسداد.

روابط الجنسية والحياة الملية[1]

وفلسفة الاجتماع البشري

خلق الإنسان ليعيش مجتمعاً يتعاون أفراده على الأعمال التي هي قوام حياتهم الشخصية والنوعية وإظهار استعدادهم الإنساني في استعمار الأرض وإظهار أسرار الكون، فأعني بالاجتماع ما هو أوسع من اجتماع الزوجين الذي يشاركهم فيه سائر أنواع الحيوان، ومن اجتماع النحل والنمل وتعاون أفرادها على ما به حفظ حياة نوعيها فالحياة الزوجية ليست خاصة بالإنسان ولا الحياة الأهلية (العائلية) فمن كان لا يشعر بفائدة لنفسه إلا أنه يعمل ليأكل ويطعم من يعول من أهل وولد فحياته إن كانت أوسع من حياة الطير فهي لا تصل إلى مرتبة بعض الذباب والحشرات (النحل والنمل) فإن لهذين النوعين من التعاون على الأعمال المشتركة ما تقصر عنه همة كثير من الناس فما أحقر من يرى وجوده أضيق من وجود الذباب والحشرات.

لا تفاوت بين أفراد نوع من أنواع المخلوقات نعلمه كالتفاوت بين أفراد البشر يتسع وجود زيد منهم فيملأ الآفاق، ويضيق وجود عمرو حتى يضيق به قفص جسمه، يشعر ذاك بروحه الكبيرة أنه خلق لينهض بأمة كبيرة أو ليفيد جميع الأمم، ويحار هذا في خدمة جسده، ويرى نفسه عاجزة عن

(١) المنار، المجلد ٨، الجزء ٢٠، ص ٧٨٤ - ٧٩١ (١٣ ديسمبر، ١٩٠٥)؛ مجلد ٨، جزء ٢١ ص ٨١١ - ٨١٩ (٢٧ ديسمبر ١٩٠٥).

تغذيته وتوفير لذته، فإذا ازدوج فصار له بيت كان همه أكبر، لأنه أعجز عن سياسته وأصغر، وبين هذين الطرفين سواد عظيم لكل منهم سهم من سعة الوجود على قدر قوة الإنسانية فيه وضعفها فإذا كثر أصحاب السهام العظيمة في أمة من الأمم اتسع وجودها ببسط سلطانها على الأمم التي قلت سهامها وخف بها ميزانها فينقبض وجود هذه بمقدار اتساع وجود تلك، فإمّا أن تعتبر فيخرج أفرادها من مضيق الحياة الشخصية الجسدية إلى بحبوحة الحياة الاجتماعية حتى يتقلص ظل غيرهم عنهم وإما أن يكونوا غذاء للغالب لا بقاء لهم إلا باستبقائه إياهم لحاجته وقد ينكمش وجودهم ويتقلص حتى يضمحل ويفنى كأن لم يكن شيئاً مذكوراً.

أين المصريون الأقدمون، أين الكلدانيون والأشوريون والبابليون، أين الرومان والفرس الأولون، أين هنود أمريكا العريقون؟ منهم من اندغم وجوده في وجود آخر أوسع منه وأقوى، ومنهم من انقرض وجوده فلا تحس منهم من أحد ولا تسمع لهم ركزاً، سنة الله في التكوين والتمكين، (إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين)، الذين يتقون أسباب الفساد والزوال، ويصلحون في الأرض بالأحكام والأعمال، (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من والٍ).

قلنا إن وجود الشخص الواحد يتسع بمقدار معنى الإنسانية في روحه قوة وضعفاً، وإن وجود الأمة ينبسط وينقبض بحسب كثرة أصحاب السهام العظيمة من سعة الوجود فيها، فهذا هو معنى الحياة العزيزة في الأفراد وفي الأمم فكمال الشخص إنما هو في كونه يعمل للأمة التي يعتز بعزتها، ويهون بهوانها وضعتها، وكمال الأمة إنما هو في حفظ ما به كانت أمة وبسطه بجعل وجود غيرها تابعاً لوجودها.

ما به تكون الأمة أمة معنى يوجد في كل فرد من أفرادها يربط بعضهم ببعض حتى يكون الجمع الكثير به واحداً وقد يعبر عنه بالجنسية وهو النسب والبيئة أو الوطن واللغة والدين والحكومة وأنت ترى أن بعض هذه المعاني أوسع من بعض فأول اجتماع كان بين البشر يتعاون به أفراد كثيرون على مصلحة الجميع هو اجتماع القبائل البدوية التي تنسب إلى أب واحد ثم كانت دائرة الاجتماع تتسع في البشر فتكبر الهمم وتعلو النفوس لشعورها بسعة وجودها وما هي مطالبة به من العمل لحفظ كون كبير واسع. وكلما اتسعت دائرة الاجتماع تتسع معها فائدة البشر فبعد أن كان امتياز القبائل والشعوب لأجل التناكر والتغابن، صار باتساع ذلك المعنى لأجل التعارف والتعاون، كما قال تعالى (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا).

إذا كانت الجنسية في الأمة هي النسب كانت بسطتها في الوجود بطيئة. كذلك الوطن إذا كان بلاداً محدودة كمصر أو الشام أو العراق. وليس نشر اللغة وجعلها جنسية بالأمر السهل ومثلها الدين إذا كان خاصاً كاليهودية. وأما الحكومة فهي أوسع من جميع ما ذكر وبها تكونت الأمم الكبرى كامبراطورية الأسكندر والامبراطورية الرومانية في الزمن الماضي وكالسلطنة العثمانية والحكومات الاستعمارية في هذا الزمان. ولكن الجنسية في الحكومة لا تعد جنسية حقيقية إلا إذا كانت الشريعة أو القوانين التي يحكم بها الرّعايا المختلفون في النسب والوطن واللغة والدين مبنية على قواعد العدل والمساواة بينهم وكان القائمون بها من لفيفهم لا من طائفة معينة منهم. على أن هذا الشرط الأخير إنما تشترطه الطوائف والشعوب الراقية في معارج الاجتماع دون سواها وإن من الشعوب ما يغلب فيها الشعور بأنها خلقت لتكون محكومة من الغرباء وأن جنسها لا يصلح للأحكام.

يكون اتساع محيط الجنسية نافعاً للبشر ما قصد بها تكثير سواد أهلها

ومشاركة كل من يدخل فيهم لهم في جملة مزاياهم. ومتى قصد الشعب الاستئثار بالمنافع دون من يمتد وجوده إليهم وينبسط نفوذه فيهم كان آفة على سائر الشعوب لا يعدل فيهم ولا يمكنهم من الارتقاء في معارج الكمال الإنساني فسنة الله في كمال الشعوب والأمم ونقصها كسنته في الأفراد نقص كل منها بالأثرة والغلو في حب الذات حتى لا يتحرك حركة إلا لمنفعة ذاته وكمال كل منها بالقصد إلى نفع غيره وإيصال الخير إليه وجعل المنفعة الذاتية تابعة للمنفعة العامة.

فالنتيجة لما تقدم من القواعد أن أكمل الجنسيات وأنفعها للبشر ما كانت أعم وأشمل للطوائف والجمعيات المختلفة في النسب والوطن واللغة والدين والحكومة بأن يقصد بها الخير للجميع والمساواة بينهم في الحقوق وتمكينهم من الرقي إلى ما أعدتهم له الفطرة البشرية من الكمال الاجتماعي. وإنها لجنسية يتحسر عليها نوابغ الحكماء وهي موجودة في الملة الإسلامية وإن كان المسلمون من أبعد الناس عنها فهذه الملة هي التي عرفها كتابها العزيز بقوله: (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون).

الملة الإسلامية تساوي بين المختلفين في الأنساب والأوطان والأديان وتسمح لمن يدخل في حكمها وهو على دينه أن ينشىء في بلادها محاكم لأهل ملّته وأبناء جلدته فلا تلزمه بأحكامها إلزاماً فإن هو اختار حكمها بنفسه ساوت بينه وبين أقرب الناس من بنيها وأعلى أفرادها مكانة فيها. فهي تدعو جميع البشر إلى التعارف والتآلف في ظل حمايتها وإنه لظل ظليل يباح للمستظل به كل شيء إلا محاولة إزالته أو إزالة فائدته للناس وهي دفع الشر والأذى عنهم وتقريب الخير منهم مع حفظ حريتهم في أديانهم وأعمالهم التي لا تضر سواهم. هذا ما تبذله لكل من قبل حمايتها، واستظل

براياتها، ثم إنها تختص من قبل هدايتها في الدين بأخوة روحية، أخص من هذه الأخوة الإنسانية، لأنه يشارك أهلها فيما يؤهلهم لسعادة الحياة الأخرى، فهو أقرب إليهم بالروح ممن لا يشاركهم إلا في سعادة الحياة الدنيا.

هذه الجنسية هي نهاية ما يمكن وضعه لسعادة البشر كلهم في هذه الحياة ولكن الناس لمّا يستعدوا لها تمام الاستعداد لذلك لم يرعوها حقّ رعايتها ونعتقد أن سيعودون إليها في يوم من الأيام. نقول يعودون إليها عوداً، دون يقصدون إليها قصداً، لأنها قد وجدت في الجملة مدة قليلة على عهد الخلفاء الراشدين فرقص لها العالم الإنساني وأقبلت عليها شعوبه أيما إقبال ثم طفق نورها يخبو بما أفسد فيها الأمويون ومن بعدهم ولكنه كان على ضعفه أفضل عند جميع الأمم من كل ما عداه لذلك كان يخرجهم باختيارهم من جنسياتهم إخراجاً، فيدينون لها شعوباً ويدخلون فيها أفواجاً.

كانت حكومة الخلفاء الراشدين حكومة عسكرية لأن الدعوة لم تكن أمنت والسلطة لم تكن استقرت، وكانت على ذلك حكومة عادلة رحيمة فضلها كل من ذاق حلاوتها على ما عهد من قومه. وكانت حكومة الأمويين في الشرق والغرب وحكومة العباسيين في الشرق إسلامية في أكثر الفروع دون الأصول وأعني بالأصول قواعد الحكومة الأساسية كانتخاب الحاكم العام وإلزام الأمة بالشورى واتباع الشريعة وكانت على ذلك أفضل من جميع الحكومات التي عرفها الناس قبل الراشدين. ولو وجدت الحكومة الإسلامية على حقيقتها في دولة آمنة مطمئنة لاختارها كل من عرفها من الراقين، حتى تكون ملاذ البشر أجمعين.

سيقول الجاهلون بحقيقة الإسلام إن هذا من غلو المسلم المذعن ويأتون على ذلك ببعض الأعمال والتقاليد التي انتقدت على المسلمين وإنني لعلى علم

بشبهاتهم لكثرة ما بلوت من أمثالهم وما كَشْفُ تلك الشبهات عليّ بعسير ولكن القول قلما يقنع الجاهل لا سيما إذا كان متعصباً لرأيه، غير محيط بتفصيل ما عند خصمه.

لست أعجب ممن نشأ في دين يعادي الإسلام إذا هو أنكر مزايا الإسلام الظاهرة، وأصوله الواضحة، بله المزايا التي فقدت من المسلمين، فلا أثر لها إلا في ثنايا آيات الكتاب المبين، إنما عجبي ممن نشأ في المسلمين وهو منهم ثم هو يجهل مكان الجنسية الإسلامية الواسعة العامة لجميع الشعوب والطوائف، الشاملة لجميع الخيرات والعوارف، فيدعو إلى جنسية الوطن كبعض أحداث المصريين أو جنسية اللغة والنسب كبعض جهلة الترك. فمثل هؤلاء كمثل من يهدم مصراً ويبني قصراً، بل هم أضيق وجوداً وأضعف فكراً.

يعذر في مثل هذه الدعوة القبطي في مصر والأرمني في بلاد الترك والاسرائيلي في فلسطين لأن السلطة في أيدي غيرهم فلهم الحق في أن يطلبوا مساواتهم بسائر أبناء بلادهم. على أن وجود هذه الطوائف القليلة العدد أوسع من وجود دعاة الوطنية والجنسية فإنهم يطمعون في الاستقلال ببلاد أكثرها لغيرهم فهم يطلبون سعة وامتداداً، ودعاة الوطنية والجنسية منا يبغون ضيقاً وتقلصاً.

لولا جنسية النسب لما تمزّقت السلطة الإسلامية في ريعان شبابها فكانت عباسية في الشرق أموية في الغرب فاطمية في الوسط والشريعة واحدة والملة واحدة ولما كان بين ذلك من ملوك الطوائف ما كان. لولا جنسية اللغة والوطن لما تفرق المسلمون بعد ذلك إلى دول وممالك كالتركية والفارسية والأفغانية وما كان قبلها في الهند من السلطنة التيمورية وغيرها في المشرق

وكالعربية في شمال إفريقية الغربي وغير ذلك مما كان في قلب هذه القارة الإسلامية التي استولت عليها أوربا إلا قليلاً. ولو عقل المسلمون معنى الحيـاة المليـة، لكانوا في هذه الممالك كلها أحسن نظاماً ووحدة من الأمبراطورية الإنكليزية.

إن الحياة الوطنية الصحيحة هي جزء من الحياة الملية الإسلامية فإذا حيي المسلمون في قطر ما حياة إسلامية،فبشر جميع دعاة الوطنية الصحيحة من أهل الملل التي تعيش معهم بجميع ما يطلبون من عدل وحرية ومساواة وتعاون على درء المضار وجلب المنافع وكل ما به تعمر البلاد وتزيد خيراتها، وبَشِّرْ المسلمين منهم بأن سيكونون مركز الجاذبية العامة لجميع الشعوب المسلمة في الأرض ثم مشرق المدنية الفضلى لجميع العالمين.

يا لله العجب! ثلاث مئة مليون أي ثلاث مئة ألف ألف من المسلمين قد اكتظ بهم قلب الأرض من مراكش إلى الصين ولا تجد لهم قوة ولا سلطة عزيزة لا يعبث باستقلالها عابث، ولا يلمس شرفها لامس، أرأيت لو كان لهم حياة ملية، تشعرهم بحقيقة الأخوة الإسلامية، أما كان يعتز بعضهم ببعض ويمد بعضهم بعضاً ولو إمداداً معنوياً؟ أكان يسهل على الناقم من شعب من شعوبهم أن ينتقم منه بغياً وعدواناً وهو يعلم أن قلب الأرض يخفق للعدوان عليه خفقاناً لا يستهان به؟.

ما هو المرض الذي أضعف في المسلمين هذه الحياة الملية العليا؟ هو عصبية الجنس واللغة والوطن وهي العصبيات التي حاول الإسلام القضاء عليها فلما غير الملوك شكل حكومته إلى ضدها تمكنوا من محاربته بجنسياتهم فما أفسد علينا ديننا ودنيانا إلا الملوك المستبدون وأعوانهم من علماء السوء وتلك سنة قد خلت في كل أمة قال فيها الشاعر:

وهل أفسد الدين إلا الملوك   وأحبـار سوء ورهبانهـا

هل من سبيل إلى إضعاف هذه النزعة الجنسية الخبيثة وإماطة هذه النزعة الوطنية الحمقاء من طريق الحياة الملية الإسلامية وإشعار المسلمين في جميع الأقطار بحقيقة الرابطة التي تضم بعضهم إلى بعض إشعاراً يملك الوجدان وتصدر عنه الأعمال التي توثق هذه الرابطة وتؤكد ما فيها من حقيقة الأخوة مع بقاء كل قوم منهم في بلادهم وتعاونهم مع سائر أهلها على عمارتها بالعدل والإحسان والتوادّ والإخلاص؟ السبيل واضحة وهي حبل الله المتين وسراجه المنير ولكن السياسة والجهل عقبتان كؤدان من دونها يصدان السالك عن المضي فيها ولا يذلل العقبات إلا همم الرجال فأين الرجال؟

السياسة المانعة من حياة المسلمين الملية نوعان سياسة أجنبية وسياسة مسلمية، وإن أهل البصيرة من المسلمين لعلى خلاف في أيتها أشد وطأة فالذين يحكمهم الأجانب يعتقدون أن حكامهم أعداء دينهم فهم وحدهم العقبة في طريق رقيهم في هذه الحياة. والذين يحكمهم المسلمون يعلمون أن حكامهم بجهلهم وبما تَيَّمهم وتبلهم من عشق الاستبداد والسلطة المطلقة التي لا تكون إلا لله هم العقبة الكبرى في طريق الحياة الملية بالاعتصام بحبل الله المتين، والاهتداء بكتابة المبين، والجمع بذلك بين مصالح الدنيا والدين.

ومن عرف الحكومتين، وعجم عودي السياستين، فهو أعلم بالحق، وأجدر ببيان الفرق.

الأجانب الحاكمون في بلاد المسلمين منهم القاسي الحائف كهولندا وفرنسا ومنهم اللين المتساهل كإنكلترا ولم يبلغ أشدها جوراً ومنعاً للمسلمين من التعليم والتربية أن يحجب عنهم من كتب العلم والتربية ما

تحرمه عليهم بعض الحكومات الإسلامية أو المسلمة ولكن محبي الإصلاح من المسلمين يرجون أن يغلبوا حكوماتهم ويلزموها بالعدل والمساواة وترقية العلوم والعقول وحرية الاجتماع للخير ويرون الأجانب عقبة في طريقهم فإن إكراه الحكام على ترك الاستبداد لا تتمكن منه الأمة المستعدة له إلا بثورة داخلية والمسلمون يعتقدون أن الأجانب يتربصون بهم الدوائر فإذا هم ثاروا على حكومة من حكوماتهم المستبدة اغتنم الأجانب هذه الفرصة فأوقعوا بالدولة وقضوا عليها فالأجانب عقبة في طريق المسلمين أينما ساروا وتوجهوا لا فرق بين بلادهم المستقلة وبلادهم المستعمرة. وهذا هو السبب في مقت عامة المسلمين لكل من يتكلم في عيوب الدولة العثمانية ولو كان صادقاً قاصداً للإصلاح فإنهم في الغالب يعتقدون أن إظهار عيوبها عون للأجانب عليها وقد يكونون مخطئين في اعتقادهم هذا وأنّى لنا بالرجال العارفين الذين يكشفون للعامة عن وجه الصواب، فيعرفونه معرفة إذعان؟

المرشدون الرسميون فينا جاهلون بشؤوننا وسياستنا وعون للحكام كيفما كانوا لأن لهم سهماً من سلطتهم وأصحاب الجرائد منا لا هم لأكثرهم إلا الازدلاف إلى الحكام، والحظوة عند العوام، على أنهم لا حرية لهم في بلادنا المستقلة تمام الإستقلال، ولو كانت هناك حرية لوجد من يفيد لا سيما في البلاد العثمانية فإن البلاد لم تخل من العقلاء المخلصين.

هذا شأن السياسة في صد محبي الإصلاح الحقيقي عن السعي إليه في طريقه وأما الجهل فلا حاجة إلى بيان وجهه القبيح فإن ضرره ما لا ينكره أحد في جملته ولا يتسع هذا المقال لتفصيله.

لا نيأس من روح الله ولا نقنط من رحمته فإن حوادث الزمان تعمل لنا ما لا نعمل لأنفسنا، ورب عدوان علينا لأجل إماتتنا، يكون سبباً من

أسباب حياتنا. بينا في الجزء الماضي أن الحرب الروسية العثمانية قد أحدثت في المسلمين هزة حيوية كما قال حكيمنا رحمه الله وقد رأينا أثر هذه الهزة في هذا الشهر عندما علم المسلمون بتهديد أوربا للدولة العلية واحتلال أسطولها المختلطة لجزيرة (مدللي) لحمل الدولة على تمكينهم من إدارة الولايات المكدونية حتى أن بعض فضلاء المسلمين في الهند (هو القاضي أمير علي الشهير) كتب إلى التيمس أشهر الجرائد الإنكليزية يبين سوء تأثير عمل أوروبا في نفوس المسلمين كافة وينذر بسوء العاقبة. على أن الشدائد والبلايا إنما تكون محيية إذا عرفت الأمة كيف تستفيد منها فلندع لها أثرها وفعلها الطبيعي ولنبحث فيما يجب علينا أن نعمله لحياتنا الملية، وكيف نجتنب مكافحة السياسة ومنازعة الجهل وهو ما نبينه في مقال آخر.

الحياة الملية بالتربية الاجتماعية[١]

ذهب كثيرون من نابتة الترك والمصريين مذاهب الخيال الذي انعكس إلى أفكارهم مما شهدوا من ظواهر مدنية أوربا فحسبوا أن فلاح كل شعب وكل قطر معلول لعلة واحدة هي تقليد أوربا بنشر العلوم الرياضية والطبيعية ونظام الحكومة والأخذ بعادات أهلها ويستدلون على رأيهم هذا بما كان من ارتقاء اليابان في نحو ربع قرن بهذا التقليد ويحسبون هذا برهاناً قاطعاً لا سبيل إلى المكابرة فيه إلا ممن كان أعمى البصيرة جاهلاً بحال هذا العصر مغروراً بحال قومه في حاضرهم أو ماضيهم، وكأني بمن تعود منهم قراءة الكلام المعقول في المنار وقد أنكر فاتحة هذا القول وساء ظنه بمن سمى هذه القضية البديهية اليقين عنده تخيلاً وحسباناً.

لا تعجلوا بالإنكار عليّ فلست بمنكر فائدة تلك العلوم ولا أقول إن أمة تعز وتقوى في هذا العصر مع الجهل بها وبطرق الاستفادة منها وارجعوا إلى أنفسكم فأنتم أعلم بها منكم بأوروبا واليابان. إنكم قد سبقتم اليابانيين إلى هذا التقليد فالمصريون منكم قد مرّ على أخذهم بهذا التقليد قرن كامل والترك قد ناهزوا ثلاثة أرباع القرن ولم يدرك أحد من الفريقين غبار اليابانيين الذين لا يزيد سنهم في المدنية على ربع القرن إلا قليلاً. فدولة اليابان قد دوخت في بضع سنين أكبر دولة شرقية وأكبر دولة غربية وطفقت ترث الأرض وتستعمر البلاد، وبلادكم تنقص من أطرافها،

(١) المنار، المجلد ٨، الجزء ٢١، ٢٧ ديسمبر (ك١) ١٩٠٥.

ويفتات عليكم فيما بقيت لكم رسومه منها، فأيَّ أثر لتقليد أوربا تحمدون، وأيَّ فائدة له في أنفسكم تعرفون.

هل يستطيع المصري أن يقول إن حكومتنا لم تتشكل بشكل الحكومات الأوروبية فلم يتم لنا التقليد الذي هو علة النجاح؟ أنّى وكل ما عرفته هذه البلاد من نظام أوربا ومدنيتها فهو من حكومتها لا من الأهالي ولا تزال الحكومة أرقى من الرعية تسوقها في كل طريق وتقودها بكل زمام. منح الشعب المصري حرية القول والعمل والاجتماع منذ ربع قرن ولم توجد له جريدة ذات مذهب ملّي نافع ورأي اجتماعي ثابت ولا مدرسة كلية بل ولا جزئية يعتد بتعليمها وتربيتها تنظر البلاد إلى المتخرجين فيها نظر الرجاء بما ترى من امتيازهم على المتخرجين في مدارس الحكومة فمدارس الحكومة وهي في أيدي الأجانب ترجح على جميع المدارس الأهلية رجحاناً مبيناً، ولم تؤسس فيها شركات كبيرة للزراعة أو للتجارة أو للصناعة نجحت في عملها، فكانت موضعاً للثقة بها، ولم يوجد فيها للمسلمين وهم السواد الأعظم غير جمعية خيرية واحدة لا تزال فقيرة بالنسبة إلى الجمعيات الخيرية في أوربا واليابان على ما قاسى مؤسسوها من العناء والبلاء في سبيلها، ولا يزال مجلس إدارتها يمحو من دفاترها في كل سنة أسماء كثير من الأغنياء الذين يشتركون فيها وتمر عليهم السنون ولا يؤدون إليها ما فرضوه على أنفسهم لإعانة فقرائهم وأكثرهم من المتعلمين علوم أوربا في بلادهم أو في أوربا نفسها.

وأما الترك فقد ملأ طلاب المدنية منهم الآفاق أنيناً وشكوى من حكومتهم وطعناً في سلطانهم وإنني على اعترافي لهم بأنهم في مجموعهم أرقى من المصريين علماً وأخلاقاً وأقوى عزيمة واستقلالاً أقول ما قاله كبير من كبرائهم: إننا بطعننا في السلطان وصراخنا بالشكوى من حكومة «المابين»

نعترف للعالم علناً بأننا لسنا أمة، إذ لو كنا أمة لما قدر رجل واحد على أن يفعل فينا ما يشاء ويحكم ما يريد ولما عجزنا عن وضع بناء حكومتنا على أساس الشورى الشرعية التي فرضها ديننا ورأينا نجاح الأمم بها، فهؤلاء الخائضون منا في السلطان إنما يبصقون على ذقونهم: يريد هذا التركي الكبير أن الشعب لم يرتق إلى المستوى الذي يقدر فيه على تغيير شكل الحكومة فهو إذاً لم يستفد من تقليد أوربا ما اعتزت به أمته وارتقت به دولته بل كان كل خذلان أصيبت به الدولة أثراً من آثار خيانة هؤلاء المقلدين أوربا المعبر عنهم بالمتفرنجين، فهم الذين اقترفوا جريمة الخيانة في حربها الأخيرة مع روسيا وهم هم الذين أفسدوا البلاد بظلمهم وبيعهم الدماء أو الحقوق بالرشوة لأجل إرضاء شهواتهم التي استفادوا التفنن بها من مدنية أوربا.

لا ريب أن معظم ما أخذناه عن أوربا كان سبباً في زيادة نفوذها فينا واستيلائها على كثير من بلادنا وامتصاصها لثروتنا وقد ضعفنا وما قوينا وبعدنا عن الاستقلال ولم نقرب منه فلماذا كان هذا منتهى حظنا منها وكان حظ اليابان ما نعلم من القوة والمنعة والعزة والثروة؟ وكيف السبيل إلى استخراج لبن هذه المدنية من بين فرثها ودمها أم كيف السبيل إلى نجاح أمتنا؟ فهذه الصين قد أنشأت تقتدي باليابان في إصلاح شأنها وتنظيم حكومتها، وهذه روسيا قد وضعت الثورة حكومتها في البوتقة لتذيبها وتنقيها من أوضارها فإذا صلحت حال هاتين الحكومتين فإن فساد الأرض ينحصر فينا وحدنا، وإذا جعلنا الكلام في الشعوب والملل، لا في الحكومات والدول، فإننا لا نجهل أننا قد دفعنا من صدرها إلى عجزها، وصرنا إلى ساقتها بعد أن كنا في مقدمتها، فماذا يجب علينا من العمل، قبل أن ينقطع منا الأمل؟

أقول في الجواب يجب أن نكون أمة واحدة تربطنا رابطة واحدة تصل

بعضنا ببعض حتى يشعر كل صنف وقبيل منا بل كل فرد بأنه عضو من جسم كبير له حياة واحدة عامة منبثة في جميع الأعضاء ما دامت الأعضاء متصلة فإذا ما انفصل عضو منها فارقته الحياة إذ لا حياة له في نفسه. وإننا لا نشعر الآن بهذه الحياة وإنما يشعر كل واحد منا بنفسه وحدها فهو يعمل لها وحدها فالمهندس والطبيب والفقيه والقانوني والمدرس وسائر أهل المعارف هم كالحداد والنجار والزارع والصانع والأجير والخفير وغيرهم من أهل الحرف والصنائع كل واحد منهم يتعلم ليتوسل إلى رزقه وما يمتع به نفسه وأهله لا يلاحظ مصلحة عامة ولا رابطة جامعة فوجوده لا ينبسط إلى أكثر مما ينبسط له وجود بعض الذباب والحشرات على ما شرحناه في مقالة روابط الجنسية، فالعلوم الرياضية والطبيعية والشرعية وغيرها لاحظ فيها عندنا لما يسمونه الهيأة الاجتماعية وهي الأمة في مجموعها لا أجزائها فلو صار كل فرد منا عالماً بفن من الفنون التي ارتقت بها أوربا ونحن على هذه الحال، لما كان ذلك كافياً لجعلنا أمة عزيزة كاملة الاستقلال، قصارى هذا العلم أن ينقل هؤلاء الأفراد من مرتبة الخزف والودع إلى مرتبة الخرز زجاجاً كان أو جوهراً مع بقاء كل خرزة منفردة عن الأخرى، إذ لا سلك هناك تنتظم فيه ولا ناظم يؤلف بينها في السلك فيجعلها عقداً. وأعني بالسلك هنا رابطة الجنسية وبناظم العقد المربي الاجتماعي لا المربي الصناعي. حدثني محمد توفيق البكري قال سمعت السيد جمال الدين في الآستانة يقول: إن المسلمين لا ينتفعون بشيء من هذه العلوم التي يتعلمونها لأن السلك عندهم منقطع ولا فائدة بدونه: أو ما هذا معناه قال لي البكري وقد فاتني أن أسأله عن مراده بهذا السلك فما رأيك فيه.

مثل المعلم الفني والمربي الصناعي كمثل من ينظف قطع المعدن أو الجوهر ليُنتَفع بها في الجملة ولا يبالي أكانت حبة في عقد أو فصالخاتم، أو

كمثل من ينحت الحجارة النحت الأول لتباع لمريدها فهو لا يبني ولا يعنيه أمر الباني أكان يريد مسجد صلاة أم هيكل أوثان. وأما المربي الملي والمعلم الاجتماعي فهو الذي يقيم بناء الأمة أو ينظم عقدها فيجب أن يكون هو الرئيس على معلمي الفنون والعلوم المدير لمدارسهم لأنهم هم الذين يمهدون له العمل ويهيئون له الحجارة التي يقيم بها البناء فإذا خلت مدارس الأمة من هؤلاء المربين والمعلمين فبشرها بأنها تهيء أفرادها للدخول في بناء غير بنائها وهكذا نرى الذين تعلموا العلوم والفنون منّا هم الذين مكنوا الأجانب منا بنصحهم لهم في خدمتهم، وإن لم يصلوا في التشرف بهم إلى أن يجعلوا من بنيتهم، وهكذا تتبدل أحوال الأمم وتتغير أشكالها كما صارت كنائس القسطنطينية مساجد، ومساجد قرطبة كنائس.

إلا أن حياتنا الملية التي هي سلك اجتماعنا وينبوع سعادتنا لا تنفخ روحها فينا إلا بالتربية الدينية الدنيوية فيجب أن يكون جل اهتمام طلاب الإصلاح منا في الدعوة إلى هذه التربية والسعي لها وإزالة العقبتين اللتين ذكرناهما في مقالة الجزء الماضي من طريقها، أعني عاقبة السياسة وعقبة الجهل وكيف يكون ذلك.

كتبت ما تقدم فلم يقف القلم دقيقة ولا لحظة انتظاراً لما يمليه الفكر حتى إذا انتهى إلى هذه النقطة وقف ساعة من الزمان، وكان هذا شأنه في المقالة الأولى جرى فلم يقف إلا عند نقطة بيان العمل الواجب علينا فكانت وقفته خاتمة المقالة. وقف القلم لوقوف الفكر، ووقف الفكر لأن تصور العاملين حال بينه وبين تصوير العمل، انتقل من إملاء الواجبات التي يعلمها إلى البحث عن العاملين الذين يجهلهم، كأن صائحاً أهاب به: قف لا تخاطب من لا يسمع، ولا تطالب من لا يعمل، فوقف هنيهة ثم أنشأ يجوب البلاد ويتصفح الوجوه فرأى أن أكثر الذين يعقلون ما يقال،

ويقدرون على الأعمال، أحلاس بيوت، وأحلاف خمول، ومن قد ظهر بما نصح للأمة، قد استفاد بنصحه الظنة، فلا يثق به الجمهور، ولا يكلون إليه تدبير الأمور، ثم عاد إلى قبر الأستاذ الإمام، فبكاه بالدموع السجام، وتذكر أن الأمة ما فقدت رأيه ونصيحته، وإنما فقدت زعامته وإمامته، فإنها لم تكد تشعر بأنه رب السلك، وربان الفلك، فتستعد لقبول ما يأتيه من النظام، إلا وقد اختطفه منها الحمام.

فإن لم يأتنا ندب بسلك	فلا عمل هناك ولا نظام
وإن لم يأتنا نوح بفلك	على الإسلام والشرق والسلام

هذا ما كان من الفكر في سكوته عن الإملاء قد أملاه، ثم عاد إلى ما كان وعد القلم به فوفاه.

يجب على العامل في مصر والهند ما لا يجب على العامل في الآستانة والشام، ويطلب من المصلح في تونس والجزائر، ما لا يطلب من المصلح في فارس أو قزان، ولا أذكر مراكش إذ ليس فيها - على ما أظن - رجال، ولا الصين لأن المسلمين فيها لا يهمهم غير جمع المال، وجملة القول إن الشعوب الإسلامية متمزقة، في بلاد متفرقة، وليس لشعب منها من الحرية في العلم للدنيا والدين مثل ما لمسلمي مصر والهند وهم في مقدمة المسلمين ذكاء وفطنة ولولا ما يعوزهم من العزيمة والثبات والاستقلال الشخصي الذي تفضلهم به الشعوب العثمانية لكانوا هم الرجاء لسائر المسلمين، ولا أعتد دعوة أحداث الوطنية في مصر مانعاً لانتفاع المسلمين بالمصريين فإن دعوتهم لا تزال ضعيفة لا يخشى أن تفصل هذا العضو من جسم الملة.

إنما يكون العاملون لخير الإسلام في مصر والهند بأمن من غائلة السياسة إذا هم اتقوا الاصطدام بالسياسة والافتتان بها فيجب أن يكون عملهم

للإسلام نفسه لا لهوى أمير أو مليك، ولا اتكالاً على دولة أو حكومة، ولا لأجل مقاومة السلطة، أو معاندة القوة، ولولا افتتان المصريين بالسياسة وتعلق نفوسهم بمناهضة إنكلترا اتكالاً على فرنسا لنجحوا في ظل حرية الاحتلال الإنكليزي نهضة كانوا بها أئمة المسلمين ولكنهم لم يكادوا يشفوا من داء الغرور بفرنسا حتى قام من خطباء الفتنة من يغرهم بألمانيا ويغريهم بمناصبة القوة المحتلة الحقيقية اتكالاً على قوة ألمانيا الوهمية.

يخدع بعض المصريين أنفسهم ويخادعون قومهم إذ يقولون إن الحياة الوطنية إنما تكون بكثرة الكلام في ذم كل عمل للمحتلين وإظهار الميل عنهم إلى غيرهم، ويتوهم الأكثرون منهم ويوهمون قومهم بأن من يعمل لخير ملته وأمته في مصر فهو على خطر إيقاع الانكليز به لأن الحرية التي عندهم لا تعدوا إباحة القول وعمل المنكر، وإن كلاًّ لمخطىء فيما يقول ويزعم فإن القول لا يزلزل القوم ولذلك أباحوه فإذا آنسوا أن وراءه عملاً فلا يعجزهم إحباطه وهم هم الذين يلعبون بالأمم والدول كما يشاءون. وأما من يعمل في سلطتهم لخير نفسه بالاهتداء بدينه والارتقاء في دنياه فإنهم لا يصدونه عن السبيل، ولا يقيمون في وجهه العراقيل، وقد ارتقى وثنيو الهند في ظل حريتهم ارتقاء مبيناً والمسلمون نائمون فلم يقعدوا القائم، ولا أيقظوا النائم، ولما انتبه المسلمون من نومهم، ودعاهم الداعي إلى العمل لقومهم، قال لهم الإنكليز إن تعملوا لأنفسكم فإنا مسعدون، وإن تهملوا شؤونكم فما نحن لكم إلا مهملون.

الإنكليز قوم يحبون الكسب بهدوء وسلام فهم لا يحركون أضغان الناس عليهم ولا يقصرون في تسكين ما تحرك من نفسه أو حركه خصم آخر يناظرهم، لا يعاندون الطبيعة ولا يساعدونها على أنفسهم، فمن استعدت طبيعته لعلم أو عمل مع مسالمتهم اقتنعوا بأن يستفيدوا منه بحسب حاله فهم

يرضون من العالم ما لا يرضونه من الجاهل، ويعاملون الشعب المستقل المتحد، بغير ما يعاملون به الشعب المستذل المستعبد، فما أجبن من يقول إنهم لا يمكنوننا من العمل، وما أجهل من يقول لماذا لا يعملون لنا ما لا نعمل لأنفسنا إنهم إذاً أعداؤنا. نعم إنهم أعداؤك العقلاء وأنت بجهلك أعدى أعداء نفسك.

إذا ما أهان امرؤ نفسه   فلا أكرم الله من يكرمه

هذه ما نقتحم به عقبة السياسة في مصر والهند أعيده مختصراً وهو أن يكون عملنا لإحياء ملتنا وترقية أمتنا بالعلوم النافعة والأعمال المالية المشتركة والجمعيات العلمية الخيرية مع مسالمة القوة بالصدق لا بالرياء والمخادعة، وما مسالمة القوة إلا ترك العبث بمقاومتها لأجل قوة خارجية سواها. أما مطالبتها بترك كذا مما يضر البلاد أو فعل كذا مما يفيدها فلا ينافي المسالمة ولا يقتضي المقاومة، وإذا صار في البلاد أمة تطالب بذلك على بصيرة وحق فإن طلبها لا يكاد يرد إذا كان معقولاً فإن العاقل لا يظلم مع العاقل لا سيما إذا كان أمة (الكلمة للسيد جمال الدين رحمه الله) ولن تكون هذه الأمة أمة إلا بالحياة الملية التي ندعو إليها.

تلك الحقيقة وقد يتوهم ضعفاء العقول أن فيها مصانعة للمحتلين وما أنا بمحتاج إلى مصانعتهم لدنيا أريدها منهم وهم أغنى بقوتهم وبراعتهم في استعمار البلاد وتدبير أمور الأمم عني. ولو كنت أصانع لكنت أحوج إلى مصانعة العوام بمجاراتهم على أهوائهم لتزداد مجلتي رواجاً فيهم أو بعض الكبراء الذين يبذلون الأموال لمن يواتيهم على ما يريدون، وما كان هذا مني ولا ذاك ولن يكون إن شاء الله تعالى. إن أريد إلا إقناع طائفتين من الناس بما لو اقتنعوا به رجي أن تستفيد الأمة من عملهم. الطائفة الأولى

جماعة من أهل المعرفة بما ينفع الأمة يصدهم عن العمل لها اعتقاد أن الإنكليز واقفون بالمرصاد لكل عامل لملته لأنهم أعدؤها ولا قدرة لنا عليهم فعلينا السكون والسكوت وهؤلاء هم الواهمون. والطائفة الثانية مؤلفة من أفراد كثيرين لا يعرفون النافع للأمة والحي للملة وإنما يظنون أن الواجب على كل وطني أو مسلم أن يعتقد أن كل ما يعمله المحتلون البلاد ضارٌّ فإن كان نافعاً في الظاهر فهو ضار في الباطن وأن يقاوم القوم بالقول فيذمهم ويقبح أعمالهم ويظهر الميل إلى دولة أوربية أخرى نكاية فيهم، وهؤلاء هم المخدوعون. فأولئك لجبنهم لا يعملون بعملهم النافع .وهؤلاء لحمقهم يقولون ما لا يفعلون، والغارّون لهم يخادعونهم بما لا يعتقدون.

أريد العمل لما يحيي الملة وينهض بالأمة ولا حرية لنا في غير مصر والهند فأحب أن يقدرها العارفون بالخير والشر قدرها ويستفيدوا منها لينشط أهل الهند ولكيلا يطول على المصريين أمد الوهم وسوء الظن بالإنكليز كما طال على مسلمي الهند فحرموا الإستفادة من حريتهم حقبة من الزمن ولم يشعروا بخطأهم إلا بعد أن رأوا الوثنيين قد علوهم بالعلم والعمل والثروة والحكم. فحسب المصريين ربع تلك المدة وليعلموا أن اقتحام العقبة سهل كما ذكرنا. ومن بين لنا خطأنا فإنّا له شاكرون، ولرأيه ناشرون. نعم إن حكومة فارس (إيران) لا تعادي العلم، ولا تمنع الاجتماع، ولكن الشعب نائم، يحلم بظهور المهدي القائم، وهي عاجزة عن النهوض بنفسها، وما أحوجها إلى يقظة شعبها، قبل أن يفرغ لها الجاران، فتغتالها الغيلان.

بينا معنى الحياة الملية وأن رابطة الملة في الإسلام هي أقوى الروابط وأعمها نفعاً للبشر وأن العاقل إذا فقه سرها لا يرغب عنها ولا يفضل عليها غيرها ولو لم يكن من أهلها وأنها الآن منحلة وأنها على انحلالها موضع للأمل وأنه يجب على المسلمين توثيقها وتوكيدها وأن أحرى الناس

بالعمل والسعي لها مسلمو الهند ومصر- ويليهم مسلمو التتر في روسيا واستعدادهم قوي وستظهره الحرية المنتظرة بعد الثورة - وأن ما يمنعهم من العمل ليس إلا وهماً يقويه الجبن أو جهالة يمدها الخداع والغرور. هذا وسنشير إلى اقتحام عقبة الجهل فيما يأتي.

أما العمل الواجب فلا يشرح بالتفصيل إلا للعاملين ويجب أن يكون دائراً على أقطاب هذه المسائل الكلية (١) كون تعليم الدين مؤيداً للعقائد دافعاً للشبهات الرائجة في هذا العصر (٢) كون تعليم التاريخ وعلم الاجتماع والأخلاق والآداب موثقاً للرابطة الملية بين شعوب المسلمين وعناصرهم المختلفة (٣) تعليم العبادات مع بيان حكمها وفوائدها في تزكية النفس وتعليم أحكام المعاملات مع بيان انطباقها على مصالح البشر ومنافعهم في هذا الزمان، ومن ذلك بيان أن كل محرم ضار وكل حلال نافع (٤) تعلم العلوم الرياضية والطبيعية بقصد ترقية النفوس بمعرفة سنن الله وحكمه في الخلق وترقية مجموع الأمة بالأعمال التي تزيد في ثروتها وعزتها (٥) إحياء اللغة العربية بإلزام المتعلمين التحاور بها استبدالاً لها باللغة العامية وبتعليمهم البلاغة في القول والكتابة ليكونوا كتاباً بارعين، وخطباء مؤثرين (٦) تعليم الصنائع التي يمكن العمل بها في البلاد وفنون التجارة بقصد إنماء ثروة الأمة بغنى أفرادها (٧) الجمع بين التعليم على النهج الذي شرحناه وبين التربية العملية في المدارس الإسلامية المفقودة من الأرض (٨) جعل مدار التعليم والتربية على استقلال الفكر واستقلال الإرادة والاستقلال في العمل الذي يعبرون عنه بالاعتماد على النفس وعلى حب الأمة وشرف الملة. والكافل لهذه الأركان الثانية هم المعلمون المربون الذين بينا وظيفتهم. وههنا تعترضنا عقبة الجهل جهل رجال الدين - والعامة من ورائهم - بهذه الطريقة للتعليم الديني وبفائدة العلوم الدنيوية وجهل علماء

الدنيا بهذه الطريقة لتعليم علومهم. على أن أمر هؤلاء أهون، وإرشادهم إلى المطلوب منهم أيسر، وإذا بعدنا عن علماء الرسوم الدينية ومعاهدهم كالأزهر وما ألحق به في هذه الديار فإننا نأمن معارضتهم ومناصبتهم لنا في تعليمنا، على أن صوتهم في مصر قد خفت ونفوذهم قد ضعف، ولا نعدم من يعلم الدين على الوجه النافع الذي أشرنا إليه حتى ممن كان تعلم في هذه المعاهد وصادف علوماً وهداية أخرى بشرط أن يوجد المدير العام رب السلك وناظم العقد.

لا يكون هذا إلا في المدارس الكلية فلا حياة بدونها ولو بقي الأستاذ الإمام حيًّا لأسست في مصر مدرسة كلية وشرع فيها قبل مضي هذا العام فقد كان أعدلها عدتها وعزم على جمع المال لها في هذا الشتاء، جزاه الله عن نيته وعمله أفضل الجزاء، وقد كان مضطلعاً بهذا الأمر ولعله يوجد في مصر من يستخدم الاستعداد الذي تم لها كما كان يريد رحمه الله. أما إنشاء الجمعيات والشركات فإن البلاد المصرية والهندية شرعت فيه ويرجى لها النجاح بالتدريج إن شاء الله تعالى.

هذا ما نذكر به أهل العقل والغيرة من مسلمي مصر والهند وقزان وغيرهم من مسلمي الفرس على نومتهم، ومسلمي العثمانيين والتونسيين على ضيق عطنهم، وحيف زمنهم، وضعف مُننهم، على أن استعدادهم الفطري للعمل ربما كان أقوى، واستقلالهم في الإرادة والفكر أقوى، ولكن اقتحام العقبتين أشق عليهم وأعسر، فهم أحق بالاجتهاد وأجدر، ويتوقف ذلك على أعمال تعرف مما تنفثه الأخطار في الصدور، لا مما تبثه الأفكار في السطور، وكل ميسر لما خلق له، (ألا إلى الله تصير الأمور).

القول الفصل

محاورة في سعادة الأمة[١]

نظر بعض أصحاب الأفكار الصافية والعقول النيرة في كتب التاريخ نظر التأمل والاعتبار ووقف على شيء من أحوال الأمم في أطوارها وأدوارها، من بداوة وحضارة وهمجية وقوة وضعف وصعود وهبوط وغلبة وانغلاب، ونحو هذا من الصفات المتقابلة والشؤون المختلفة فحدا بهمته النظر بعين البصيرة إلى طلب النظر بعين البصر والسير في الأرض لمشاهدة آثار العالمين وتطبيق ما يرى على ما علم فضرب في الأرض شرقاً وغرباً وخالط الأمم عجماً وعرباً واكتنه الأخلاق واختبر العادات وشاهد سير العلوم والفنون ووقف على أمهات الصنائع والأعمال وسبر قوى العقول والأفكار ثم شرع في المقابلة والتنظير فتجلى له أن الاستعداد الفطري والقوى الطبيعية في تلك الأمم واحدة وأن اختلاف الحالات لم يأت من اختلاف المدارك والتفاوت في الاستعداد وإن انتهى إلى درجة يكاد يلتحق بها فريق بالعجماوات ويخرج من عداد الإنسان ويرتقي بها فريق آخر عن النوعية الآدمية إلى مصاف الملائكة وإنما جاء من أمور عارضة وظروف خارجية. وأعمل فكره في معرفة مناشىء هذه العوارض وعلل هاته الطوارىء وارتقى في الأسباب الكثيرة وتبصر في تأثيرها فعرف كيف يمكن اتقاء

(١) نشرت في فاتحة العدد الثاني الذي صدر في يوم الثلاثاء ٢٩ شوال سنة ١٣١٥ هـ، المنار، الجزء الثاني، المجلد الأول، ص ٣١-٤٦ الطبعة الثانية ١٣٢٧.

العوارض المضرة وإزالة الطوارىء التي دفعت في صدور بعض الأمم فأخرتها وأمسكت بحجزاتها عن التقدم الذي يرشدها إليه الإلهام الإلهي والقوى القدسية التي منحها الله للإنسان. ثم رجع هذا العاقل إلى وطنه وقد أوتي الحكمة وفصل الخطاب وصار من أطباء النفوس القادرين على مداواة أمراض أمته، وعجب لإغفال الجماهير هذا النظر وهذه السياحة حتى كأنهم عميان، وصار يردّد في نفسه هذه النصوص: (أفلم ينظروا)، (أولم يتفكروا)، (أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور).

ثم وجه عنايته لتنبيه قومه على ما استفاد في سياحته (لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرى).

ولما أن جاء القوم للسلام عليه سألوه عن رحلته من حيث سهولة السفر ومشقته وما كان طعامه وشرابه فيه وعن منتزهات البلاد التي زارها فعذلهم بلطف على هذه الأسئلة واعتذر لهم عن نسيانه لهذه الأمور وطفق يحدثهم عن معارف البلاد لا عن معازفها وعن مصانعها لا عن مراقصها وأطال في الكلام عن الأمم المتمدنة وعما رأى فيها من موارد الراحة السائغة وبرود النعمة السابغة حتى أدهشهم وكان يتكلم عن انفعال وتأثر، ويشوب كلامه بالتأوه والتحسر، فأثرت حالته في نفوسهم وحركت منها كوامن الغيرة وأحب فريق منهم أن يبحث معه في سعادة الأمم وشقائها، وشدتها ورخائها، وهبوطها وارتقائها، فاعترضه آخرون قائلين إن الكلام في هذا الموضوع يتعب البال ويزعج الخاطر وهو عبث لا يفيد شيئاً فإن الأمر كله لله وليس لإرادة الناس أثر في أعمالهم ولا لأعمالهم أثر في منافعهم بل ليس لهم إرادة أيضاً بل هم في الحقيقة كالريش في الفضاء تصرفه رياح الأقدار المتناوحة وتتلاعب به ولا إرادة ولا اختيار. نستغفر الله لا ننكر

الاختيار فإنه مذهب أهل السنة ولكن الحقيقة ما قاله بعض المحققين (سني في الظاهر جبري في الباطن) فأجابهم أولئك قائلين: إنكم تؤمنون بلفظ الاختيار دون معناه وكأنكم ترون أن حركة اللسان بلفظ الاختيار هي الفصل الذي يخرجكم من عداد طائفة الجبرية الذين اتّفَق أساطين علماء الملة على فسوقهم من الاعتقاد الحق ونبذهم بلقب الابتداع في الدين.

أما علمتم أن الألفاظ لا تدخل في ماهية العقائد وحقيقة المذاهب وأن الخلاف في إطلاق اللفظ على معنى متفق عليه يرجع إلى الاصطلاح الذي لا مشاحة فيه. أتزعمون أنه لا واسطة بين الجبر والقدر وأن الذين يسمون أهل السنة هم جبرية في الحقيقة لكنهم لما عجزوا عن الجواب على ما يستلزمه هذا المذهب من تخطئة تشريع الشرائع وإنزال الكتب تستروا بلفظ الكسب والاختيار (يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم). حاشاهم حاشاهم ونستغفر الله من هذا الضلال البعيد.

فأجابهم السائح العاقل على رسلكم فما هؤلاء بجبرية ولا سنية ولا قدرية ولكن عموم الجهل جعلهم (مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء) وإنني رأيت الكثير من أمثالهم في سياحتي في البلاد الإسلامية. كنت إذا ذاكرْتُ المصري مثلاً في أمر يتعلق بمصلحة وطنية يتوكأ على عكاز الجبر ويقول « هو بيدنا إيه » وإذا كلمت سوريًّا في مثل ذلك يستند على هذه العصا أيضاً ويقول « شو طالع باليد » وربما أردفوها على سبيل الاحتجاج بهذا النص الشريف (ليس لها من دون الله كاشفة).

كلمة حق أريد بها باطل وتمسكهم بها عرض زائل، أرأيت إن ألمت ملمة بشؤونهم الخاصة كيف يجتهدون بتلافيها بما يستطيعون من الأسباب بل ويتعدون الأسباب الطبيعية إلى ما ليس بسبب أصلاً ويتخذون الوسائل

الوهمية التي يأباها الشرع وينبذها العقل كالاستعاذة بالعوالم غير المنظورة من الجن والشياطين والاستعانة بالأموات من العلماء والصلحاء. يخاطبون هؤلاء لدى أجداثهم ويستنهضون هممهم بالصياح والصراخ وتقديم هدايا الفواتح. ويستنفرون أولئك بالعزائم والطلاسم وإحراق البخور في المجامر ويستنبئون عن حقيقة الأمور بخطوط الرمل أو الطرق بالحصا وحبوب الفول ويتعرفونها من الدجاجلة والعرّافين.

فتبين لكم كيف أن هؤلاء الحمقى قد جمعوا بين مذاهب المبتدعة على تضادها وتباينها وتخطوا أوساط الأمور إلى طرفي الإفراط والتفريط فهم جبرية بإزاء المصالح العامة وقدرية تلقاء منافعهم الخاصة.

وقد نظرت في التاريخ سير العلوم واختبرت حالتها اليوم فرأيت العلماء الباحثين في مسائل الجبر والقدر والكسب قصروا أنظارهم على مفهومات هذه الألفاظ وتفلسفوا فيها ولم يلتفتوا إلى ما تحدث هذه العقائد في الإرادة من الآثار وما يتبع تلك الآثار من الأعمال وما ينشأ عن تلك الأعمال من ضعف أو قوة فينبهوا الأمة عليه.

ألفوا فيها المتون والشروح وعلقوا عليها الحواشي والتقارير فما زادت الأمة تآليفهم إلا حيرة وإشكالاً وكانوا كجواب المجاهيل يغذ أحدهم السير سحابة نهاره وعامة ليله ثم لا يدري هل ازداد بسيره قرباً أو بعداً.

وأما الذين لم يبلغ الجهل منهم مبلغ إنكار الوجدان والقول بالجبر الصراح فهم يعلمون أن الأخذ بالأسباب عملاً واعتقاد ارتباطها بالمسببات بحيث لا تتخلف عنها إذا تمت شروطها ولا تحصل إلا معها هو الحق وأن انكشاف الخطوب على أيدي الآخذين بأسبابها التي سنها الله تعالى لها لا

يقتضي أنهم عاندوا الإرادة الالهية وكانوا هم الكاشفين لها من دون الله تعالى.

فخجل المحتجون بالجبر عند هذا البيان واتفق القوم كلهم على البحث مع السائح العاقل في شؤون ترقية أمتهم وعن الأسباب التي ينبغي الأخذ بها للحصول على هذه الأمنية الشريفة. وأجمعوا على أن يكون البحث على طريق السؤال والجواب لأنه أدعى إلى إلقاء السمع وتوجيه الفكر وأقرب إلى التنبه والتبصر وأن يكون السائح هو السائل لأنه أعلم بحاج الأمم لما أفاده العلم والاختبار ثم إذا اختلفوا في الأجوبة يحكّمونه فيما شجر بينهم ويكون بقوله العمل وعليه الفتوى.

فقال إنني ملق عليكم مسائل متعددة في مواضيع مختلفة وكلها تتعلق بسعادة الأمم وأطلب عليها كلها جواباً واحداً يؤدّى بكلمة واحدة. فقالوا له يشبه أن يكون كلامك هذا من الألغاز والأحاجي فكيف السبيل إلى حل معماه، وكشف مخباه، وكيف يكون الجواب عن الأسئلة في المواضيع المختلفة واحداً (إن هذا لشيء عُجاب).

فقال لا عجب فإن كل كثرة لا بد أن تجمعها جهة وحدة، فكما أن الوحدة التي نسميها سعادة الأمة لا تحصل إلا بأمور كثيرة ترجع إلى شيء واحد وهو (سعادة الأمة) كذلك وسائل هذه الأمور الكثيرة التي منها تستمد مسائلي تؤول إلى شيء واحد. «وسيلة ترجع إليها جميع الوسائل وسبب يجمع كل الأسباب» وهو الجواب الذي سأشرحه لكم. ثم أنشأ يسرد الأسئلة فقال:

(س) ما هو الناموس الذي يحصل به الجذب والانجذاب بين العناصر المتفرقة ويحكم الالتصاق بين أفرادها فيكون المجموع أمة واحدة وبماذا

توجد الرابطة التي تجعل مدار هذا المجموع على محور واحد؟

(س) أي شيء يمحو من نفوس أفراد الأمة الأثرة والاختصاص بالمنافع دون قومهم ويثبت فيها حب الوطنية والجامعة الجنسية بحيث يرى كل واحد أن منفعته في منفعة أمته ومضرتها عين مضرته. بل ما هي الروح التي تنفخ في آحادها فتحيا بعد مماتها، وتجتمع بعد شتاتها، وتكون جسداً واحداً إذا اشتكى له عضو تداعى له سائر الجسد، فإنني أرى هذا الروح هو المدبر لبعض الأمم وكأنه فقد من أمتنا بالكلية فانتثر عقد اجتماعهم. وانحل تركيب بنيتهم. وتفرقت كلمتهم. ورُزئوا بالتخاصم والتنازع، والتباغض والتحاسد. وأصبحوا و (بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون) وأنّى يعقلون معنى هذه الحياة الجنسية وسِرّ هاته الجامعة الوطنية. وكيف تحصل لهم. وبماذا توجد فيهم. وأنى يجتمعون في صعيد واحد مع اختلاف منابتهم وتقطع وشائجهم؟

(س) إذا اعتقدت الأمة بأفرادها انحطاط المدارك وضعف العقول وعدم الاستعداد الفطري لاحتذاء الأمم الأخرى فيما جاءت به من عجائب الصناعات وما استنبطته من دقائق العلوم والفنون لأنها شاهدت الآثار التي انتهت إليها وهي في غيبة عن مبدأها وكيفية نموها فأنّى يكون تنبيهها إلى ما أودع فيها من القوى الطبيعية والقدر الوهبية الكامنة في أرواحها كمون النار في الحجر، إن قدحته أورى، وإن تركته توارى، وأنه ليس عليهم في إبراز آثار هذه القوى إلا استعمالها فيما خلقت كما استعملها الآخرون؟

(س) إذا تمكن في النفوس اليأس من التقدم والقنوط من الترقي لاعتقاد أن زمن التدارك قد فات وأنه لا يمكن مجاراة المتخلف لمن بلغ الغاية وإن كان الاستعداد واحداً. فغلت لذلك الأيدي عن العمل كأنما هي

مشلولة. ووقفت الأرجل عن السعي حتى كأنها مقطورة. (أي محبوسة في المقطرة وهي خشبة مثقوبة توضع فيها أرجل المحبوسين) فبماذا تنزع الأغلال وتكسر المقاطر وتنعم تلك النفوس بحلاوة الرجاء بعد مرارة اليأس وتندفع اندفاع الجياد القرّح إلى طلب المجد المؤثل الذي تطلبه بحق وتجري فيه على عرق؟

(س) إذا حاول بعض أهل الثراء أن يحتذي شاكلة السابقين ويتلو تلو الشعوب المتمدنة فأنشأ يقلدهم في أحوال معيشتهم التي انتهت بهم إليها طبيعة بسطة الملك وسعة الثروة فشيد القصور ونقش الجدران وزينها بالأرائك والزرابي والسجوف والمصابيح وسائر أنواع الآنية والماعون النفيس الذي يجلبه من بلاد تلك الشعوب، فكيف يمكن إقناع هؤلاء بأن هذا التقليد تذفيف على جرح الأمة وإجهاز على حياتها وبه ينضب معين ثروتها على أنه ليس لديها من أمواه الثروة إلاّ بقية وشل. وأن التقليد النافع إنما يكون في خدمة المعارف والسير في طرقها التي سار فيها أولئك وفي الأعمال النافعة التي هم لها عاملون؟

(س) كيف تحافظ الأمم على أديانها ولغاتها وعوائدها النافعة إذا كانت مهددة من أمم أخرى بحكم ناموس تنازع البقاء. وكيف ظلت اللغة العبرانية محفوظة في ألسنة الاسرائيليين، مع ما ابتلوا به من فقد السلطة والشتات في الأقطار وما رزئوا به من جور الحاكمين واضطهاد الظالمين. ولماذا فسدت ملكة اللغة العربية من ألسنة أربابها مع نمّو عمرانهم وامتداد سلطانهم؟

تسمع ولدان اليهود في روسيا وألمانيا وأستريا وفرنسا وإنكلترا وإسبانيا وإفريقية وأميركا يتكلمون بلسان كتابهم (التوراة) على نحو ما كان يتكلم به

آباؤهم الأولون. ولم يصدهم عن حفظه معرفة لغات الشعوب الذين هم عائشون في بلادهم. وشيوخ العلم في مصر والشام والعراق والمغرب بل وفي الحجاز واليمن يكتفون بوجود لغة (القرآن) في مطاوي الكتب وبطون الدواوين.

(س) كيف يمكن التفلت من أشراك العادات الرديئة وأحابيلها. والتفصّي من عقل التقليدات المضرة التي أوقفتنا عن السير وأحدثت فينا قناعة البهم وبغضت إلينا كل جديد وإن كان فيه سعادتنا وقد استحكمت بتوالي الأيام وكرور السنين. وقويت على سلطان العقل وإرشاد الدين حتى اعتقد الاخذون بها حسنها وأنكروا على من أخلّ بشيء منها (الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً) أما والله لو أن أجسادنا هذه تدبرها أرواح كأرواح آبائنا الأولين لكنا نحن السابقين إلى كل ما يسمى اختراعاً واكتشافاً وعملاً نافعاً.

(س) إننا نرى كثيراً من الأخلاق والعادات لها وجهة للخير ووجهة للشر يجتني نفعها أناس ويصاب منها بالضرر آخرون. فكيف يتفرع عن الأصل الواحد فروع مختلفة وآثار متباينة. وبماذا اهتدى الأوربيون للانتفاع من اختلاف رجال العلم ورجال السياسة وتنازعهم وتبينوا من هذا الاختلاف والتنازع محجة الصواب وحقيقة الأمر حتى كان نور الحقائق العلمية والمصالح السياسية لمعان البرق لا يظهر إلا بين الإيجاب والسلب؟

ولماذا كان الاختلاف والتنازع في الشعوب الشرقية حجاباً على وجه الحقيقة وغشاوة على عين البصيرة تضيع فيه المصالح وتندرس رسوم المنافع حتى كان تصادم أفكارهم تصادم القوارير؟

(س) ما هو الغاسول المطهر للأذهان من أقذار الوساوس والأوهام التي

توقع في الخوف مما لا يخيف ورجاء ما لا يفيد وبماذا يكون ترميج (إفساد السطور المكتوبة) ما سطر في ألواح النفوس من أساطير الخرافات أو محوه بالكلية، ورسم آيات الحكمة وإثبات نقوش الحقائق على هذه الألواح الشريفة القدسية؟

(س) بماذا يعرف المجد الصحيح من المجد الباطل والكمال الحقيقي من الكمال الوهمي فتتحول مجاري نفقات الأفراح والأحزان من الولائم والوضائم وما يتبعها إلى التعليم والتربية ويستبدل تشييد المكاتب والمدارس الوطنية بتشييد القصور على القبور (الاحواش) الذي استن المصريون فيه بسنة «خوفو» و«خفرع» و«منكورع» الذين شادوا الأهرام لحفظ جثثهم الشريفة؟

(س) ما هو العلاج الذي يستأصل جراثيم الفساد والدواء القاتل «لميكروب» الأدواء الروحية الشافي من الأمراض القلبية التي تتولد عنها المآثم والموبقات؟

(س) متى تقل الأمراض الجسدية ويتزين مجموع الأمة ببرود الصحة الضافية ويلقون عن عواتقهم الأمراض وأخلاق الاسقام ويقل فيهم فتك الأوبئة إذا لم يمكن محو هذه المصائب بالكلية؟

(س) بماذا تحصل الثروة للأمم فإننا نرى بعض الشعوب استولى عليها الفقر المدقع فلا يوجد فيها من الأغنياء إلا أفراد قلائل والكثير منهم ما نال الثروة بطرق مشروعة وأعمال شريفة والسؤال إنما هو عن ثروة الأمة من الطرق الشريفة المشروعة. ولو وزعت ثروة من ذكرنا على الأمة بالتعديل لم تخرج من عداد الأمم الفقيرة (قال السائل الحكيم) وإذا قلتم زراعة. صناعة.

تجارة. فإنني لا أعتد ذلك جواباً بل هو يحملني على التفصيل بإلقاء أسئلة أخرى في موضوع الثروة فأقول:

(س) ما الوسيلة إلى تحسين حالة الزراعة بحيث تفيض الأرض بالخيرات والبركات التي هي كنوزها الحقيقية. ولماذا كان أهالي فرنسا بل وأهالي زيلندا (جزيرة في البحر المحيط) أكثر ثروة زراعية من أهالي مصر بالنسبة لمساحة الأرض مع أن أرض مصر أخصب تربة ورجالها أكثر جلداً على العمل وعندهم النيل الذي ليس له في زيلندا ولا في فرنسا نظير؟

(س) ما الذريعة إلى إتقان الصناعة وتوسيع دائرتها والتفنن في تنويعها بحيث تكتفي بها الأمة وتحفظ ثروتها عن اغتيال الأجانب لها وجعلها عالة عليهم ثم تكفي غيرها من الأمم التي أصابها مرض الجهل والكسل فأقعداها عن الأعمال؟

(س) ما هي الطريقة للتصرف بأساليب التجارة التي عليها مدار الثروة الأكبر والتي هي من الصناعة والزراعة كالقوة المتصرفة من المعلومات والمدركات، أو كالشرايين والأوردة لدم الإنسان والحيوان؟

(س) كيف تسنى لأفراد من طلاب الكسب الأجانب احتكار ماء النيل وماء نهر الكلب (نهر في لبنان تجره إلى بيروت شركة أجنبية) كما تحتكر السلع وعروض التجارة وبيعه لأهل البلاد بالمال. ومن كان (لولا المشاهدة) يصدق أن الأمة تنحط إلى دركة لا يمكن للوطني معها أن يتناول جرعة من ماء بلاده إلا إذا اقتضى الأجنبي منه ثمنها المعلوم عن رضى واختيار (أما وسر العلم والاجتهاد لو وجد مثل هذا الخبر في كتب تاريخ الأمم القديمة لعد من هذيان القصاص المولعين بتلفيق الأكاذيب للإعجاب والإغراب).

(س) بماذا تحرز الأمم القوة والمنعة وتعقد على ألويتها الغلبة والظفر وكيف استولت إنكلترا على ممالك الهند وعلى أُستراليا والكاب والنيجر وكندا وكيف استولت فرنسا على بلاد الجزائر وتونس والسنغال ومدغسكر وأنام وكمبوديا وكوشين صين وتونكين وكيف استولت هولندا على كذا وألمانيا على كذا؟

(س) كيف يسهل على نفر قليل الاستيلاء على شعب كبير يصرفونه في مصالحهم ويستخدمون أفراده في منافعهم ويستعملونه كما تستعمل الدواب والأنعام بل يديرونه كما تدار الآلة الصماء وهو لا يدري علة هذه السلطة ولا وقوف لأفراده على حقيقة أسبابها ولعله لا يتفكر فيها أيضاً كأنما فقد كل إحساس وشعور؟

(س) كيف أمكن للأمير كانيين إلقاء السلطة الإنكليزية عن عواتقهم وطرح أوزار سيطرتها عن كواهلهم واتحاد ولايات بلادهم تحت لواء واحد تستضيء بنجومه أمم ويخشى من شهبه آخرون. حتى أن أوربا تحذر منه على ما بقي لها في العالم الجديد وتتوقع تنفيذ قول مونرو «أميركا للأميركيين» وبالجملة؟

(س) ما هي الآلة الرافعة للمتطوحين في عواثير التعاسة والشقاء والمتدهورين في مهاوي الخذلان. وما هي المدارج التي ترقى فيها الأمم إلى المدنية الصحيحة والمعارج التي تصعد عليها إلى مراتب الكمالات الصورية والمعنوية، من دينية ودنيوية، وما هو النور الذي يستضاء به في ظلمات الجهل والغباوة والمنار الذي يُهْتَدَى به في مهامه الحيرة ومجاهيل الخطوب؟

فلما فرغت المسائل، وسكت السائل، وطلب ما عند القوم من الجواب ابتدر أحدهم فقال لا شك أن الأمراء والحكام هم الذين يكوّنون بنى (جمع

بنية) الأمم وينفخون فيها روح الوحدة. وينشقونها نسيم الحياة الوطنية. ويمدون فيها جداول الثروة بما يمهدون من طرق الكسب ويحفرون من الترّع ويبنون من المعامل والمصانع ويهيئون من الآلات والأدوات الخ ما أشرتم إليه من أسباب السعادة.

فرد عليه السائل قائلاً إذا فرضنا أن الحكومة غنية مع فقر الأمة وأمكنها أن تعمل كل هذه الأعمال فهل في استطاعة الحاكم أن يقتلع من نفوس الأمة جراثيم الأخلاق الذميمة وينقي منها بذور العادات الرديئة التي تنجم عنها الأفعال المضرة ويغرس فيها أشجار الأخلاق الفاضلة والسجايا الجميلة التي تثمر الأعمال النافعة؟ كلا إن من يلقي التبعة كلها على الحكام مخطىء في حكمه وإنني رأيت أكثر الأمم الشرقية لا يرون لأنفسهم وجوداً إلا بالحكام ويرون أن صلاح الأمة وفسادها وغيها ورشادها وصحتها ومرضها وغناها وفقرها بل ومحياها ومماتها كل ذلك بيد الحاكم حتى كأن الحاكم بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه وكأن هذا الوهم متسلسل فيهم بالإرث من عهد من قال «أنا أحيي وأميت» وعهد من قال «أنا ربكم الأعلى» وجهلوا أن الحاكم ليس إلا رجلاً من الأمة وأن الحاكمية ما زادت في فضائله ولا منحته قوة فوق القوى البشرية بل ربما أفسدت أخلاقه وأسقمت مداركه (كما شوهد في البعض) والصواب أن إصلاح الأمة لا يكون من الحاكم. نعم إن الحاكم إذا ساعده يكون أسرع سيراً وأقرب نجاحاً. ثم انبرى آخر للمجاوبة وقال:

إن الطريق الوحيد لإنهاض الأمة من ضعفها وإقالة عثرتها وإقامتها في مصاف الأمم القوية إنما هو تسليم أزمة أمورها الكلية إلى رجال من ساسة تلك الأمم يقيمون فيها القسط ويرفعون لواء العدل والمساواة ويغلون أيدي المتسلطين عن التعدي ويجتثون شجرة الرشوة الخبيثة من أصولها ويعممون

فيها الأمن وينشئون المعامل والمصانع ويسهلون الطرقات ويقربون الأبعاد بما يمدون من السكك الحديدية وأسلاك التلغراف والتليفون ويوسعون دائرة الاكتساب بإنشاء الشركات المالية التي هي أسس جميع أنواع التقدم من زراعة وصناعة وتجارة وينشرون المعارف الصحيحة التي لا توجد إلا في لغاتهم فلا يمضي على الأمة أربعون سنة حتى تنشأ خلقاً جديداً.

فقال السائل وقد اضطربت نفسه وانفعلت روحه وتبيَّغ دمه حتى كان يتفصد من وجهه

إذا استشفيت من داء بداء   فأقتل ما أعلّك ما شفاكا

لقد أخطأ ظنك يا أخي واستحوذ عليك شيطان الوهم ولقد نثرت الملح على جرحي بجوابك هذا. أما علمت أن ساسة تلك الأمم الذين أشرت إلى تسليم كليات الأمور إليهم قد تربوا في بلادهم على حب أوطانهم ووقف حياتهم على نفع أمتهم وقد تطبعوا على ذلك عملاً فصار ملكة راسخة في نفوسهم تصدر عنها جميع حركاتهم وسكناتهم من غير رويّة ولا تكلف. وأن جميع ما يبرز من أعمالهم مفيداً للأمة التي يتولون إصلاحها في الظاهر لا بد أن يكون في باطنه منفعة لأمتهم فإن المنفعة هي القطب الذي تدور عليه رحى أعمالهم فلا ينشرون من المعارف في البلاد إلا ما يشرب القلوب حبهم واعتقاد عظمتهم ويفسد على الأهلين لغتهم وعوائدهم وتقاليدهم التي كانوا بها أمة ممتازة عن غيرها مستقلة في وجودها.

ولا يوسعون دائرة الكسب إلا للعارفين بأساليبه من أبناء طينتهم فتسهيل طرق الثروة حسّية ومعنوية، وتعميم الأمن والضرب على أيدي المتسلطين كل ذلك وسيلة لتمكنهم في الأرض وسد أثباج الثروة عن أبناء الوطن وتحويل تلك الأثباج والمجاري إلى الآخرين.

نعم إن الوطنيين يتمتعون منها بقليل من الراحة التي تزيد في كسلهم وتقاعدهم حتى يؤول الأمر إلى امتلاك الاغيار لأراضيهم الواسعة ويتخذونهم أجراء ومزارعين فيعلمون كيف دس لهم السم في الدسم حين لا ينفعهم العلم. سألت عما ينهض بالأمم، فأجبتني بما يقذفها في تيهور العدم ويهبط بها إلى أسفل سافلين.

ثم تصدى للجواب رجل ثالث فقال إن الجرائد الحرة هي التي تنبه أفكار الأمة وتنير عقولها بنشر المعارف وترشدها إلى التحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل وتدلها على أساليب المدنية وتزعجها إلى العمل بها تارة بالترغيب والتنشيط وطوراً بالترهيب والتحذير من عواقب التفريط وتحرك من نفوسها كوامن الغيرة التي تدعو إلى المنافسة والمباراة إلى غير ذلك من الفوائد التي لا تعزب عن علمكم.

فقال السائل إن الجرائد وإن كان لها الشأن العظيم عند الأمم الممدنة والأثر المشهود في سير مدنيّتهم التي تعتبر الجرائد كالحدأة له إلا أنها ليست هي الموجدة لتلك المدنية. فإذا لم يوجد في الأمة سير إلى المدنية الفاضلة فلماذا يكون الحداء. نعم ينبغي أن تنشأ عندنا جرائد لأجل الحثّ على الاجتماع وتعيين الغاية التي ينبغي أن تقصد والوجهة التي يجب أن تولى، ثم الحث على السير إلى تلك الغاية في الطرق الطبيعية التي سنّها الله تعالى لها وهدانا إلى سلوكها ثم الحداء الذي يسهل على السائرين احتمال المتاعب وقطع المسافة مع النشاط والارتياح.

ولا أقول إن الجرائد هي المصلحة لحال الأمة بل هي مساعدة على الإصلاح إذا صدقت وأخلصت وأفضل عملها إيصال أفكار الطبقة العاقلة من الأمة إلى سائر الطبقات تحت مبدأ واحد شريف فإنما المدار على الوحدة كما أشرنا أولاً.

ثم التفت إلى القوم فقال هل بقي عندكم شيء من الأجوبة فأجابوا بلسان واحد لا وإننا نطلب الجواب من حضرة السائل الحكيم.

فقال إن الجواب الصحيح الذي قلت إنه وسيلة لسعادة الأمة تجمع كل الوسائل وسبب يرجع إليه جميع الأسباب هو «تعميم التربية والتعليم» وهذا اللفظ تلوكه الألسنة كثيراً إلا أن معناه لم يعط حقه من التبصر والتأمل. فإن كنتم في ريب مما قلت فإنني مستعد لإقناعكم. وإن أذعنتم ولم توجهوا كل قواكم العقلية والمالية للحصول على هذه الرغيبة فأنتم العاملون على ضياع أوطانكم وخائنون أمتكم وملتكم.

التشبه والاقتداء[1]

يعلم الناظرون فيما نكتب أن التشبه بالأوربيين في أزيائهم وعاداتهم قد جرى في الشرق جريان الدم في العروق، فأبناء الدنيا يرون في ذلك شرفاً ورفعة، والمنتصرون للدين يرونه ذنباً وبدعة، وغلوا في ذلك حتى ذموا تقليد المخالف في كل شيء وإن كان نافعاً مفيداً، ولكن لما كان الأمراء والكبراء يتفاخرون ويتبارون في التشبه بالإفرنج وهم موضع إجلال الدهماء وتعظيمهم – صار سائر الناس يقلدهم في ذلك، لأن ناموس التقليد مطرد باحتذاء لهازم الناس وأدنائهم، مثال عليتهم وكبرائهم، وسرت العدوى في ذلك لبيوت العلماء ورجال الدين، وقد ذكرنا في كتابنا (الحكمة الشرعية في محاكمة القادرية والرفاعية) جملة مسهبة في التقليد والتشبه، بينا حكمه من الجهة الدينية والسياسية، وإننا نذكر هنا نبذة منها تتعلق بأصول سياستنا لمناسبة ما مر وهي:

إذا نظرنا إلى التقليد والتشبه من طرف السياسة تجلى لنا أن الصواب امتناع أمتنا عن التشبه أو التقليد لغيرها من الأمم في الأزياء والعادات وكل ما لا فائدة فيه لا سيما المناصبين والمحادين لنا والانتداب لتقليدهم في كل ما يعود علينا بالمنفعة وعلى الخصوص المنافع التي تتعلق بالقوة على التغلب، والدفاع عن الحوزة، وبتوسيع دائرة الثروة، بأن نجتهد بمجاراتهم ومباراتهم بل بمنافستهم ومسابقتهم إلى أصول المنافع ومقدماتها وأسبابها، لا

---

(1) المنار، مجلد ١، جزء ٢٩، طبعة ١٣٢٧ هـ.

أننا نقتصر على اجتلاب نتائج صنائعهم وأعمالهم، كالآلات الحربية والبوارج البحرية، إذ تقليدهم في النتائج باتخاذها منهم واحتذائهم فيها، لا يخرجنا عن كوننا عيالاً عليهم، ولا يرجى أن ندانيهم ونقاربهم فضلاً عن أن نساهمهم ونحاذيهم، فضلاً عن أن نساميهم فنسموهم ونبذّهم (نغلبهم) لا سيما ونحن الآن كما ترى هذاذيك بذاذيك ولا كفران لله.

وأما أخذ العلوم والفنون وأصول الصنائع عنهم فلا محذور وراءه، ولا محظور أمامه، ومن هي في أيديهم الآن من أهل المغرب أخذوها منا فهذبوا ونقحوا واستنبطوا، وكنا أخذناها من غيرنا فهذبناها ونقحنا، نعم لم نصل إلى مداهم وغايتهم التي انتهوا إليها الآن في استثمارها واستدرار ضروع أنعامها، ولا نيأس من روح الله في السبق عند الكرة الأخرى (وتلك الأيام نداولها بين الناس) ولا التفات لسفهاء الأحلام، المستغرقين في أودية الأحلام، حيث يغمزون الناظرين في تلك الفنون ويلمزونهم، ولا شبهة لهم إلا أن من تنقل عنهم ليسوا من المسلمين والخطب سهل، فقد روي عن النبي صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم أنه قال: «الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها». رواه الترمذي عن أبي هريرة، ورواه العسكري عن أنس مرفوعاً بلفظ: «العلم ضالة المؤمن حيث وجدها أخذها». وفي رواية عند القضاعي أنه قال آخر الحديث: «حيثما وجد المؤمن ضالة فليجعلها إليه». وروي عن ابن عمر رضي الله عنه موقوفاً عليه أنه قال: خذ الحكمة ولا يضرك من أي وعاء خرجت.

وفي نهج البلاغة أن أمير المؤمنين كرم الله تعالى وجهه قال: «خذ الحكمة أنّى كانت، فهي الحكمة تكون في صدر المنافق فتلجلج من صدره حتى تخرج فتسكن إلى صواحبها في صدر المؤمن». وقال أيضاً «الحكمة ضالة المؤمن فخذ الحكمة ولو من أهل النفاق» واستدل بعض أهل العلم على مشروعية

طلب العلم من أي طريق كان، بحديث (اطلبوا العلم ولو بالصين) في زمن لم يكن يسكن الصين فيه غير أصناف المجوس، والحديث أخرجه ابن عدي في الكامل والبيهقي في شعب الإيمان والمدخل وابن عبد البر في العلم والخطيب في الرحلة والديلمي في مسند الفردوس وغيرهم، وله طرق كثيرة يقوي بعضها بعضاً. ولا غرو فإن شرعاً أساسه الحكمة، ودعامته الفضيلة، وغايته سعادة الدارين والظفر بالحسنيين - يأمر بسلوك الجادة، وعدم الاستنكاف عن الاستفادة، وهذه كتب أعلام الملة في تفسير الكتاب الكريم وشرح الحديث الشريف والتصوف والأدب والتاريخ محشوة بكلام حكماء اليونان الذين نقلت علومهم إلى الأمة، وحكماء الفرس الذين خالط أمتهم العرب، وبحكايات أحوال عباد بني إسرائيل ورهبان النصارى ما استحسن منها (بل وما لم يستحسن لكنه لا حجة في هذا).

ولقد كان الشارع صلى الله عليه وسلم يعجبه كلام بعض المشركين ويعجب به، وكثيراً ما كان يستنشد شعر أمية بن أبي الصلت ويستزيد حتى أنشد مرة مائة قافية. أخرج مسلم عن عمرو بن الشريد عن أبيه قال ردفت النبي صلى الله عليه وسلم فقال «هل معك من شعر أمية شيء؟» قلت نعم، قال هيه، فأنشدته بيتاً فقال هيه حتى أنشدته مائة بيت فقال (إن كاد ليسلم). ولو أردنا الإطالة لأوردنا ما لا يحصى من النصوص على لزوم الأخذ بهذه الفنون التي هي مبدأ الصنائع. ناهيك أن الركن الركين للمحافظة على الدين ونشر تعاليمه الصحيحة بين المخالفين هو الجهاد وهو يتوقف في هذا العصر على الفنون المذكورة وما لا يتم الواجب المطلق إلا به فهو واجب. ولكن الجهل الذي عم في هذا الزمان وطم، والإغراق في التعصب على المخالف من غير روية ولا فهم، وعدم معرفة مقاصد الشرع، وانتفاء الوقوف على طرائق الضر والنفع - يحمل كل ذلك الغوغاء من أبناء هاته الأيام،

على رشق من ينسب لحكماء الفرنجة علماً أو فهماً بسهام الملام، وربما طعنوا في دينه وهم ليسوا في ذلك على دين، ولا تنهض لهم حجج قيمة ولا يأتون بسلطان مبين «فلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها!! فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور».

وحاصل القول أن جملة ما يتأتى به التقليد والاحتذاء ينحصر في ثلاثة أمور (الأول) الفنون والصنائع المفيدة وهذا ربما يصل طلب التقليد فيه إلى الوجوب الشرعي وذلك كالفنون التي تتعلق بالقوى الحربية والصحة الجسدية وسائر ما لا يستغني عنه العمران، ولا وصول إليها أولاً إلا بالتقليد والاقتباس. (الثاني) ما لا نقع فيه ولا ضرر منه والأولى تركه وإن كان مباحاً وإن لم يكن بد من فعله فينبغي أن لا يلاحظ التشبه بهم ولا يتوخى احتذاؤهم فيه. (الثالث) ما فيه ضرر لنا والحكم الشرعي في إتيان المضرات المحققة الحرمة، والمظنونة الكراهة. وهناك شبهات يخشى ضررها ولا يرجى نفعها، وربما لا يظهر ضررها إلا باستعمال السواد الأعظم لها، لا الآحاد والعشرات مثلاً، أعني بهذا التهافت على استعمال أدوات الزينة والترف الغالية الأثمان وهم في كل آونة يخترعون لنا زيًّا، ويبتدعون لنا طرزاً جديداً، يبطلون به ما سبقه ونحن نتلو تلوهم ونحتذي شاكلتهم. يتخذ ذلك أولاً المتطرسون المتطرزون في الملبس والمآكل والمشرب، من أهل النفع والثراء للزينة والتفاخر والتكاثر والخيلاء، فتتسع به دائرة السرف والترف ويسري سمه في روح الأمة فيهب المعوزون للتقليد وتجنح نفوسهم للإفناق، «التنعم بعد البؤس» وتعدم الصبر على حالة الإملاق، لا سيما أرباب المظاهر الذين منحهم صنفهم نظر الاعتبار، وحالتهم في الاشتهار، لا تساعدهم عليها حالتهم في الدينار، فتسقم العواطف الشريفة، وتفسد السرائر والضمائر الصادقة، وتعتل الأفكار الصحيحة، وتغلب على أفراد

الأمة الأثرة، ويستحوذ عليهم الضعف ويكون مآلهم شر مآل.

من نواميس الكون وسنة الله تعالى في الخلق أن الاسترسال في الترف والتوغل في الرفه والانغماس في النعم مبدأ لانحلال الأمم، وعلة لسقوطها في هاوية العدم، إذا لم يقترن ذلك بعلم وتربية يكونان علاجاً لأبنائها، يقيهم أمراض تلك الصفات وأدواءها، ولقد كان سلف الأمة الذين تنجلي بهديهم كل غمة متيقظين لعلل الترف وأدوائه، محذرين من فتنته وبلائه.

هل أتاك حديث عمر بن الخطاب إذ كتب إلى عتبة بن فرقد الذي أمّره على جيش العجم «يا عتبة بن فرقد إنه ليس من كدك ولا من كد أبيك ولا من كد أمك فأشبع المسلمين في رحالهم مما تشبع منه في رحلك (أنظر كيف أمره بمساواة الجيش وهو أميره) وإياكم والتنعم وزي أهل الشرك ولبوس الحرير فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن لبوس الحرير قال: إلا هكذا ورفع لنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إصبعيه» رواه مسلم. قال الإمام النووي وقد جاء في هذا الحديث زيادة في مسند أبي عوانة الإسفرايني بإسناد صحيح قال «أما بعد فاتّزروا وارتدوا وألقوا الخفاف والسراويلات وعليكم بلباس أبيكم إسماعيل وإياكم والتنعم وزي الأعاجم وعليكم بالشمس فإنها حمام العرب وتمعددوا واخشوشنوا واقطعوا الركب وابرزوا وارموا الأغراض». قال النووي ومقصود عمر رضي الله تعالى عنه حثهم على خشونة العيش وصلابتهم في ذلك ومحافظتهم على طريقة العرب في ذلك اهـ.

قلت يعني أنه خشي أن يضعفوا عن الجهاد إذا هم أخلدوا إلى التنعم الذي يستدعي حب الراحة لا أن كل واحدة من هذه الأشياء التي نهاهم عنها محرمة أو مكروهة لكونها من زي العجم، كيف وقد كان النبي

وأصحابه يلبسون الطيالسة الكسروية وغيرها من لبوس العجم حيث كانوا في مأمن من الاستغراق في الترف الذي خشيه عمر على جيشه بسبب مخالطة الأعاجم والاستئناس بأزيائهم وأحوالهم الذي ينتجه تكرار النظر. ومما نهاهم عنه الخف والسراويل وكانوا يلبسونها في الحجاز بلا نكير.

باب ردّ الشبهات عن الإسلام[1]

السلطتان الدينية والمدنية

نحن المسلمين نعتقد أن دين الله تعالى واحد في جوهره وأن البيان والهدى فيه إنما اختلف باختلاف الأزمنة وأن الناس كانوا في كل زمان يأخذون من هداية الدين بقدر استعدادهم. وأن حالة الاجتماع في الأمم السابقة كانت قاضية بإضاعة كتب الدين كلها أو بعضها إذا طال الأمد على من جاء بها وأن أقرب الملل ظهوراً من الإسلام لم تسلم من هذه الإضاعة وأن الإسلام هو الدين الوحيد الذي حفظ كتابه كله وظهر في وقت ارتقت فيه حالة الاجتماع حتى يمكننا أن نحكم بأنه لم تتلاش ثمرة من ثمار العقول بعد الإسلام ولن تتلاشى فهو مبدأ تاريخ جديد في البشر.

قلنا إن أقرب الملل زمناً من الإسلام لم تسلم من الضياع، وظاهر أننا نعني اليهودية والنصرانية، فكل من الفريقين قد فقد السند المتصل لكتبه المقدسة فهو غير موجود قولاً ولا كتابة. وهذا هو المراد بقوله تعالى فيهم «أوتوا نصيباً من الكتاب» وقوله عز وجل في كل منها «فنسوا حظّاً مما ذُكِّروا به» والحظ بمعنى النصيب أي أنهم حفظوا بعض ما أوتوه ونسوا بعضه. ومتى ذهب بعض الدين صار الباقي غير موثوق به وإن سلم من التحريف فيه والإضافة إليه فكيف إذا لم يسلم؟ وقد أنزل الله تعالى القرآن

(١) المنار، جزء ٢٢، مجلد ٥، ص ٨٤١ – ٨٥٩، (١٤ شباط ١٩٠٣).

(مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه) والمراد بالكتاب الجنس والمهيمن المراقب الذي عنده نبأ ما يراقبه فما صدقه القرآن من تلك الكتب فهو من النصيب الذي أوتوه، وما أخبر به وليس موجوداً فهو من الحظ الذي نسوه، وما كذبه فهو مما زادوه وأضافوه، فهو الحكم العدل، وإنه لقول فَصْلٌ وما هو بالهزل.

وكان الواجب أن يحكموه فيما شَجَرَ، وينتهوا عما نهى ويأتمروا بما أمر، وكذلك فعل الموفقون، وصدّ عنه الآخرون، والسبب في الصدود هو السلطة الدينية التي جعل ذووها الدين لمصلحتهم تقليدياً محضاً عقود عقائده بأيدي الرؤساء مثل الأحبار والأساقفة يقلدونها الناس ويحمونهم سواها وينشّؤن الأحداث، من الذكران والإناث، على اعتقاد وجوب التسليم لهم، والرجوع في كل أمر الدين إليهم، ولا يزال أثر هذه التنشئة ظاهراً فيمن يتربى في مدارس القسيسين، فتراه يناظرك في المسألة فإذا قامت عليه حجتك قال إن هذا الذي تقول، ظاهر في نفسه ومعقول، ولكنه من أمر الدين، والقسيس يقول بخلافه ولا قول في الدين إلا ما يقول القسيس ولا يشترط أن يكون قوله معقولاً ولا مفهوماً!

فإذا قال النصراني إن السلطة الدينية مثار التعصب الذميم، ومبعث العداوة والبغضاء بين الجيران والأقربين، والحجاب دون المساواة بين أهل الوطن الواحد في الحقوق، والقيد الذي تقيد به الإرادة والعزيمة، والغل الذي يغلّل به العقل والفكر، فالمسلم يصدقه ولا ينازعه، يصدقه حامداً لله تعالى أن ليس في دينه طائفة جعل لها الإسلام حق السيطرة على العقول والأرواح، تودع فيها ما تشاء وتحرمها مما تشاء وتتصرف في المسلمين باسم الدين كما تشاء. ثم يلتفت فيرى أن المسلمين الذين قلّدوا الرؤساء الروحيين عند النصارى لم يبلغوا أن صار لهم سلطة حقيقية منتظمة يحاسبون بها

الأفكار على خواطرها والعقول على معارفها، بل هؤلاء هم الذين كانوا يتسامحون مع الفكر والخيال ما لا يتسامح غيرهم ويعدون كل معرفة تقرب من الله تعالى، لأنهم يقولون: إن لله طرائق، بعدد أنفاس الخلائق،: ثم يلتفت من جانب آخر فيرى أن هؤلاء المقلدين في السلطان الروحاني لا تعظم سلطتهم إلا حيث يصغر العلم بالدين، ولا يقوى نفوذهم إلا حيث يضعف نفوذ الحكم الإسلامي، وما عزّ لهم سلطان في مكان، إلا وكان وبالاً على المسلمين والإسلام، فإن كنت نسيت حوادث مهدي السودان، فأمامك حادثة خارجيّ مراكش الآن.

للعلماء والعقلاء والكتاب والخطباء أن يقولوا في السلطة الدينية النصرانية ما شاءوا، ولهم أن يسعوا في فصلها وإبعادها عن السلطة المدنية ما استطاعوا، فإنها سلطة كانت ولا تزال ضارة حيث وجدت وتوجد وكان معظم ضررها أيام كانت مقرونة بالسلطة المدنية. لهم أن يسموها سلطة فإن لها في كل مملكة رئيساً عامًّا يولي سائر الرؤساء في المملكة، وهؤلاء الرؤساء الذين هم أركان سلطته منبثون في كل مدينة وفي كل قرية، ولا يوجد حكام مدنيون في جميع القرى والمزارع كما يوجد هؤلاء الحكام الروحانيون. ولهم أن يقاووا هذه الحكومة ويقاوموها، ولهم أن يخضدوا من شوكتها، ويضعفوا من صولتها، ولهم أن يقولوا إنه لولا فصلها عن السلطة المدنية، لما تنسمنا نسيم الحرية؛ ولهم أن يعذروا الأمة الفرنسية؛ إذا حاولت اصطلام هذه السلطة بالكلية؛ المسلم يعذرهم في كل هذا لأنه من الإصلاح الذي جاء به الإسلام كما ألمعنا في صدر هذا المقال فمن لم يأخذه من الإسلام مباشرة فله أن يأخذه من نظام الفطرة إذا هداه العلم إليه، وما الإسلام إلا دين الفطرة الهادي إلى نظامها وسنن الله فيها.

ومن الظلم البين أن يرمى الإسلام نفسه بتقرير السلطة الدينية المعروفة

عند النصارى. والإسلام هو الذي أبطل كل سلطة يكون بها فريق مسيطراً على روح فريق وحاكماً على حريته في غير ما يحرمه الشرع على كل رئيس ومرؤوس أو يطالب به كل رئيس ومرؤوس. إن الذين اتبعوا سنن من قبلهم وقلدوهم في مثل هذا الأمر لم يتقنوا التقليد وكان روح الإسلام مانعاً أن يبلغوا منه كل ما أرادوا. ولكن الإسلام لم يسلم من أعداء يلصقون به كل عيوبهم ويقولون عليه الكذب وهم يعلمون، نعم إنهم يعلمون أنهم يخلقون عليه إفكاً، لأنهم اطلعوا على ما كتبنا وكتب بعض الأئمة في بيان نفي هذه السلطة ثم يفتأون يعيبون الإسلام بها ولهم غرض يرمون إليه وراء تشكيك المسلمين في دينهم وتنفيرهم منه، وقد أشرنا إليه في مقال مضى ووعدنا ببيان الحق فيه كما بيناه في غير ذلك من شكوكهم وشبهاتهم.

شاهد في الموضوع من منار السنة الأولى

صدرنا العدد ٢٢ من منار السنة الأولى بمقالة في (سلطة مشيخة الطريق الروحية) قلنا في أولها: «لقد أتى على الإنسان في طور اجتماعه أدوار؛ ومرت عليه أجيال وأعصار، وهو مغلول الإرادة ومقيد الجوارح بسلطتين عظيمتين قويتين، للقائمين عليهما النفوذ التامّ في أفراده، والتصرّف المطلق في آحاده، وهما سلطة الدين وسلطة السياسة - أو كما يقول أهل العصر - السلطة الروحية والسلطة الزمنية».

ثم قلنا بعد كلام في حال هاتين السلطتين وتأثيرهما وحال الأمة التي تحكم بها ما نصه:

«وبالجملة إن أمة هذا شأنها تكون دائماً متقلقلة كقدح الراكب لا تثبت على حال ولا تستقر على شأن. وجميع ما انتاب الأمم من رفعة وضعة وعلم وجهل وسعادة وشقاء فقد كان مرجعه إلى تصرف الأمراء والحاكمين،

والرؤساء الروحيين، ولقد كان الشر أغلب على الأمم من الخير والشقاء أشمل لها من السعادة، لأن الرئيس الفاضل الحكيم لا يأمن من العثار، وإذا عثر عثرت معه الأمة وهوت، وقد يهدم الرئيس الجاهل الغوي في مدة قليلة، ما بنته الحكماء في الأجيال الطويلة.

ولهذا كانت سعادة البشر موقوفة في نيلها أو كمالها على تحديد القوانين والشرائع الروحية والزمنية (المدنية) وجعل الناس فيها شرعاً (أي سواء) لا مزية لرئيس على مرؤوس إلا بما يمتاز به المرؤوسون بعضهم على بعض وبما لا تقوم الرياسة بدونه كوجوب الطاعة للسلطان ولا طاعة لأحد على أحد فيما وراء الشريعة والقانون. ولكن لم تأت شريعة سماوية ولم يوضع قانون بشري لهذا التحديد والمساواة حتى جاءت الديانة الإسلامية فحدَّدت الشريعتين (المدنية والروحية) معاً وجعلت الناس فيهما سواء لا فضل لأحد على أحد إلا بالعلم والعمل، واقتلعت جذور الطاعة العمياء وبينت أن الدعوة إلى الحق لا تكون إلا بالحجة والبرهان بمثل قوله تعالى (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) فسّر العلماء البصيرة بالحجة الواضحة. وقوله تعالى (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين).

«وبناءً على هذا كان الصحابة يراجعون النبي صلى الله عليه وسلم الرأي قائلين: هل هذا شيء قلته من عندك يا رسول الله أو نزل به وحي؟ فإن قال هو من عندي جاءوا بما عندهم من الرأي وربما رجع النبي إلى رأيهم كما جرى في بعض الغزوات (منها بدر وأحد). وأوقف أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب الإمام عليًّا مع رجل من آحاد يهود للمحاكمة وعاتبه عليٌّ بعد المحاكمة بأنه لم يساو بينه وبين خصمه لأنه كنّاه وسمّى خصمه وفي التكنية تعظيم، وتعظيم أحد الخصمين ولو بمثل هذا منافٍ للعدالة والمساواة. وراجعت امرأةٌ عمر وهو على المنبر فى مسألة تحديد المهر محتجة عليه بآية

(وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً) فقال: أصابت امرأة وأخطأ عمر».

«وأبلغ من هذا أن النبي عليه الصلاة والسلام طعن سواد بن غزية بقدح (سهم لا نصل له ولا ريش) في بطنه وهو مكشوف ليستوي في الصفّ يوم بدر فقال: قد أوجعتني فَأَقِدْني: فكشف له عن بطنه ليقتص منه فطفق يتمسح به وكان ذلك منه توسلاً للتوصل إلى هذا الشرف العظيم. وآذن الناس قبل موته بأن من له حق عنده فليطلبه وإذا كان نحو ضرب فليقتص منه وأذن لرجل أن يضربه حين ادّعى أنه ضربه يوماً فقال الرجل: إنني كنت عاري الكنف أو الظهر: (شك من الراوي) فألقى له الرداء عن عاتقه الشريف وكان شأنه في ذلك شأن سواد بن غزية.

«والنتيجة أن الإسلام قرر العبودية لله وحده والحرية في ضمن دائرة الشريعة والمساواة بين الناس في الحقوق والواجبات وإطلاق الإرادة والفكر من سلطة كل زعيم وسيطرة كل رئيس روحي؛ ومقتضى ذلك أن يكون المسلم عبداً كاملاً لله حرًّا كاملاً بالنسبة لما سواه».

هذا بعض ما قلناه في المسألة من نحو خمس سنين وبعده كلام في سلطة مشيخة الطريق كيف ظهرت وماذا أعقبت.

مجمل الدلائل على نفي السلطة الدينية في الإسلام

(١) أقوى الدلائل على أنه لا سلطة دينية في الإسلام كما في النصرانية تحديد وظيفة الرسول في القرآن بأنه مبلّغ لا مسيطر ولا وكيل ولا جبّار على الناس قال تعالى (إنْ عليكَ إلا البلاغ) وقال عز وجل (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء). قال تبارك شأنه (إنك لا تَهْدي مَن

أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) وقال عز اسمه (وما أنتَ عليهم بجبار) وقال تعالى جده (فذكِّر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر وقال جل جلاله (وما أنت عليهم بوكيل)؛ فأين هذا كله من ملة يدَّعي رؤساؤها أنهم وكلاء الله في الأرض. هل يقاس النقيض على النقيض؟

(٢) سيرة النبي عليه السلام فقد سمعت آنفاً أنه كان يقيد من نفسه ويرجع عن رأيه إلى رأي أصحابه. وأعجب من هذا أنه رجح الرأي الموافق لرأيه في مسألة أسرى بدر وكان الرأي الآخر هو الأصلح فعاتبه الله عتاباً شديداً حتى بكى عليه الصلاة والسلام.

(٣) سيرة الخلفاء الراشدين كما سمعت آنفاً عن عمر ويؤثر مثله عن سائرهم ولم تكن سيرتهم في المساواة وفي تحكيم الأمة بأنفسهم من مزاياهم الشخصية وإنما هو شيء أخذوه من القرآن ومن السيرة النبوية كما علمت وإنما مزيتهم أنهم فهموا الإسلام كله وكانوا أشد من غيرهم غيرة عليه وعملاً به.

(٤) لو كان الإسلام شرع هذه السلطة المعروفة في الملل السابقة عليه من البوذيين والبراهمة والإسرائيليين والنصارى أو أجازها لوجد لها في المسلمين نظام ورؤساء كما وجد عند غيرهم ولكن شيئاً من ذلك لم يوجد وإنما وجدت طائفة تصدت للتربية والإرشاد ثم انقسمت إلى طوائف وجماعات ولم يكن لهم سلطة على أحد وإنما يتبعهم من شاء باختياره ولم يسلموا مع ذلك من رمي الفقهاء لهم بالانحراف عن الدين ومن تفريق الحكام شملهم ولذلك لم يكن لهم ظهور إلا حيث يضعف علم الدين وحكمه كما قلنا آنفاً. وأما لقب « شيخ الإسلام » فهو من اختراع الملوك والأمراء الذين بعدوا عن المظهر الديني فاستعانوا بمن له هذا المظهر لأجل التأثير في نفوس العامة المقلدين.

نعم إن السلطة الدينية وجدت على حقيقتها في طائفة الباطنية ثم وجدت لهذه الطائفة حكومة مدنية في العبيديين (الفاطميين) ولكن مذهب الباطنية ليس من الإسلام في شيء ولذلك لم يستطع العبيديون أن يؤيدوه بسلطتهم تأييداً ظاهراً فيقال إن السلطة الدينية قد اجتمعت مع السلطة المدنية في طائفة تنتمي إلى الإسلام في الجملة. فعلم مما تقدم .أنه ليس في الإسلام سلطة دينية فما هذا الذي يعيب الإسلام به بعض كتاب النصارى وما هذه النصائح التي توجهها تلك الأقلام إلى الأمة الإسلامية لتقنعها بوجوب الفصل بين السلطتين الدينية والمدنية؟ الجواب أن المراد بذلك أن يترك المسلمون شريعتهم كما يعلم من الفصل الآتي.

الشريعة والدين في الإسلام

جرى عرف الكتاب الأوربيين ومن تبعهم من الشرقيين لا سيما كتاب النصارى بأن يطلقوا اسم الدين على ما يتعلق بالاعتقاد بالله وبالوحي وما يعد به من أمور الغيب وما يفرضه من العبادة ويخصوا كلمة الشريعة بما يتعلق بالمعاملات والأحكام القضائية والمدنية والسياسية. وكل باحث في التاريخ من هؤلاء الكتاب يعلم أن الإسلام جاء بدين وشريعة ومن ذلك قول بعضهم: إن محمداً (عليه الصلاة والسلام) كوَّن في عشرين سنة أمة وجاءها بدين وشريعة ولم يتفق لغيره في العالم الجمع بين هذه الأمور الثلاثة: فهؤلاء يعلمون أن الشريعة قسيمة الدين في الإسلام وأن ما يدين به المسلم ربه وما يعامل به الناس كلّه مقتبس من نور واحد وهو نور الوحي الذي أوحاه الله إلى محمد عليه الصلاة والسلام.

لا فرق في الإسلام بين القسم الديني البحت والقسم الشرعي إلا في شيء واحد وهو أن الاعتقاد والعبادة لما كانا لا يختلفان باختلاف الزمان

والمكان وأحوال الأمم وجب الاعتماد فيها على الوحي في الجملة والتفصيل والكليات والجزئيات. وأما المعاملات الدنيوية فلاختلافها باختلاف ما ذكر قد وضع الإسلام لها قواعد كلية وأصولاً عامة وفوض استنباط الجزئيات التي تحدث إلى أولي الأمر العارفين بمقاصد الإسلام وبأصوله العامة وقواعده الكلية فهم يبينون الأحكام بالشورى في كل ما يحدث للناس من المصالح استنباطاً من تلك الأصول والقواعد. قال تعالى (يا أيُّها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) فذكر أولي الأمر بصيغة الجمع. وقال «ولو رَدُّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطون منهم» ذكر أولي الأمر بصيغة الجمع أيضاً وأناط بهم استنباط الحكم الذي يحتاج إليه أو يتنازع فيه.

ثم إن الأحكام الشرعية المنصوصة أو المستنبطة تحتاج إلى منفذين ولا بد أن يكون لهؤلاء رئيس لئلا تكون الأمور فوضى وقد سمي الرئيس الأول في الإسلام بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم خليفة له وسمي من بعده أمير المؤمنين واستمر هذا اللقب. ووظيفة هذا الرئيس حماية الدين وأهله وتنفيذ أحكام شريعته فليس هو مسيطراً على الناس في دينهم ولا مستقلاً بوضع الأحكام الشرعية لهم وإنما هو حافظ للنظام؛ ومنفِّذ للأحكام، وسلطته هذه كما ترى مدنية شورية، لا مطلقة ولا استبدادية؛ ولكن الإسلام أوجب عليه أن يعمل بالشرع وحرَّم عليه أن يكون شارعاً بنفسه وأوجب طاعته بالمعروف، كما أوجب على الأمة إزالة سلطانه إن حملها على غير المشروع؛ فصح بهذا الاعتبار أن يقال إن السلطة المدنية في الإسلام مستندة إلى الدين أو إنها سلطة دينية. ولكن لا يصح أن تشبه بالسلطة الدينية عند غير المسلمين ولا أن يجعل صاحبها جامعاً بين سلطتين إحداهما على الأرواح والعقول والثانية على الأجسام والأعمال.

هذا هو ديننا وهذه هي سلطته فماذا يطالبنا ذلك الكاتب النصراني وبماذا ينصح لنا؟ هو يطالبنا بأن نجعل رئيسنا المدني شارعاً ومنفذاً لما يشرعه لنا من الأحكام وينصح لنا بأن نترك شريعتنا القائمة على أصول ديننا ويزعم أن بناء الشريعة على قواعد الدين وجعل الحكام حماة للدين ومنفذين له هو الذي أزال الدولة العباسية، وفرق شمل الأمة الإسلامية، ومن رأيه أن المسلمين لا ينجحون ولا تقوم لهم قائمة ما دام سلطانهم مكلفاً بالعمل بشريعتهم الدينية وتنفيذها!

لو جمعت كل ما ورد من الكلم في جميع اللغات ليدل على معنى التعجب وأضفت إليه كل أمارات التعجب ودلائله في الحركات والإشارات العضوية والقلمية وقدرت على تصوير جميع انفعالات المتعجبين وتأثراتهم النفسية وألصقت ذلك كله بهذه النصيحة النصرانية للأمة الإسلامية لما وفيت حق البيان في كونها عجيبة غريبة مدهشة للمتعجبين.

شبهات المشكك

(١) يقول هذا الناصح الأمين، أو المشكك في الدين: إن غرض الدين في الأرض مناقض لغرض الحكومة في الأرض، فكيف يجمع الإسلام بين النقيضين؟ ونحن نقول له إن الإسلام جاء للإصلاح في الأرض وكل ما يناقض الإصلاح فهو إفساد تجب إزالته، فالواجب أن يكون غرض الحكومة الإسلامية موافقاً لغرض الدين الإسلامي. ومما لا خلاف فيه بين فقهاء الإسلام أن أحكامه الشرعية كلها مبنية على قاعدة «درء المفاسد وجلب المصالح» فأي حاكم من حكامنا يقدر أن يأتينا بشرع أصلح من هذا الشرع إذا نحن تركناه عملاً بنصيحتك وجعلنا الحاكم هو الشارع؟

(٢) يقول الناصح الأمين؛ أو المشكك في الدين، إن من التناقض بين

وظيفة الدين ووظيفة الحكومة أن الدين وضع قواعد وتقاليد للعقل وطرقاً لسير الفكر فقيد بذلك الحرية العلمية. والحكومة لا تكلف الإنسان بأن يسير في فكره على طريق مخصوص وإنما هي حامية لحرية النفس وما يتبعها من المال والدم والشرف: ونحن نقول إذا كان دينك كذلك فدين الإسلام مناقض له غير مناقض لوظيفة الحكومة التي ذكرتها. وذلك أنه تقرر فيه حرية العقل فلا يخرج المسلم عن حكمه في عقائده (كما بينا ذلك في الجزء الماضي) وتقرر أن أحكامه ترجع إلى خمس قواعد يسمونها الكليات الخمس وقد جمعها صاحب عقيدة الجوهرة بقوله:

وحفظ دين ثم نفس مال نسب   ومثلها عقل وعرض قد وجب

(٣) يقول الناصح الأمين، أو المشكك في الدين؛ يجب أن تكون الحكومة مساوية بين من تحكمهم وإن اختلفت أديانهم وأن تكون حامية لهم على السواء أيضاً، والدين مناقض لها في ذلك. ونحن نقول: إذا كان دينك كذلك فديننا مناقض له لا لما يجب أن تكون عليه الحكومة. وذلك أن المساواة من أصوله وقد أشرنا في الفصل السابق من هذا المقال إلى مساواة عمر بين الإمام عليّ ورجل من آحاد اليهود ومطالبة عليٍّ له بالمساواة في اللقب أيضاً، وهذه مساواة لم تصل إليها حكومة ولن تصل إليها حكومة إلا أن تكون مقيمة للإسلام على حقه. وأما الحماية فمن الأصول المأثورة في ديننا هذه الكلمة الجليلة « وأن نحميهم مما نحمي منه أنفسنا » وهذه الكلمة الفضلى « لهم مالنا وعليهم ما علينا ».

(٤) يقول الناصح الأمين، أو المشكك في الدين: إنه ليس من شأن السلطة الدينية، الدخول في الأمور الدنيوية؛ لأن الأديان شرعت لتدبير الآخرة لا لتدبير الدنيا. ونحن نقول: إذا كان دينك كذلك فديننا ليس كذلك فإنه شرع لبيان مصالح الدارين، والإرشاد إلى طرق السعادتين،

فكيف تحكم على الأديان كافة بما تعتقده في دينك؟ وهل كنت أنت الواضع للأديان كلها فتقول إنني وضعت دين الإسلام هكذا أيضاً وأهله قد زادوا فيه فأنا الآن أطالبهم بالرجوع إلى الأصل؟ إن المسلمين لا يقبلون منك ذلك لأن أئمتهم عرفوا الدين بأنه وضع إلَهي سائق لذوي العقول السليمة باختيارهم إلى ما فيه صلاحهم في الحال؛ وفلاحهم في المآل.

(٥) يقول الناصح الأمين، أو المشكك في الدين؛ إن الجمع بين السلطتين يضعف الأمة ضعفاً مستمراً لأنه يقتضي اضطهاد العقل والذكاء ويعرض الحكومة لثورة الأمة بإغراء عدوٍّ يثيرها عليها ويكون سبب الشقاق الديني بين الطوائف التي تتألف منها الشعوب ويعرض الدين لأكاذيب السياسة ومفاسدها. ونحن نقول إن كل هذا قد وقع في دينه فلا ننكره وإنما ننكر قياس ديننا عليه وهو مباين له. وحسبنا أن الذي وقع عندنا هو نقيض ما وقع عندهم، فإن الحكومة الإسلامية التي يسميها جمعاً بين السلطتين (وقد فهمت معناها) قد أعطت الأمة قوة لم يقاوها فيها أحد في زمنها وما ضعفت الأمة الإسلامية إلا بضعف الشرع وعدم إقامته وهذا أمر لا خلاف فيه. وكذلك لم يضطهد العقل والذكاء في الإسلام في عصر إقامة شريعة الإسلام وإنما وقع شبه اضطهاد بعد ضعف الشرع والتهاون في تنفيذه. أما الثورات التي يخافها الناصح على الحكومات الإسلامية إذا بقيت على شريعتها فهي أجدر بالوقوع إذا خرجت الحكومات عن الشريعة لأن الخروج على السلطان لا يجوز في الإسلام إلا إذا خرج السلطان من الإسلام بترك الشريعة وإذا أخطأ فالواجب أن ترجعه الأمة عن خطئه بالمعروف. قال صاحب عقيدة الجوهرة:

وواجب نصب إمام عدل   بالشرع فاعلم لا بحكم العقل

فليس ركناً يعتقد في الدين　　فلا تحد عن حكمه المبين
إلا بكفر فانبذنّ عهده　　فالله يكفينا أذاه وحده

وأما الشقاق الديني بين الطوائف والملل فلم يعهد في بلاد الإسلام أيام إقامة الشريعة والعمل بها بل كانت الطوائف في هدون وسلام لأن الدين يوجب ذلك وكان معمولاً به. والذي يوجب الشقاق هو جعل الدين مصلحة لرؤساء مخصوصين يناهض كل رئيس بطائفته سائر الطوائف فهو ألصق بالفصل بين السلطتين وجعل كل واحدة مستقلة لها رؤساء يديرونها منه بالجمع بينهما خصوصاً جمع الإسلام بالمعنى المتقدم. وقد ذاقت الأمة النصرانية بأس هذه الرياسة وكانت هي التي ابتدعت الحرب بين طائفتين من أهل دين واحد للخلاف في الدين ولو لم يكن لكل طائفة رؤساء مخصوصون لما وقع شيء من ذلك. وقد سرت عدوى النصرانية إلى غيرها وأصاب المسلمين شرر تلك النيران فحدث بين أصحاب المذاهب شيء من الشقاق لتعصب كل طائفة لإمام مخصوص وعلماء مخصوصين. وقد علمت أن رجال الدين لم تنتظم لهم في المسلمين رياسة لأن طبيعة الإسلام تأبى ذلك ولهذا لم يعظم النفور والشقاق بين أصحاب المذاهب الإسلامية كما عظم بين أرباب المذاهب النصرانية. على أن المذاهب المتعددة في الدين هي مخالفة لوضع الدين لأنها تفرق فيه والله يقول (أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) ويقول (إن الذين فَرَّقوا دينَهم وكانوا شيعاً لستَ منهم في شيء)، ولكن جاءنا من كتاب النصارى في هذا العصر من يقول إن التفرق إلى شيع من طبيعة ديننا ولا علاج لهذا التفرق إلا ترك حكامنا لشريعتنا!

وأما تعريض الدين لأكاذيب السياسة ومفاسدها إذا كانت الشريعة مستمدة من الدين فهو نقيض المعقول وخلاف الواقع فإن السياسة كما قال الكاتب مبنية على الرياء والمخاتلة ولا علاج للرياء إلا الدين وقد شدّد فيه

الإسلام حتى سماه «الشرك الأصغر» فإذا بُنيت السياسة على قاعدة الدين سلمت وسلم معها الدين، وإذا انفصلت من الدين فسدت وأفسدت الدين ولذلك استعاذ منها الإمام كاتب مقالات (الإسلام والنصرانية) بما استعاذ ووصفها بما وصف. وقد قلب الحقيقة الناصح أو المشكك فجعل انفصال الحكومة من الدين هو سبب السلامة!

الوحدة الدينية والوطنية

يقول الناصح الأمين، أو المشكك في الدين، إن الوحدة الدينية التي يطلبها الإسلام مستحيلة الوقوع ومحاولتها كان أكبر أسباب الفتن التي حدثت في الإسلام والمسيحية. ويزعم أن البشر قد ارتقوا عن طلب الوحدة الدينية التي كانت عامة فيهم إلى الوحدة الوطنية وتدرج في البيان إلى ذكر فرنسا التي ارتقت فيها هذه الوحدة الجديدة التي حصر فيها سعادة البشر حتى حكمت بإبطال مدارس الرهبنات وحتى حرمت على رئيسها ذكر اسم الله تعالى أو ذكر العناية الإلَهية في خطبه. وههنا شعر بأن هذا التدرج قد انهار به في هوَّة الباطل فعاد يعترض على هذه «الطريقة الجديدة» ويذكر من مفاسدها. وهكذا شأن من يهرف بما لا يعرف. وقد استدل على استحالة الوحدة الدينية بما كان في أوربا من المفاسد والفتن بسببها وبعدم نجاح البابا فيها وبسعادة أوربا بعد إقامة السد بينه وبين الأحكام. ثم جرى على عادته في تشبيه الإسلام بالنصرانية فزعم أن الذي أسقط دولة بني العباس هو عجزهم عن حفظ المملكة بالوحدة الدينية وعدم اهتدائهم إلى الوحدة الوطنيـة! سبحان الله ما أعلم هذا الكاتب بالتاريخ وما أقدره على استخراج طبائع الملل منه!

خبرونا أيها المؤرخون والمطلعون على كتب التاريخ أيّ مؤرخ قال إن

سبب سقوط بني العباس هو حكمهم بالشريعة الإسلامية، أو قال إن أصحاب الملل المختلفة في بلادهم كانوا ساخطين على الحكم بالشريعة وطالبين أن تستبدل بها قوانين غيرها يضعها الحكام أو المحكومون وأنهم لذلك ثاروا على الدولة حتى أسقطوها بالحروب الأهلية التي مثارها التعصبات الدينية؟ لم يقل بذلك عالم ولا جاهل وإنما هو زعم افتحره وافتجره واخترعه وابتدعه ناصح المسلمين الأمين أو مشككهم في الدين.

لسقوط دولة العباسيين أسباب أهمها: أمران ذكرهما مؤرخ الدولة العثمانية الأكبر جودت باشا ناظر العدلية (رحمه الله تعالى) قال بعد ما ذكر فضل المأمون في ترويج العلوم وتوسيع نطاق المدنية ما تعريبه «إلا أنه أخطأ خطأ بينا في أمر يتعلق بتدبير المملكة وهو أنه أعطى ولاية خراسان لرجل يسمى طاهراً مكافأة له على قتل أخيه الأمين فاتخذ نيسابور عاصمة لها وجعلها موروثة له ولأعقابه من بعده، فكان ذلك باعثاً على إزالة رهبة الخلافة من صدور العمال، وسبباً في الخروج عن الطاعة والنزوع إلى الاستقلال، ثم جاء بعده الخليفة المعتصم فجمع بعض الأحداث من الترك وجعلهم عسكراً خاصاً به، ولما اشتد ساعدهم خرجوا عن طاعته وأحدثوا ثورات هائلة كما وقع قديماً في عسكر قياصرة رومية».

وظاهر أن ما عمله المأمون مخالف للشريعة الإسلامية ومناف للوحدة الدينية. وأن ما عمله المعتصم كان لإخلاله بأصول الأحكام الإسلامية من الشورى وكفالة الأمة للإمام والتحري في اتخاذ البطانة فقد قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودُّوا ما عَنِتُّم) الآية. وللمفسرين وجهان في قوله «من دونكم» قيل هم المنافقون وقيل الكافرون. وكان أولئك الأحداث أحد الفريقين فإنهم اتخذوا بطانة ولمّا يدخل الإيمان في قلوبهم كما علم من مقالات (الإسلام والنصرانية) وقد تحقق

فيهم قوله تعالى (لا يألونكم خَبَالاً ودّوا ما عنتم) ولكنّ ناصحنا الأمين حرف قول الإمام في هذا المقام إلى فتنة سياسية فزعم أن مراده الحكم بأن الترك والفرس لا يعتدُّ بإسلامهم وأن الدين خاصّ بالعرب أي أنه لا يعتد بإسلام مثل البخاري ومسلم وأبي حنيفة والغزالي الخ!!! نعوذ بالله نعوذ بالله.

يا حسرة على أعداء الشريعة الإسلامية التمسوا لها عيباً فيها فأعياهم وأعوزهم، فالتمسوه في المقيمين لها (كأبي بكر وعمر) فأعياهم وأعجزهم؛ فنقبوا عنه فيمن انحرفوا عن صراطها فنكبوا فأصابوه وألصقوه بها وقالوا إنها شريعة ضارة يجب تركها واختراع شريعة بدلها!

كانت رابطة الوحدة في الاجتماع البشري محصورة في البيوت (العائلات) ثم اتسعت فصارت في القبائل ثم اتسعت بناموس الترقي فكانت الشعوب والأمم الكبيرة التي وحدتها الجنسية باللغة أو الدين أو البلاد (الوطن) وكان الدين خاصاً لا يتعدى الشعب الذي وجد فيه إلى أن ظهر الإسلام فإن في الأناجيل المعتمدة عند النصارى إلى اليوم أن المسيح عليه الصلاة والسلام قال: «لم أرسل إلا إلى خراف إسرائيل الضالة» وقال «ما جئت لأنقض الناموس وإنما جئت لأتمم» والناموس هو شرع الإسرائيليين الخاصّ بهم وتتميمه ببيان الحق فيما اختلفوا فيه منه وفي بيان أسراره والتوسع في القسم الروحاني منه. وأما ما ينقلونه عنه من أنه قال «اكرزوا بالإنجيل في الخليقة كلها» فهو مخالف لما تقدم في الظاهر ويمكن أن يتفق معه بجعل (أل) في الخليقة للعهد أي الخليقة المعهودة وهي الأمة الإسرائيلية حيث كانت وأين وجدت.

بعد هذا استعدَّ البشر بناموس الارتقاء إلى وحدة أوسع من كل ما تقدم – إلى وحدة يمكن أن تدخل فيها جميع الشعوب والقبائل والأمم

والأجناس المختلفين في البلاد واللغات والأديان - إلى وحدة لها رابطتان (إحداهما) جثمانية اجتماعية عمرانية دنيوية وهي أن يُحْكَمُوا بشريعة عادلة تساوي بينهم في الحقوق، لا يمتاز فيها كبير على صغير ولا غنيّ على فقير، ولا عربي على عجمي، ولا متدين بدين على متدين بغيره (وثانيتهما) روحانية أخوية أخروية تختص بمن يجمعهم الاعتقاد الصحيح، المبني على البرهان الصريح، وهذه الوحدة هي الوحدة التي جاء بها الدين الإسلامي وعمل بها المسلمون في الصدر الأول فكان المخالفون لهم في الدين يفضلون حكمهم على حكم المتحدين معهم في الدين واللغة والوطن. ولم توجد المساواة ولا العدالة الصحيحة إلى اليوم إلا في الإسلام فهذه الدول الأوربية الراقية بالوطنية لا تساوي بين أبنائها وأهل مستعمراتها في الأحكام، بل ألزمت الحكومات الضعيفة في غير بلادها بالخروج عن العدل والمساواة وتمييز أجناسها على رعايا كلّ حكومة من تلك الحكومات؛ فالمصري يُقتل في مصر إذا قتل أجنبياً ولكن الأجنبي لا يقتل بالمصري. وقد كنا أوضحنا هذا المبحث في مقالة عنوانها (الجنسية والدين الإسلامي) فلتراجع في المجلد الثاني من المنار. وفي سائر مجلدات المنار مباحث كثيرة تؤيد هذه المسائل المتفرقة وتعضد القضايا المتعددة في هذا المقال.

فتبين بمجموع ما تقدم أن الوحدة التي جاء بها الإسلام هي أعلى ما يترقبه البشر وأفضل ما يتوجهون إليه، ولكن الرياسة الروحية في الديانة النصرانية التي جعلت الدين مصلحة من المصالح ينتفع بها الرؤساء وخروج الحكام المنتسبين للإسلام عن قواعدها هما السدان المانعان من انتفاع البشر بها وستدكُّ الحرية السدين، ويجمع البشر بالإسلام بين السعادتين.

تأسيس حكومة مكّة وخطبة منى[١]

(...) وكان رأيي في مسألة الخلافة هو ما قيل لي في هذه الليلة عن رأي الأمير دون من حوله، وقد أكبرته لذلك، وكان أعجبني من منشوريه الأولين جعل عداوته لفئة الاتحاديين المتغلبة لا للشعب التركي ولا للدولة العثمانية أيضاً - وكذلك كانت الثورة في أول عهدها - وكنت أرى أن مبارزته العداوة للفئة المتغلبة قد يقف بغي زعمائها على العرب عند حد ما اجترح جمال باشا من الموبقات التي هي شر لدولته وكذا لجمعيته لا خير لها كما توهم، وأن نفع الحركة الحجازية، محصور في هذه الفائدة المرجوة، وفي إغاثة جيران بيت الله من المجاعة والهلكة المخيفة، وفي الاحتياط لما يجب إذا سقطت الدولة. وأرى أنه يجب السعي لتحقيق ذلك بدون ارتكاب إثم يربي شره على خيره، وكنت أشرت إلى رأيي هذا وإلى حسن ظني في الأمير الشريف في مقال المحاورة الذي نشر في المنار قبل الحج وقبل العزم عليه.

ذلك ما بت أفكر فيه، ولما أصبحنا أسرع الناس إلى مكان الاحتفال مشرقين، وتأخرت إلى الضحوة الكبرى فألقيت سرادق الإمارة غاصًّا بالناس وكذا الفجوة التي أمامه، ولو لم يرني بعض من يعرفني هنالك لما تيسر لي اختراق ذلك الجمع الكثيف، والنفوذ إلى المجلس الهاشمي الشريف، ولكن رآني من فرج لي فرجة بين الناس دخلت منها إلى أن بلغت الحلقة الكبيرة وجلست على كرسي أُخلي لي فيها، وكان الناس من مصريين ومكّيين قد

---

(١) المنار، مجلد ٢٠، جزء ٦، ص ٢٨٠ - ٢٨٨ (١١ شباط، ١٩١٨).

شرعوا في إلقاء الخطب والقصائد في التهاني والأدعية، فرأيت أن ألقي خطبة في بيان الحقيقة التي عرفتها بالبحث والاختبار، والآراء التي أنتجتها آراء الناس من الحجازيين والآفاقيين وكنت قد بلوت أخبارهم، واكتنهت معرفتهم وأفكارهم، وأذكر ما لديّ من الرأي في المسألة الحجازية وما يشترط في ذلك بقدر ما يسعه المقام، فلما فرغ من كان يتكلم قبل مجيئي استأذنت فأذن لي فقمت وقلت ما ملخصه كما نشر في جريدة القبلة.

وكل ما يوضع فيها بين الأهلة هكذا ( ) فهو من قبل جريدة القبلة كما هو ظاهر، إلا الآيتين الكريمتين، في أولها، فهما من أصل الخطبة.

خطبتنا السياسية في منى

أيها المسلمون الكرام، من سكان حرم الله وحجاج بيته الحرام، إنكم تعلمون أن الإسلام دين سيادة وسلطة، وأن شريعته أنزلت ليقيم أحكامها أهله، لقوله تعالى (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) على التأويل المشهور للآية، وتعلمون أن الله تعالى قد جعل هذا الدين عربياً إذ أنزل القرآن الذي هو أصله وأساسه باللغة العربية على لسان النبي الأمي العربي محمد صلى الله عليه وآله وسلم. وقد بيَّن الله تعالى ذلك بقوله (وكذلك أنزلناه حكماً عربياً) فهذه الآية أخص من الآيات الناطقة بإنزال القرآن عربياً، لأنها مصرحة بأن حكم هذا الدين عربي، مع العلم بأن كتابه المتعبد به عربي. وهذه البلاد العربية هي مهد هذا الدين ومهبط وحيه ومشرق نوره، وكان أهلها هم السابقين إلى تلقيه والاهتداء به، ثم تبعهم فيه غيرهم من عرب الحجاز فسائر هذه الجزيرة العربية. ثم حمله العرب إلى سائر الأقطار ونشروه فيها، فامتد في الجيل الأول منهم حتى عم نوره الشرق والغرب، وأروا الأمم بإقامة أحكامه من العدل والرحمة ما لم يعرفوا ولم

يسمعوا له نظيراً كما اعترف بذلك المنصفون من الإفرنج وغيرهم.

ثم طرأ الضعف على السلطة الإسلامية بتفرق الوحدة العربية الكافلة لها، وتغلغل الأعاجم في الدول الإسلامية التي تعددت بسبب ضعف سلطة الخلافة. فبعد أن كانت الفتوحات الإسلامية في مد لا جزر معه، صارت دول الطوائف الإسلامية بين مد وجزر، وقوة وضعف، حتى وصلت الدولة العثمانية منها إلى درجة عالية، ومكانة سامية، من القوة الحربية وسعة الفتح والتغلب، فسرّ بها المسلمون ورضي بعض حكامهم المستقلين بسيادتها طوعاً واختياراً، كما دخل بعضهم تحتها اضطراراً، وقد كان أمراء مكة العظام أهل بيت سيدنا هذا (وأشار الخطيب إلى جلالة مولانا الأمير) في مقدمة من أيد هذه الدولة واعترفوا بسلطتها وسيادتها، لأجل جمع كلمة المسلمين بها وإعلاء شأن الشريعة الإسلامية بنفوذها (ههنا قال جلالة سيدنا للخطيب صدقت).

ثم إن هذه الدولة قد سرى إليها الضعف ودب إليها الوهن من زهاء ثلاثة قرون. وإنني أذكر لكم بعض الشواهد على ذلك من تاريخها الرسمي منذ مئة سنة ونيف.

إن محمد علي باشا الذي كان والياً للدولة على مصر قد زحف على سورية ففتحها، ثم على الأناضول فتوغل فيها، ولولا أن الدولة الإنكليزية أكرهته على الرجوع إلى مصر لاستولى على بلاد الدولة كلها. وكان ذلك على عهد السلطان محمود الذي كان يعد مصلحاً في الدولة ومجدداً لها بقضائه على عسكر الانكشارية المختل وإدخاله نظام الجندية الأوربي في الدولة.

تولى السلطان محمود السلطنة في سنة ١٢٢٣ وتوفي سنة ١٢٥٥ فخلفه

السلطان عبد المجيد الذي صرح في خطابه عند إعلان « التنظيمات الخيرية » في كلخانة بأن الضعف والخلل قد طرأ على الدولة منذ ١٥٠ سنة وأنه لا بد من تلافي خطر ذلك بالنظام الذي أعلنه بتدبير أساطين الدولة في عهده. ولكن ذلك النظام لم يعد إلى الدولة قوتها، ولا أنقذها من الخطر الذي كان يخشى عليها. ودليل ذلك أن أركان الدولة قد خلعوا أخاه السلطان عبد العزيز الذي خلفه سنة ١٢٧٧ وقتلوه أو ألجأوه إلى بخع نفسه بيده سنة ١٢٩٣ بحجة أن استبداده كان حائلاً دون إصلاح الدولة وتجديد شبابها. وولوا بعده السلطان مراداً،ولم يلبثوا أن خلعوه في تلك السنة وولوا بعده السلطان عبد الحميد الذي كان عاهدهم على العمل بالقانون الأساسي الذي قلدوا فيه الدول الأوروبية ظناً منهم بأنهم لا يعتزون إلا بما اعتزت به من الحكم النيابي.

وأما سيرة السلطان عبد الحميد فهي معروفة عندكم لأن العهد بها قريب، وقد خلعته جمعية الاتحاد والترقي بقوة جند الدولة واعتقلته، وتولت الجمعية السيطرة على الدولة بعده، فماذا كان من أمرها؟ هل كانت خيراً من أولئك السلاطين العظام الذين لم يقدروا أن يصلحوا ملكهم الذي ورثوه عن آبائهم وأجدادهم؟ كلا إن زعماء هذه الجمعية الذين غلبوا الدولة على أمرها هم أوشاب من المَلاحدة المارقين قد وصلوا إلى ما وصلوا إليه بكيد يهود سلانيك، وشركاؤهم في النمسة وألمانية أقوى أنصارهم، ولذلك نرى أكبر همهم جمع المال. فلا هم على دين هذه الدولة فيغاروا عليه، بل هم يقاومونه ويهدمونه، ولا هم من أصل راسخ فيها فيكونوا أحرص على حياتها من أبناء سلاطينها وأساطينها.

وإذا نظرنا إلى أعمالهم دون عقيدتهم وآرائهم نرى أنهم قد فعلوا في

الدولة من الإفساد والتخريب ما لم يفعله غيرهم فيها منذ أصيبت بالضعف إلى أن أصيبت بهم.

ثبت أنهم أخذوا من مال الدولة لنظارة الحربية خمسين مليون جنيه ليجددوا قوتها العسكرية، ثم رأينا دولة البلغار - التي كانت ولاية من ولايات الدولة ولم يتم لها الاستقلال إلا في عهدهم - قد كسرت جيوش الدولة وكادت مدافعها في شطلجه تمزق مسامع أهل الآستانة. وكان السبب الحسي لذلك قلة ما عند الجيش العثماني من المؤونة والذخيرة والدواب وسائر أسباب الحرب.

وقد خسرت الدولة في عهدهم المشؤوم من الممالك ما لم تخسر مثله في عدة أجيال: خسرت البوسنة والهرسك ببيع الجمعية إياها للنمسة، وطرابلس الغرب وبرقة ببيعها إياها لإيطالية، ومكدونية وألبانية وكريت وجزائر الأرخبيل، ونسكت عما خسرته في هذه الحرب من الولايات - فقد أضاعوا نصف الدولة في بضع سنين، وحملوها فيها من أثقال الديون ما لم تحمل مثله قبلهم في بضعة قرون. ثم عمدوا إلى الأمة، فأفقروها كما أفقروا الدولة. فهذا هو الإصلاح الذي خلعوا لأجل القيام به سلطان الدولة وخليفتها عبد الحميد وحجروا على خلفه من بعده.

فيا أيها المسلمون الغيورون المبصرون! إذا كان قد ثبت من تاريخ الدولة الرسمي بما ذكرته لكم من شواهده أنها كانت ضعيفة يخشى عليها الزوال قبل هذه الأرزاء والمصائب التي منيت بها بشؤم هذه الجمعية، فكيف يكون حالها الآن وقد اصطلت بنار هذه الحرب، وتعرضت لعداوة أكبر دول الأرض؟

إن سواد المسلمين الأعظم يغارون على هذه الدولة ويتمنون لها دوام

الاستقلال وكمال القوة للسبب الذي بيناه في فاتحة الكلام، ولكن يقل في المسلمين من يعرف حقيقة حالها وكنه الخطر الحائق بها. ويقل فيمن يعرف ذلك من يسعى لتدارك ما يترتب على هذا الخطر إذا وقع من فقد الإسلام لما بقي من أحكام شريعته، وحرمان المسلمين من آخر ما كان لهم من الاستقلال السياسي على علاته.

لم نر أحداً من زعماء المسلمين وكبرائهم قدر الحال الخطرة التي وصل إليها الإسلام قدرها وانبرى لتداركها إلا هذا الرجل العظيم – أمير مكة وشريفها – فإنه رأى أن الدولة – وهو من أعلم أهلها بحالها – قد أمست على شفا جرف، وأن ملاحدة الاتحاديين قد اتخذوا الأحكام العرفية والقوة العسكرية ذريعة للتنكيل بالأمة العربية بتقتيل رجال الفكر والعمل ومصادرة أموال أهل الثروة منها حتى لا يبقى فيها رجاء في عامل ولا في عمل، فانتدب لتدارك الخطب ومصارعة الخطر بنفسه الكريمة وأنفس أنجاله النجباء. ولو استطاع أن ينقذ الدولة نفسها من الخطر لفعل، ولو بذل في ذلك دمه ودم هؤلاء الأنجال الكرام (هنا قال الأمير حفظه الله تعالى للخطيب صدقت).

لكن العمل لإنقاذ الدولة نفسها من الخطر قد أصبح فوق طاقته وطاقة غيره (... صدقت) فرأى أن يبدأ بالمستطاع وهو إنقاذ الحجاز مهد الإسلام ومشرق نوره مما نزل به من البلاء والشقاء، ثم إنقاذ غيره مما يمكن إنقاذه من البلاد العربية، ليكون ذلك بيئة لحفظ الاستقلال الإسلامي وعدم زواله بما يخشى ويتوقع أن يحل بالدولة العثمانية والعياذ بالله تعالى (... صدقت).

لا يخفى على ذي بصيرة أن الاتحاديين ما حشروا الألوف من جيوشهم في الحجاز إلا بنية سيئة لأنهم يعلمون كما نعلم أن أعداءهم الحلفاء لا يحاولون الاستيلاء على الحجاز ولا يحاربون أهله، فكان من المعقول أن يرسلوا تلك

الجيوش إلى قتال أعدائهم الروس وإنقاذ ما فتحوه من الولايات التركية، ولكن التنكيل بالعرب أهم عندهم من دفع الروس عن عقر دارهم. ولو تم لهم ما أرادوا لرأينا من فظائعهم في الحجاز ما هو أشد من فظائعهم في الشام (... صدقت).

نعم إن الحلفاء لا يحاربون الحجاز ولكن وجود الجيوش الاتحادية فيه ألجأهم إلى ضرب الحصار البحري على ثغوره فضاقت المعيشة على أهله حتى باعوا حليهم وأثاثهم وأبواب بيوتهم وخشب سقفها، ولو طال عليهم أمد ذلك سنة أخرى لأكلتهم المجاعة وما يتبعها عادة من الأوبئة (... صدقت).

أعلن سيدنا هذا استقلال العرب في الحجاز – والحاجة قد اشتدت إليه حتى وصلت إلى حد الضرورة – وما كان ليوجد في الأمة العربية ولا الأمة الإسلامية كلها من آتاه الله من البصيرة والشجاعة والثقة بالله والتوكل عليه ما ينهض به للقيام بهذا العبء العظيم، ولولا ثقته بالله وتوكله عليه لما تجرأ على ذلك لأننا كلنا نعلم أنه لا يوجد في الحجاز قوة عسكرية ولا ثروة مالية يعتمد عليها في مثل هذا العمل (تصديق..).

كلنا نعلم أنه لا يوجد في الدنيا كلها مكان يصلح لتأسيس دولة إسلامية تخلف الدولة العثمانية إذا وقع بها ما نخشاه عليها إلا جزيرة العرب وما يتصل بها من البلاد العربية لما خص الله تعالى به هذه البقعة وأهلها من الخصائص، ولا يعقل أن يحفظ استقلال الإسلام في مثل بلاد الأفغان إن هو زال من مهده وموطن نشأته ومحل إقامة شعائره. انفردت هذه البقاع الطاهرة المقدسة بأنها أجدر بقاع العالم الإسلامي لإقامة استقلاله. وكذلك انفرد سيدها وأميرها في هذا العصر بالنهوض بما يجب من العمل والاستعداد لتجديد هذا الاستقلال. فكان له بعمله أكبر منة في أعناق

أهل هذه البلاد وفي أعناق جميع المسلمين الذين يشعرون بأن أمر هذا الاستقلال هو أهم المصالح العامة الدينية والاجتماعية. ولكن منهم من فقد هذا الشعور.

أيها الحجازيون إن من يكفر منكم لهذا الرجل المصلح المنقذ هذه النعمة فهو أكفر الناس للنعم. أيها المسلمون يجب أن تعلموا أن هذا العمل أعظم خدمة للإسلام في هذا الزمن. فإن الدولة العثمانية إن سلمت من السقوط وحفظ استقلالها لم يكن استقلال العرب في الحجاز وغيره مانعاً من ذلك ولا من تعاضد العرب والترك مع حفظ حقوق كل منهم. وإن سقطت وفقدت استقلالها لم يكن هذا الاستقلال هو السبب فيه ولكنه يكون سبباً لحفظ استقلال الحكم الإسلامي في أشرف بقاع الإسلام، بل لا يغيب عن أذهانكم أنه لولا إعلان هذا الاستقلال لترتب على سقوط الدولة العثمانية وقوع حرم الله تعالى وحرم رسوله صلى الله عليه وسلم غنيمة في أيدي الدول الفاتحة. فإن تركوهما بعد ذلك لنا كان لهم منة التصدق بها علينا. وإلا كانا تحت سيادتهم والعياذ بالله تعالى. وبهذا يتبين لكم أن هذا العمل العظيم، الذي قام به هذا الزعيم العظيم، قد أنقذ الحرمين الشريفين وما حولها من هذا الخطر الجسيم، ووضع أقوى أساس لحفظ الاستقلال الإسلامي بإنشاء دولة جديدة له. فله بهذا أكبر منة على جميع المسلمين. وما أقول هذا تملّقاً له ولا مدحاً شعريًّا، وإنما هو الحقيقة البيضاء بَيّنْتها لكم، بالإيجاز الذي يحتمله المقام والسلام.

المسألة العربية[1]

مقالة للتاريخ

إنني عربي مسلم أو مسلم عربي، فأنا قرشي علوي، من ذرية محمد النبي العربي، الذي ينتهي نسبه الشريف إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، وملته الحنيفية هي ملة جده إبراهيم، أساسها التوحيد الخالص وإسلام الوجه لله تعالى وحده، (٢: ١٣٠ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه - اقرأ الآيات إلى قوله - ونحن له مسلمون) فإسلامي مقارن في التاريخ لعربيتي - وإن من الناس من هو أقدم نسباً في الإسلام، ومن هو أقدم نسباً في العربية، وهم من عداد الإسماعيليين من متقدمي العرب ومتأخريهم، وأما الإسماعيليون منهم فتاريخ عربيتهم وإسلامهم واحد إذ كان أول أب لهم في العرب مسلماً؛ وقد يقال إن إسلامهم أقدم إذا كان إبراهيم عليه السلام غير معدود من العرب على ما هو المشهور في كتب التاريخ من أن أول العرب المستعربة إسماعيل عليه السلام وكأنهم عدّوه كذلك لأنه ولد في بلاد العرب ونشأ فيها فلم يكن له لسان غير اللسان العربي. ولكن التاريخ يثبت لنا أن أباه إبراهيم عليه السلام كان يتكلم باللغة العربية، كما يؤخذ من التاريخ العربي والتاريخ المستنبط من الآثار القديمة، أما مأخذ ذلك من التاريخ العربي فهو أنه أقام في بلاد العرب زمناً أقام فيه الدين وبنى البيت العتيق

(١) المنار، المجلد ٢٠، جـ١، ص ٣٣ - ٤٧ (٣٠ يونيو (تموز) ١٩١٧).

الذي هو أقدم بيت وضع لعبادة الله وحده في الأرض. فمن البديهي أنه كان يعلمهم الدين بلسانهم ويخاطبهم به، وأما مأخذ ذلك من الآثار القديمة المكتشفة في هذا العصر موضحة للتاريخ القديم فهي أن علماء الآثار بينوا لنا أن مدنية الكلدان كانت عربية وأن (حمورابي) الذي كان ملكهم وصاحب شريعتهم في عهد إبراهيم عليه السلام كان عربياً، وقد اكتشفت شريعته في بلاد العراق منقوشة على عمود من الحجر الأصم فكانت باللغة العربية لذلك الزمان. وقد جاء في سفر التكوين أول أسفار العهد القديم عند أهل الكتاب أن حمورابي هذا كان في زمن إبراهيم، وأنه كان يدعى ملك السلام وكاهن الله العلي؛ وأنه بارك إبراهيم، وأن إبراهيم أعطاه عشراً من كل شيء.

قلت إنني عربي مسلم. فأنا أخ في الدين لألوف من المسلمين من العرب وغير العرب، وأخ في الجنس لألوف الألوف من العرب المسلمين وغير المسلمين. أما دليل الأخوة الدينية فقوله تعالى (إنما المؤمنون إخوة) وأما دليل الأخوة الجنسية فالآيات المتعددة في سورة الأعراف والشعراء المصرحة بكون الأنبياء المرسلين إخوة لأقوامهم المشركين، ولما كان شعيب عليه السلام قد أرسل إلى قومه أهل مدين وإلى أصحاب الأيكة من غير قومه اختلف التعبير عنه، فقد قال تعالى في سورة الأعراف (٧: ٨٤ وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) أي وأرسلنا إلى مدين أخاهم في النسب شعيباً الخ. وقال في سورة الشعراء (٢٦: ١٧٦ كذب أصحاب الأيكة المرسلين ١٧٧ إذ قال لهم شعيب ألا تتقون ١٧٨ إني لكم رسول أمين) ولم يقل أخوهم شعيب كما قال في عاد (أخوهم هود) وفي ثمود (أخوهم صالح) - مثلاً - لأنه لم يكن من جنسهم.

وإنني أحمد الله عز وجل أن جعل مصلحة العرب السياسية في عصرنا موافقة لمصلحة المسلمين السياسية كما أبينه في هذه المقالة، ولو تعارضتا

لقدمت ما يوجبه عليّ ديني، على ما تقتضيه مصلحة أبناء جنسي، لأنني أرجو بديني سعادة الدنيا والآخرة، وأنا موقن بذلك، ولا أرجو بخدمة جنسي وحده إلا الدنيا وحدها، وما أنا على يقين من إدراكها، على أنني راض بما آتاني الله منها، أما وقد اتحدتا فخدمة جنسي خدمة لديني ينفعني في الآخرة إن لم ينفعني في الدنيا، وأنا مؤمن بهذا وإن كان يخفى على كثير من إخواني المسلمين.

مصلحة العرب والمسلمين في الدولة العربية

إنما مصلحة العرب السياسية أن يكون لهم دولة مستقلة، وهذا أمر بديهي لا يختلف فيه عاقلان، فالعرب أمة من أقدم أمم الأرض وأعرقها في الاستقلال، ذات مجد عظيم، ومدنية عالية في التاريخ القديم والحديث، ولغة ممتازة في لغات العلم والأدب، وشريعة هي أعدل الشرائع المنزلة للبشر، وقد ضعفت هذه الأمة الكريمة وضعفت مزاياها ولغتها، وأهمل معظم شريعتها وكادت تفنى بفنائها، كل ذلك لعدم وجود دولة مستقلة لها، إذ يستحيل أن ترتقي أمة بغير دولة.

إن السواد الأعظم من العرب يدينونُ بدين الإسلام، واللغة العربية هي لغة هذا الدين، فلا تصح لمسلم عبادة بغير هذه اللغة، فبالدولة العربية تحيا لغة القرآن، وتحيا بحياتها شريعة الإسلام. فمن البديهي إذاً أن يكون الخير كل الخير للمسلمين في هذه الدولة إذا وجدت، وأن عقلاء المسلمين من غير العرب يعلمون هذا ولكنهم يرونه الآن متعذراً أو متعسراً، ويخشون كما كان يخشى مسلمو العرب أن يكون السعي له مفضياً إلى إضعاف الدولة العثمانية التي لم يبق للمسلمين دولة غيرها، فيكون مثل الساعين كمثل من له دار تكنه فهدمها ليبني خيراً منها فعجز عن البناء وأمسى في العراء

معرضاً لما يجني على حياته، ولكن جمعية الأغرار المغرورين (جمعية الاتحاد والترقي) ما زالت تهدم من آمال العرب في بقاء الدولة وفي كون بقائها خيراً للإسلام والمسلمين حتى دعتهم بل دعَّتهم[1] إلى طلب الإصلاح في الجملة ثم إلى طلب اللامركزية ثم إلى استقلال الحجاز، ولا يعلم غير الله ما تكون عاقبة ذلك، لأن العالم كله في طور تغير وانقلاب مجهول، ولكن المعلوم قطعاً أن ما حصل في بلاد العرب هو نتيجة طبيعية لسيرة الاتحاديين لم يكن في استطاعة أحد دفعه كما يعلم مما يأتي.

وأما غير المسلمين من العرب فهم الآن كالمسلمين ليس لهم دولة، ولأن يكون لأبناء جنسهم دولة خير لهم من أن يكونوا تابعين لدولة أعجمية لا يشاركونها في النسب ولا في اللغة ولا في العادات والتقاليد ولا في الوطن الجغرافيّ[2] ولا في الدين، ولا لدولة أعجمية يشاركها بعضهم في الدين والمذهب أو في الدين دون المذهب دون سائر مقومات الأمم ومشخصاتها وهم يعلمون أن الدين أو المذهب لا يحملها على جعلهم مساوين لأبناء جنسها ووطنها وإن كانوا من غير أبناء دينها ومذهبها، ولا يضرهم أن تكون العربية في هذه الدولة الأغلبية للمسلمين من أبناء جنسهم، فإن أفراد البشر وجمعياتهم يتآلفون ويتعاونون على مصالحهم بكثرة ما يشتركون فيه من مقومات الأمم ومشخصاتها، وما يشترك فيه المسلمون وغيرهم من العرب من المقومات والمشخصات كاللغة والعادات والآداب والمصالح والمرافق الوطنية أكثر مما يشترك فيه غير المسلمين من العرب مع الإفرنج الموافقين لهم في الدين، بلَه الترك المخالفين لهم حتى في الدين، ودين الإسلام دين مساواة في الحقوق وحرية تامة في العقائد، وقد ارتقى غير

---

(١) دعتهم بتشديد العين دفعتهم بعنف. (المنار).

(٢) هذا الوصف احتراز من الوطن السياسي. (المنار).

المسلمين في أرقى دول العرب الإسلامية مدنية إلى أعلى المناصب، حتى كان وزراؤهم وأطباؤهم يزاحمون الخلفاء العباسيين بالمناكب، وإذا كان لغير المسلمين أغلبية في بقعة من البلاد العربية (كجبل لبنان) فإنه يمكنهم أن يكونوا مستقلين مع ارتباطهم واتحادهم بالمملكة العربية فيها استقلالاً إدارياً واسعاً خيراً من الاستقلال الذي نالوه منذ نصف قرن.

لو نهض زعماء العرب إلى السعي للاستقلال لما تعذر عليهم إرضاء اللبنانيين منهم بذلك وإزالة جميع ما في البلاد من أسباب الخلاف. ولو تعذر عليهم إرضاء اللبنانيين في أوائل العهد بالسعي لما كان ذلك موجباً لتركه واليأس منه. ولا أطيل في بيان هذا وكشف غواشي الأوهام عنه، لأنه يخرج بي عن المقصد من هذا المقال، وأكتفي منه بتذكير الملم بتاريخ سورية الحديث بتلك الحركة العربية التي حدثت في سورية أيام كان مدحت باشا زعيم الترك الأكبر والياً عليها، فإنهم يتذكرون أن اللبنانيين كانوا في طليعة العاملين، وبرهاننا على هذا قصيدتا اليازجي البائية والسينية.

لأجل هذا كان سكون العرب العثمانيين وسكوتهم في الأجيال الأخيرة التي تحركت فيها عصبيات الأجناس وهبت لطلب الاستقلال مثاراً لعجب من لم يعرف سبب ذلك السكون من العقلاء.

اتهام الترك للعرب

كان الترك يتهمون العرب بالميل إلى الاستقلال دونهم والسعي لذلك وأنه لا يمنعهم منه إلا ضعفهم وعجزهم أمام قوة الترك. وقد ذكرت في مقالات (العرب والترك) التي كتبتها في الآستانة ونشرتها في جرائدها ثم في المنار أنني لا أعرف لهذه التهمة أصلاً إلا ما كان من افتراء جواسيس السلطان عبد الحميد وطلاب المنافع عنده أو استغلال أوهامه، بل أقول إن

هذه التهمة لم تكن معقولة في عهد السلطان عبد الحميد لأن النهوض بأمر الاستقلال إما أن يكون من جانب الأمة بما تتوسل به إليه من الجمعيات السياسية والعصابات المسلحة – ولم تتصد الأمة العربية لذلك البتة – وإما أن يكون من جانب الأمراء المستقلين بالإدارة في بعض الأقطار أو من دونهم من الزعماء أصحاب العصبية، ولم نعلم أن أحداً من أمراء جزيرة العرب أو من الزعماء في الولايات العربية العثمانية كان مظنة أو موضعاً لهذه التهمة، إذ لا توجد شبهة يعتمد عليها في ذلك. إلا أن المفسدين كانوا يتهمون خديو مصر عباس حلمي باشا بذلك فكان يسمع لهم لأن مصر بلاد عربية غنية بالمال والرجال وقد تصدى رأس حكومتها الأخيرة (محمد علي باشا) لحرب الدولة العثمانية فقهرها واستولى على سورية والحجاز وتوغل في الأناضول، ولولا الدولة الإنكليزية لاستولى على سائر مملكتها، ولكن عباس حلمي باشا لم يكن ليطمع بمثل ما طمع به جده الأعلى، بل ولا بمثل ما كان يطمع به جده الأدنى (إسماعيل باشا) من الاستقلال السياسي بمصر والسودان فقط لمكان الاحتلال الإنكليزي الذي جعل السلطة الفعلية في مصر بيد إنكلترة دونه، ولهذا كان الموسوسون والجواسيس يزعمون أنه على اتفاق مع الإنكليز في هذا الأمر، وكان كثير من المصريين وغيرهم يصدق ذلك، ومنهم من لم يرجع عن هذا التصديق إلا بعد نشر كتاب (عباس حلمي الثاني) للورد كرومر، إذ صرح فيه بأن حياة عباس مع الاحتلال كانت حياة خلاف وشقاق لا يرجى معه اتفاق.

إن المطلعين على الحقائق يعلمون علم اليقين أن عباس حلمي باشا ما كان يسعى لهذا الأمر ولا يرجوه، على أنه كان يعلم أنه لا سبيل له إليه لو تصدى له، ويعلمون أن من سياسة إنكلترة التقليدية بقاء ما للترك من السلطان والسيادة على بلاد العرب وترجيح ذلك على تأسيس دولة عربية

جديدة، وهي لم تجنح إلى سياسة العطف على العرب وإظهار الميل لمساعدتهم على الاستقلال إلا بعد وقوع الحرب بينها وبين الترك بمدة طويلة.

أما أمراء جزيرة العرب فقد كان كل منهم راضياً بحاله ولم يكن يخطر ببال أحد منهم أن يعتدي على الدولة فيما وراء حدود إمارته ولا أن يسعى لذلك بالاتحاد مع غيره، كما أنه لم يكن يسهل على أحد منهم أن تعتدي الدولة على استقلاله أو تحدث في بلاده حدثاً ما، لما استقر في أنفسهم من غريزة الاستقلال الموروثة في الأمة العربية مع عدم ثقة أحد منهم بأن الدولة تقيم شرع الله في بلادهم، على أن للزيدية دولة أقدم من الدولة العثمانية ما زالت تنصب الأئمة من قريش عليها، ويعتقدون أن الترك من البغاة الخوارج على الإمام الحق، وأهون اعتقاد سائر عرب الجزيرة في حكام الترك أنهم ظلمة فسقة مبغضون للعرب. ولكنهم مع ذلك يحبون بقاء الدولة ويتمنون لها القوة والعظمة لأجل صد الإفرنج عن البلاد الإسلامية. وقد كان رجال الدولة في العهد الأخير يعتقدون أن الشيخ مبارك الصباح من أشد العرب عداوة للدولة، ولكنني لما لقيته سنة ١٣٣٠ منصرفاً من الهند أخبرني بما لقيه من عدوان الدولة عليه وتصديها لنفيه من الكويت وأن إنكلترة منعتها من ذلك بدون طلب منه وأنه مع ذلك محافظ على نسبته إليها ورافع لعلمها باختياره ولو شاء لاستبدل به غيره، ومن كلامه في الترك والعرب «نحبهم ولا يحبوننا».

وأما كبراء العرب في ولايات سورية والعراق من العلماء والوجهاء، فقد كانوا أشد تعصباً للترك من الترك أنفسهم، حتى كانوا يفضلونهم على العرب ويسترون ما يعرفون من سيئاتهم، ويكبرون الصغير من حسناتهم، بل يذكرون لهم فضائل ومناقب لا يعرف لها أصل، منها أنهم يعدون بعض ملوكهم من الأولياء ومؤرخو الترك يعدونهم من الفساق. ومما كانوا يذيعونه

بين العامة أن الشيخ محيي الدين بن العربي والشيخ عبد الغني النابلسي قد علما بالكشف أن ملكهم يبقى إلى قيام الساعة.

تلك حال كبراء البلاد وخاصتها والعامة تبع لهم، لم يسمع لأحد منهم نبأة ظاهرة ولا دعوة خفية إلى عداوة الترك أو القيام عليهم أو الاستعداد لتأسيس حكومة عربية تستقل في البلاد، اللهم إلا ما كان قد قيل من أن شيعة الماسون كانت تسعى لجعل الأمير عبد القادر خديوياً لسورية، وما قيل في عهد ولاية مدحت باشا على سورية من أنه كان هو الذي يسعى لجمع كلمة المسلمين وغيرهم للاتفاق على تأسيس إمارة عربية في سورية كالإمارة المصرية يكون هو الخديو عليها، ومن أن رستم باشا متصرف لبنان الأجنبي الأصل كان هو الذي كشف للدولة دسيسة شيخ أحرار الترك وزعيمهم الأكبر، وترتب على ذلك إخراج السلطان عبد الحميد لمدحت باشا من سورية، وقيل إن تلك الحركة كانت مدبرة بدسائس الآستانة ليتوسل السلطان بها إلى نفي مدحت باشا ثم الفتك به. وفي تلك الأثناء نشرت قصيدتا الشيخ إبراهيم اليازجي السينية والبائية.

ولما كنت أنشر في الآستانة مقالات (العرب والترك) وأشرت فيها إلى هذه المسألة جرى بيني وبين الصدر الأعظم حسين حلمي باشا حديث في هذا الموضوع قال لي في أثنائه إنه أقام في سورية عدة سنين أيقن في أثنائها بأنه لا يوجد فيها أحد من وجهاء المسلمين يكره الدولة إلا بعض الأفراد من بيت المؤيد ومن بيت الصلح، وسائر الوجهاء مخلصون للدولة كغيرهم. ولا أدري من عنى بقوله ذاك. ولم أعلم عن أحد من المعاصرين لنا من أهل هذين البيتين شيئاً يبين المراد لنا من قوله، إلا أن أحد أفراد البيت الأول كان قد جاء مصر في أوائل عهد مجيئي إليها وأسس جمعية دينية يشترط في أعضائها ترك المحرمات والمحافظة على أداء الفرائض وقد ساعدته على ذلك

ولم أكن أسمع منه كلمة تشعر بأن له غرضاً سياسياً منها وقد أفادت الجمعية فائدة دينية ظاهرة، ثم انشق عنها عضو مصري تركي الأصل زاعماً أن للمؤسس غرضاً سياسياً منها وتبعه على هذا جماعة من أعضائها في القاهرة صاروا يلغطون بذلك. ثم إن المؤسس سافر إلى الآستانة ثم عاد إلى سورية وأقام فيها. ولو صدق السلطان عبد الحميد أنه كان يسعى إلى ذلك الغرض السياسي لما أفلت من قبضة انتقامه. وإنما اتهمه بعض الناس بأنه تعمد إلقاء كلام لأولئك اللاغطين ليشتهر ويوصله الجواسيس إلى السلطان.

هذا كل ما نعلم عن سورية في هذا الأمر. وأما العراق فقد قيل إن السيد سلمان القادري نقيب بغداد كان يسعى إلى تأسيس حكومة عربية وأن طلب السلطان عبد الحميد إياه إلى الآستانة قد كان لأجل الانتقام منه قتلاً بالسم كعادة ملوك العثمانيين القديمة أو إبقائه في الآستانة منفياً إلى أن يموت، وقيل إن السيد سلمان لم يطعم في القصر السلطاني ولا عند أحد في الآستانة شربة ماء ولا فنجان قهوة ولا غير ذلك، وكان يعتذر بأنه مريض لا يذوق شيئاً إلا بأمر طبيبه الخاص. ولكن اشتهر أن السلطان أكرم مثواه وقلده نوطاً ذهبياً كتب عليه «شيخنا سلمان» وأعاده إلى بغداد عزيزاً كريماً، ومما كان يقال في ذلك الوقت أن للسيد سلمان أعداء سعوا به إلى السلطان؛ وسمعت والدي رحمه الله تعالى يقول: كان السيد سلمان ذا نفوذ عظيم في قبائل العراق، وكان يوجد مئة ألف مسلح «بالمرتين» منهم طوع أمره، وأنه بلغه أن سبب نجاته من فتك السلطان عبد الحميد أن بعض العقلاء من كبراء الآستانة قالوا إن من مصلحة المسلمين أن يدخر مثل هذا الزعيم لأنه قد يحتاج إليه إذا طرأ على الدولة ما تخشى عاقبته على بلاد العراق أو ما هو أعظم من ذلك، فلهذه الفكرة أقنعوا السلطان بوجوب تكريمه (أو تلطيفه كما يقولون) وإعادته إلى بلاده.

ولا أدري من أين وصل إلى والدي هذا الخبر وكنت إذ سمعته منه صغيراً لا أحفل بالبحث عن أمثال هذه المسائل.

تعاون جمعيات الترك والعرب

هذا ما يصح أن يذكر من تاريخ هذه المسألة ولا نعلم وراءه شيئاً إلا ما كان يكتبه في بعض الجرائد والمنشورات من يقصدون استغلال وسوسة السلطان عبد الحميد كما تقدم. ولكن أهل الرأي وحملة الأقلام من العرب لم يقصروا في التعاون مع أمثالهم من الترك على السعي لإصلاح حال الدولة والقضاء على الاستبداد الحميدي، فلما أسس شبان الترك جمعية الاتحاد والترقي ونشروها في الولايات دخل فيها كثيرون من شبان العرب وكانت شعبها في سورية أعظم منها في غيرها، وأسس بعض العرب جمعية أخرى كجمعية الاتحاد بعد ضعف شأن هذه في مصر وسورية وهي جمعية الشورى العثمانية، وأدخلوا في لجنتها المركزية أشهر رجال الاتحاديين الذين كانوا في مصر، وغيرهم من العثمانيين. فكان هم طلاب الإصلاح من العرب في عهد عبد الحميد هو همّ طلاب الإصلاح من الترك وكانوا يشتغلون متعاونين والمواصلات بين جمعياتهم لا تنقطع ولا سيما جمعية الاتحاد والترقي في أوربة وجمعية الشورى العثمانية بمصر. ظلوا على ذلك إلى أن ظفروا بإعادة الدستور فظن العرب كما ظن غيرهم من الأجناس الذين تتألف منهم المملكة العثمانية أنهم فازوا بما جاهدوا في سبيله إلى أن قلب لهم المتغلبون على جمعية الاتحاد وعلى الدولة ظهر المجن وأوقعوهم في هوة اليأس من الدولة.

السبب الصحيح

تبين مما شرحناه من الحقائق أن عدم تصدي العرب لإنشاء دولة جديدة لم يكن سببه الخوف من قوة الدولة كما كان يتوهم الترك فإن العرب أقوى

من اليونان والبلغار وغيرهما من الشعوب التي انفصلت من السلطنة العثمانية وصارت دولاً مستقلة، ولم يكن سببه تفرق العرب وتعذر اتفاق أمرائهم وزعمائهم كما يتوهم الكثيرون منهم ومن غيرهم، فلو وجد هذا القصد لكان هو الجامع لهم، ولا الجهل الضارب بجرانه في البلاد العربية، فإن محمد علي الكبير لما غزا الدولة وكاد يفتحها كلها لم يكن من علماء السياسة والاجتماع ولم يكن الشعب المصري على درجة عالية من العلوم والفنون التي تدفع الشعوب إلى الفتح والاستعمار.

وإنما كان السبب الصحيح لسكون العرب وسكوتهم عن طلب استقلالهم وتجديد دولة لهم هو الإسلام وأوربة.

دين الإسلام وسياسة دول أوربة سببان مستقلان أو سبب واحد مركب لكل من جزئيه تأثير خاصّ في صرف العرب العثمانيين عن السعي للاستقلال، ولعله لو انفرد أي منهما لما صرفهم عن كل سعي واستعداد لذلك.

أما الإسلام فقد أزال من أنفس العرب عصبية الجنسية إلا من غلبت عليهم البداوة فإنهم بما توارثوه من الغرائز والأخلاق لا يخضعون إلا لسلطة رؤسائهم الذين من أبناء جنسهم بل من رؤساء عشائرهم. وأما من غلبت عليهم الحضارة فما زالوا يألفون سلطة الأعاجم من الملوك والسلاطين الذين يتولون أمرهم من قبل الخلفاء العباسيين ويحكمون بشريعتهم ويؤيدون لغتهم ويتركون لغاتهم إليها إلى أن هان عليهم الخضوع لسلطة الأعاجم المصرّين على أعجميتهم الذين لا يستمدون سلطتهم من خليفة قرشي عربي وهم الترك، بل هان عليهم ادعاء هؤلاء الأعاجم للخلافة النبوية ورضوا بذلك واطمأنوا له لأنه مع إشرافه على مجموعهم المتفرق من شاهق القوة العسكرية، قد أطل على قلوبهم من سماء الفتاوى الشرعية، وتسرب إلى

أفكارهم من باب المصلحة الإسلامية، ذلك بأن أكثرهم من المنتمين إلى مذاهب علماء السنَّة الذين يوجبون طاعة المتغلب بالقوة، وإن لم يكن حائزاً لغير الإسلام من شروط الخلافة الشرعية، ومنها النسب القرشي بإجماعهم، ومستندهم في ذلك رعاية المصلحة الراجحة وخوف الفتنة. على أنهم مختلفون في عد رعاية المصلحة حجة؛ أو داخلة فيما ذكروه للقياس من مسالك العلة، ومختلفون في سد الذرائع أيضاً. ولما كانت الزيدية لا تقول بطاعة المتغلبين، ولا بمصلحة تبيح ترك اشتراط النسب القرشي العلوي وشرط العلم الديني في أئمة المسلمين، (أي الخلفاء) لم يخضعوا لسلطان الترك ولا دانوا لحكمهم، بل ظلوا ينصبون الأئمة الحائزين للشروط الشرعية في مذهبهم، ويقاتلون الترك الذين يتصدون لفتح بلادهم، ولم تستطع الترك أن تغلب أئمة اليمن على أمرهم، بل صالحوا إمامهم الإمام يحيى منذ سنين قليلة وأقروه على إمامته في قومه ووطنه بعد أن حاربوه وحاربوا سلفه أربع مئة سنة، على أن الإمامة لا تتجزأ ولا تتعدد. والحق أن الباعث الأخير لاعتراف أكثر المسلمين بخلافة سلاطين الترك هو كونهم أمسوا حصناً لبقية البلاد الإسلامية في وجه أوربة.

وليس من غرضنا هنا أن نبحث في الخلافة وشروطها وإنما بحثنا هذا تاريخي إذا ذكرت فيه مسألة شرعية فإنما تذكر على سبيل الاستطراد مختصرة بقدر الضرورة، ولم تكن مسألة الخلافة من مواضع بحث طلاب الإصلاح من العرب في السنين الأخيرة خلافاً لأوهام الواهمين التي أثارها في مخيلاتهم لغط بعض الكتَّاب بها في عهد السلطان عبد الحميد لأجل استغلال وساوسه كما تقدم، حتى صارت حكومته تمنع نشر كل كتاب من كتب الكلام والعقائد والحديث والتفسير تذكر فيه هذه المسألة. ومن أثر ذلك أنه لما طبع كتاب المسايرة للكمال ابن الهمام، وهو من أهم كتب العقائد

عند الحنفية وكثير الرواج في الآستانة، اضطر طابعه بمصر أن يطبع منه نسخاً حذف منها بحث الإمامة (الخلافة) لأجل بيعها في الآستانة وسائر البلاد العثمانية. وصار بعض الجاهلين في مصر يظن أن ذكر الشروط الشرعية للخلافة ولا سيما شرط النسب القرشي لا يصدر إلا من عدو للدولة وللإسلام أيضاً. على أن هذا الشرط مذكور في الكتب العربية والتركية التي طبعت في الآستانة قبل تشديد الحكومة الحميدية في مراقبة المطبوعات، وقد ذكر في بعض الكتب العصرية التي طبعت بعد الدستور ومنها كتاب لإسماعيل حقي بك بابان الاتحادي الذي كان مدرساً في مكتب الحقوق وصار ناظراً للمعارف.

تكوين الترك للعصبية العربية

فهذا وجه صد الإسلام للعرب عن محاولة الاستقلال دون الترك، وقد قلت مراراً إنه لا يقدر أحد على إعادة هذه العصبية إلى العرب أو إعادتها إليها بعد أن أبعدهم الإسلام عنها إلا الآستانة أو تحامل الترك عليهم بباعث العصبية التركية[1]. وقد صدق الزمان هذا القول. وأسس الاتحاديون بعصبيتهم التركية واضطهادهم للعرب بناء العصبية العربية أو أحيوها بعد موتها. فإن هؤلاء الاتحاديين قد تمرسوا برجالات العرب وشبانهم في الآستانة وغيرها، فعلموا من أقوالهم وأفعالهم في دُور الحكومة الرسمية ومدارسها وأندية الجمعية في البلاد العربية أن عزمهم على تتريك العرب كغيرهم بالقوة عزم ثابت لا يرجعون عنه، وأنهم جازمون بسهولة

(١) أذكر أنني كتبت هذا غير مرة في المنار ولكنني لا أتذكر من مواضعها إلا ما في ص ٢٥٢ و٢٥٣ من المجلد الثالث عشر والعبارة فيه تدل على أنها مسبوقة، وإلا ما في ص ٨٠ من المجلد التاسع عشر. (المنار).

تتريك بلاد سورية والعراق في سنين معدودة، وما يعسر تتريكه الآن من جزيرة العرب يعد من المستعمرات يوضع له قانون خاص لإدارته ولا يكون لأهله ما لسائر العثمانيين من الحقوق المنصوصة في القانون الأساسي. وقد أرسلوا طائفة من طلبة الترك إلى أوربة لأجل درس قوانين الاستعمار.

بهذا علم نبهاء العرب أن أمتهم ولغتهم عرضة للزوال من المملكة العثمانية - ولا يجهل أحد أن الدين الإسلامي يقوى بقوة لغته العربية ويضعف بضعفها ولا نقول أكثر من ذلك - فتوجهت قلوب كثير منهم لتدارك الخطب وألفوا بعض الجمعيات لذلك، ورأى الذين يتحرون هدي الإسلام في أعمالهم أن ما كان مانعاً من إحياء الجنسية العربية قد زال وخلفه المقتضي لإحيائها، فقد كان المانع من ذلك اتقاء الشقاق بين العرب والترك وإفضاء ذلك إلى زوال الدولة واستيلاء الأجانب على بلادها، وقد وقع ذلك من قبل الاتحاديين، أي من قبل الدولة نفسها، لأنها في قبضتهم فلا معنى لاتقائه وقد حصل، وخلفه المقتضي لإحياء هذه الجنسية وهو وجوب المحافظة على اللغة العربية والأمة العربية شرعاً. ولكن هذا قد يحصل بما دون استقلال العرب بأنفسهم دون الترك وإن كان حصولاً ضعيفاً، فلم يكن باعثاً على السعي إلى تأليف دولة عربية بل إلى طلب إصلاح اضطرب في تحديده أفرادهم وجماعاتهم، وكان حزب اللامركزية أقصدها وأشدها اعتدالاً.

وما كان يخفى على أحد من هؤلاء أن مطالبهم معلقة بين الرجاء واليأس وأن الحياة إنما هي حياة الاستقلال لا تحيا اللغة ولا ترتقي الأمة بدونها، ولكن دونها خرط القتاد، إذ لا تحصل إلا بثورة يصطدم بها الترك والعرب اصطداماً يخشى أن يضعف الفريقين وينتهي بزوال الدولة واقتسام أوربة لبلادها. ومن ذا الذي يقدم على حمل هذه التبعة الثقيلة

التي تنط من حملها الجبال الرواسي؟ أيجهل أحد من طلاب الإصلاح العرب أن هدم آخر سلطنة إسلامية مهما يكن سببه الحامل عليه لا يعقب الساعي إليه والقائم به إلا لعن مئات الملايين من المسلمين إلى يوم الدين؟

لهذا أجمع طلاب الإصلاح من العرب الذين يعتد برأيهم، ويرجى تأثير عملهم، على أن لا يكونوا سبباً لسقوط الدولة وزوالها. ولا يسعوا إلى ضررها ولا إلى إضعافها، وعلى أن يجعلوا همهم في إصلاح أنفسهم، وعمارة بلادهم، مع النصح للدولة والاخلاص لها، وطلب حقوقهم التي أثبتها لهم القانون الأساسي فيها، ليرتقوا ويعتزوا بأنفسهم فلا يسقطوا مع الدولة إن سقطت، وتعتز الدولة وترتقي بارتقائهم إن بقيت، وأن يكون جل سعيهم إلى ذلك في مجلس الأمة بواسطة مبعوثيهم.

ثم طرأ على بعضهم اليأس من بقاء الدولة وقوي ذلك وكثر التفكر في عواقبه عندما غلب البلقانيون الدولة في الحرب وكادت دولة البلغار التي تم لها استقلالها في عهد الدستور تستولي على الآستانة، وتحدثت جرائد أوربة بحقوق بعض الدول الكبرى في بلاد الدولة، وخص بالذكر بعض الولايات العربية، وطفق المفكرون يناجي بعضهم بعضاً: ما حيلتنا إذا أقدمت دولة قوية على الاستيلاء على بلادنا كما استولت إيطالية على طرابلس الغرب وبرقة وليس فيها شيء من أسباب الدفاع ولا يمكن الدولة ولا مصر أن تساعدها على مقاومة المحتلين كما ساعدتها.

صدعهم هذا اليأس بعد أن قوي رجاؤهم في الدولة بانتصار حزب الحرية والائتلاف على حزب الاتحاد والترقي وانتزاعه السلطة التنفيذية من يده، ثم قوي ذلك اليأس واشتد بثورة الاتحاديين على وزارة كامل باشا وقتلهم لناظر الحربية في الباب العالي وتأليف وزارة جديدة منهم بقوة الثورة، ولولا أن زعماء العرب كانوا مجمعين على المحافظة على الدولة مهما

تكن حالها، لبادروا عند ذلك اليأس الشديد إلى إضرام نار الثورة على الدولة والجهر بالاستقلال دونها، لعلمهم بأنه لم يبق عندها في ذلك الوقت سلاح ولا ذخيرة تدافع بها عن عاصمتها، فكيف تقدر على تجريد عسكر يخمد نيران الثورة في البلاد البعيدة عنها؟ ولكنهم لم يفعلوا، ولم يكن الإسلام هو المانع لهم من التصدي لتأسيس دولة عربية وهم يائسون من بقاء الدولة التركية ومن إقامتها للإسلام إن بقيت والاتحاديون غالبون على أمرها، فإن إفتاء مذاهبهم بوجوب طاعة المتغلب خوف الفتنة التي ترجح مفسدتها على المصلحة لم يعد ينطبق على حالتهم مع الدولة، ولكن المانع الحقيقي هو الخوف من أوربة أن تغتنم الفرصة وتستولي على البلاد.

فتبين بهذا أن ما كان يصد زعماء العرب من المسلمين عن التصدي لتأسيس دولة عربية أمران: الإسلام والخوف من أوربة، وكان الرجحان في بعض الأحوال للأول وفي بعضها للثاني، ولكنهما كانا في عامة الأحوال والأوقات مانعاً واحداً أو سبباً واحداً مركباً من أمرين كل منهما يقوي الآخر.

وبعد حرب البلقان أقدمت الحكومة الاتحادية على عقد الاتفاق بينها وبين الدول الكبرى على الاعتراف لهن بالنفوذ الاقتصادي في أعظم الولايات العربية ليقرضنها عشرات الملايين من الجنيهات، وصرح بعض كبار السياسيين في جرائد أوربة بأن مناطق النفوذ الاقتصادي تتحول إلى مناطق نفوذ سياسي عند سنوح أول فرصة لذلك، فثبت عند زعماء العرب أن الاتحاديين شرعوا في تنفيذ ما هددوهم به من بيع بلادهم وترقية الترك بثمنها كما فعلوا ببيع طرابلس الغرب وبرقة، فاشتدت عزيمتهم على طلب الإصلاح وعقدوا المؤتمر العربي في باريس لذلك،فذعرت الحكومة الاتحادية ولجأت إلى الحيلة والخداع لضعفها في ذلك الوقت، وكان من أمر نتيجة

المؤتمر ما هو معلوم من اعتراف جمعية الاتحاد ثم حكومتها ببعض حقوق العرب في الدولة ووعدها بإعطائهم تلك الحقوق بالتدريج وخداعها للسيد عبد الحميد الزهراوي رئيس المؤتمر وتصديقه إياها بما وعدت به.

الحرب الأوربية واستقلال الحجاز

ثم ظهرت بوادر الحرب الأوربية وعزم الدولة على الدخول فيها فبادرت إلى كتابة مقالة نصحت فيها لإخواني العرب بالكف عن طلب الإصلاح في حال الحرب وتأييد دولتهم بالاجماع فكان لها تأثير عظيم. ولكن الاتحاديين لما دخلوا في الحرب وجعلوا الأحكام في المملكة عسكرية عرفية جعلوا ذلك وسيلة للتنكيل بالعرب والأرمن حسب خطتهم المقررة منذ سنين فصلبوا في سورية جميع من عرفوا من المطالبين بالإصلاح من نابغي العرب ونفوا من البلاد أرباب البيوتات والثروة الكبيرة وصادروا أموال الناس وغلات أرضهم، وفعلوا مثل ذلك في العراق، ثم تحرشوا بالحجاز، فبادر الشريف أمير مكة المكرمة إلى إعلان استقلال الحجاز بعد النصح لجمال باشا الحاكم العسكري الاتحادي المطلق في سورية ولحكومة الآستانة بالكف عن الفظائع في سورية والعراق فلم يقبل نصحه، وانتهى أمر الشريف باعتراف دول الحلفاء باستقلاله التام وبما بايعه به أهل البلاد من جعله ملكاً عليهم.

وقد نشر الشريف قبل المبايعة منشوراً بيَّن فيه سبب قيامه مع الحجازيين بما قاموا به، ففهمنا منه أنه كان موافقاً لما أجمع عليه من دونه من زعماء العرب من الرغبة في المحافظة على بقاء الدولة واتقاء أن يكون زوالها أو ضعفها من قبل العرب، فإن استقلال الحجاز الذي أنتجته الضرورات لا يمكن أن يكون سبباً لزوال الدولة وهي داخلة في أحد

الحلفين اللذين انقسمت إليهما دول أوربة الكبرى. فإن النصر لأحد الحلفين على الآخر إنما يكون بانتصاره عليه في أوربة، واستقلال الحجاز لا يقدم في ذلك ولا يؤخر، ولكنه أفاد العرب فوائد عظيمة فصدق عليه قولنا، إما أن ينفع نفعاً كبيراً أو صغيراً وإما أن لا يضر. وقد ثبت عندنا أن استقلال الحجاز كان سبباً لكف الاتحاديين عن محاولة إبادة العرب من سورية والعراق الآن وتخفيف ما كانوا شرعوا فيه من المذابح والفظائع، وكان هذا من أجلّ منافعه التي تربي على ما ترتب عليه من سفك الدم الذي اجتهدت الحكومة العربية الحجازية في اجتنابه بقدر الطاقة.

عاقبة العرب استقلال الشعوب

ثم طرأ بعد استقلال الحجاز أن أعلن دول الأحلاف أنهن قد اتفقن على حرية الشعوب واستقلالها في أمر حكومتها وذكروا العرب والأرمن منها. وهذه قاعدة عادلة عظيمة الشأن إذا نفذت على وجهها الصحيح وكانت الدول كلها متضامنة في حفظها بما يتعاهدن عليه في مؤتمر الصلح، وأوّلها بعضهم بمعنى أن لا يحكم شعب إلا بالطريقة التي يختارها لنفسه، ولكن الوقوف على آراء الشعوب المغلوبة على حريتها متعذر في هذه الأوقات التي تخضع فيه للأحكام العسكرية، وقد علمنا ممن فر من سورية والعراق إلى مصر والحجاز ومن أسراهم بمصر أن العداء بين العرب والترك قد عم وتمكن فلا مطمع في زواله، ولم يبق في العرب من لا يرغب في الاستقلال دون الترك. ومن البديهي أنه لا يوجد شعب في الدنيا يختار على الحرية والاستقلال شيئاً إذا تيسرا له، ولكن يوجد في كل أمة أفراد من عبيد المال، ومن الجاهلين الذين يخدعون بزخرف الأقوال، فيمكن أن يستخدم من هؤلاء وأولئك بالترغيب والترهيب طائفة تقول ما تؤمر أن تقوله، ولا يمكن أن يكون اختيار هؤلاء للعبودية بتسميتها بغير اسمها حجة على

الشعب، ولكن القوة تحتج على الضعف بما تشاء، وإنما يعرف رأي الشعوب في بلاد الحضارة من قبل أحزابها السياسية، وليس للشعب العربي العثماني حزب سياسي عام إلا (حزب اللامركزية) ويمكنه أن يبين رأي الشعب إن استطاع زعماؤه أن يعربوا عن آرائهم، وله جمعيات موضعية خاصة كجمعية الاتحاد اللبناني بمصر وأمريكة، والنهضة اللبنانية في أمريكة، فهي تمثل آراء جمهور اللبنانيين. والدول إذا أخلصت في تنفيذ هذه القاعدة تقررها وعندما يجتمع زعماء كل أمة تنال استقلالاً جديداً لتأسيس حكومتها العليا يعرف رأيهم في شكلها، ولا يعرف معرفة صحيحة بغير ذلك. فإذا انتهت الحرب بذلك كانت عاقبتها على البشر خير العواقب. والله الموفق.

التعصب وأوربا والإسلام(١)

للكلام دول تحالف الحقائق تارة وتخالفها تارة، ورب خلاف يجر إلى حلاف، وحلاف ينتهي بخلاف. قد يتهم الخليّ بالعشق حتى تجعله التهمة عاشقاً، وقد ينكر الكذوب الكذب حتى يكون صادقاً؛ مرت على الشرق الأحقاب والقرون، ودرجت فيه الأجيال والقرون، وهو كما نعلم مشرق الأديان، ومنبت جميع أصناف الإنسان، ولم يقع فيه بين المختلفين في الدين المتجاورين في البيئة من الغلو في التعصب عشر معشار ما وقع من أهل أوربا الذين اتحدوا باسم الصليب على إبادة المسلمين، أو ما وقع من تعصب نصارى هذه القارة على الوثنيين فيها، بل ولا عشر معشار ما وقع من أهل المذاهب النصرانية بعضهم مع بعض. فأوربا مثار بركان التعصب الديني في الأرض كما بينا ذلك في مقالات نشرت في أعداد السنة الأولى.

لما رجعت دول أوربا المتحدة من حرب الصليب في الشرق مغلوبة على أمرها عاجزة عن بلوغ منتهى ما حدده لها تعصبها عالة أنها دون المسلمين في القوة الحربية والقوة العلمية والأدبية، أخذت تستعد في العلم والعمل، فكان خذلانها في تلك الحرب مبدأ حياة جديدة لها، على حين كانت حياة المسلمين السابقة أخذت بالضعف والتحول، فاستفادت من الانكسار، ما لم تستفد من الانتصار، وما زالوا يرتقون فيما تركناه لهم من علم وصناعة واجتماع واعتصام، ونحن نتدلى بالجهل والكسل والتفرق والانفصام، حتى دالت لهم

(١) المنار، المجلد ٩، الجزء ٦، ص ٤٢٧ – ٤٣٨، تاريخ ٢٣ تموز (يوليو) ١٩٠٦.

الدولة، وعادت لهم الكرة، فسادوا علينا واستولوا على أكثر بلادنا. وقد عاملنا أكثرهم بالشدة والقسوة حتى ضبطت بعض دولهم أوقافنا وهدمت أكثر مساجدنا ومنعتنا من التعليم الديني والدنيوي وسلطت علينا قسوسها يحقرون ديننا في بلادنا. وإن إنكلترا وهي أحسنهن استعماراً وأقربهن إلى اللين والعدل لم تبلغ بعض شأو الخلفاء الراشدين في العدل والمساواة بل ولا غير الراشدين من أكثر ملوك الأمويين والعباسيين كما بينا ذلك غير مرة.

تحتج أوربا على هذه القسوة بأن الشرقيين أو المسلمين متعصبون لا يؤمن شرهم أن يقع على المخالف لهم إلا بغل أيديهم وتقييد أرجلهم ووضع الوقر(١) في أسماعهم والغشاوة على أبصارهم ولكن إنزالها الشر المحقق عليهم خوفاً من الشر المتوهم منهم لا يعد تعصباً!! لماذا؟ لأنها تقول: إنهم متعصبون للدين وإنا غير متعصبين له، الشرقيون متعصبون لأن الشرق لا يعرف جامعة غير الدين. الغربيون غير متعصبين لأن الغرب لا يعرف غير الجامعة الجنسية أو الوطنية، المسلمون متعصبون، النصارى غير متعصبين. التعصب الإسلامي خطر على المدنية المسيحية، ما دام هذا القرآن معتقداً أو محترماً فالإنسانية على خطر، ما يأخذه الصليب من الهلال لا يعود إليه وما يأخذه الهلال من الصليب يجب أن يسترد منه:

أمثال هذا الكلام الذي يرددونه قد فتق آذان المطلعين من المسلمين على كتب أوربا وجرائدها وفتح أعينهم ونبه أفكارهم فاعتقدوا أن أوربا متعصبة عليهم تحاول محو ملكهم ووجودهم الملي من الأرض وأنها تجاريهم بهذا التعصب وربما كانت نجاتهم بالتعصب فكادوا يحققون التهمة ويدعون

(١) الوقر: ذهب السمع.

إلى تحقيقها. ولكن روح الإسلام لا يزال غالباً على مجموع الأمة الإسلامية وهو ما سنبينه في هذا المقال.

يخفت صوت القوم في اتهام المسلمين بالتعصب حيناً من الدهر ثم لا تلبث السياسة أن ترفع به عقيرتها وقد قال في هذه الأيام وزير خارجية إنكلترا في مجلس العموم كلمة فيه سارت بها الركبان قال – والعهدة على ترجمة الجرائد – إن روح التعصب قد زادت في القطر المصري في هذه الأيام زيادة يخشى معها على مستقبل البلاد. قال كلمته في مقام الدفاع والاعتذار عن عمل أملته السياسة الإنكليزية في مصر فأنكره عليها بعض النواب في المجلس، وطلب من الوزير أن يبين عذر الحكومة في ارتكاب ذلك المنكر وهو القسوة في معاقبة طائفة من الفلاحين في حادثة دنشواي التي سارت بخبرها الركبان وترى مجمل خبرها في باب الأخبار من هذا الجزء.

عهدي بصوت المعتذر في مقام الدفاع أن يكون خافتاً ليس له صدى ولكن صوت هذا المُدافع، قد كان أشد من دوي المدافع، خشعت له في المجلس الأبصار، وخفتت له الأصوات، ولم يلبث أن حمله البرق إلى الأرجاء، فكان مع البرق رعداً قاصفاً في جميع الجواء، رددت صداه الأقطار، وكان الشغل الشاغل لصحف الأخبار، فأما الجرائد الأوربية فقد صدقت الوزير في قوله، ووافقته على ما يريد له، جارية في ذلك على نهجها المعبد، وتقاليدها المتبعة، وتبعها من الجرائد الإفرنجية والمتفرنجة في مصر من يرى أصحابها لهم فائدة من تغيظ إنكلترا من المسلمين. وأما جرائد المسلمين في مصر ومن أنصف المسلمين في المسألة من أصحاب الجرائد الإفرنجية والسورية فقد أنكروا القول على الوزير وما كل منكر يعرف كيف ينكر.

وجلَ مسلمو مصر وأصحاب الجرائد منهم خاصة من قول الوزير وحسبوا لعاقبته ألف حساب، وهب الكتاب منهم لدفع تهمة التعصب عن أنفسهم فجاءوا بمنتهى ما يتولد بين الغيرة والوجل، من فنون الحجاج والجدل، وربما كان في دفاعهم، ما يعده المتهمون لهم مثبتاً للتهمة عليهم، ولم أر منهم من شرح ما يريده الوزير من التعصب كما أعتقد ثم احتج على بطلانه بما يرجى أن يكون مقنعاً للمنصف، بل رأيت كثيراً من الناس يعتقدون أن الوزير قال ما لا يعتقد كما قال له اللورد كرومر وهو أيضاً لا يعتقد ما قال: أما أنا فإنني أقول إنهما يعنيان بالتعصب غير ما فسره به هؤلاء المدافعون من الوجوه التي يقيمون الدلائل على ردها.

هل يعني الإفرنج بالتعصب الإسلامي تحاب المسلمين وتعاونهم على مسابقة غيرهم في طرق الكمال الصوري والمعنوي فنقول لهم إنكم تشاهدون أننا أصبحنا أضعف الأمم اتحاداً وتناصراً، وأشدها تفرقاً وتنافراً! هل يعنون به بغضنا وكراهتنا للمخالف لنا في ديننا وعدم ثقتنا به بحيث يصعب عليه أن يعيش بيننا فنقول لهم إذاً كيف أصابت هذه الثروة الواسعة منا جالية اليهود والنصارى منكم ومن السوريين والأرمن وسائر الملل وكيف صار منكم رئيس الخاصة الخديوية وكثير من مستخدميها ورؤساء دوائر كثير من أمرائنا وأغنيائنا؟ بل كيف عاش بيننا المبشرون بالنصرانية آمنين وهم يطعنون بديننا وكتابنا ونبينا؟ هل يعنون به محافظتنا على شريعتنا من جهة الأحكام القضائية فنقول لهم هذه المحاكم الأهلية والمختلطة ومدرسة الحقوق ونظارة الحقانية نفسها حجة عليكم فإننا تركنا معظم شريعتنا الإلهية إلى قوانينكم الوضعية ولم يعارض حكامنا الذين فعلوا ذلك أحد من علمائنا ولا من وجهائنا؟ هل يريدون به اعتصامنا بعروة الدين في أعمالنا الشخصية فنقول لهم ولماذا راجت خموركم

حتى عمت المدن والقرى وربحت تجارة بورصتكم وبغاياكم حتى أهلكت الحرث والنسل، ولماذا كان عدد أغنيائنا الذين يزورون بيوت الفسق في بلادكم كل عام، أضعاف الذين يزورون بيت الله الحرام، ولماذا ولماذا ولماذا... هل يعنون به أن مصر تريد أن تتبع سائر الأقطار الإسلامية، بالاتحاد على الأمنية التي يعبر عنها بالجامعة الدينية، فنقول أخبرونا عن قطرين إسلاميين اتحدت حكومتاهما وتحالفت على دولة غير إسلامية كما تفعل دولكم في تعاطفها وتحالفها. ما كانت حكومتان لنا متحالفتين لإعلاء كلمة الله لا سيما في هذه الأزمان، إن هم إلا متخالفون لوجه الشيطان، بالأمس قامت دولكم على دولة مراكش الإسلامية فاتحدت على ما شاءت من السيطرة عليها ولم تطلب دولة الترك ولا دولة الفرس أن يكون لهما معكم سهم ولا قالت واحدة منهما كلمة تشعر بالغيرة عليها أو المساعدة لها بل ها الآن متناوئتان كل منهما تحشد الجيوش على الحدود كأنهما متحدتان على إفناء ما بقي للمسلمين من قوة واستقلال بفتك كل منهما بالأخرى. على أن الحكومات هي التي تعقد المحالفات، وزمام الحكومة المصرية في أيديكم وليس للأمة في أعمالها رأي، بل ليس للحكومة نفسها من دونكم أمر ولا نهي، بل نقول لهم لو كان للمصريين الذين تشكون من تعصبهم رأي لما اتفقوا على الاعتصام بالجامعة الإسلامية وإنما يعملون بما أرشدتموهم إليه من العصبية الوطنية، فإنه وجد فيهم كثيرون يعدون المسلم غير المصري فيهم دخيلاً ويأبون الاشتراك معه في أي عمل ويفتخرون بمعاملة الأجنبي غير المسلم.

إذاً ماذا يريدون بهذا التعصب المصمئل[1]، المتحفز لمواثبة الدول،

(١) المصمئل: المشتد – اصمألّ: اشتد.

المخرنبق[1] لينباع، المجرمز[2] ليمد الباع، المتربص ليغتال الثروة الأوربية، المتوثب ليمحو آية المدنية. إلا أنهم يعنون أن المسلمين حريصون على أن يكون حكامهم منهم وأشد ما ينكرون من ذلك أن الإسلام قد جعل من حقوق الخليفة على المسلمين، أن يستجيبوا له إذا دعاهم إلى استئصال المخالفين لهم في الدين، ويعتقدون أن السلطان عبد الحميد ما أحيا لقب الخلافة لنفسه وعني بإقناع الشعوب الإسلامية بالاعتراف به باستخدام الجرائد وغير ذلك من الوسائل إلا ليمتع نفسه بهذه القوة المعنوية الهائلة التي يستطيع أن يهدد بها أوربا في مستعمراتها متى شاء بل هو يهددها بالقوة والفعل، ولولا ما تحدث له من الشواغل والعراقيل في كل وقت وما تنطوي عليه جوانحه من الخوف والحذر لما أمنت دهاءه وقد أعطي هذه السلطة الدينية المخيفة. هذا ما يعتقد الأوربيون في التعصب الإسلامي وهذا ما يخافون منه. ولما كانت مسألة العقبة ورأي اللورد كرومر أن السلطان قد ظهر فيها بمظهر الشدة والحزم أولاً ورأى ثرثرة بعض جرائد المسلمين فيها بحقوق الخليفة والخضوع للخليفة واستنادها في بعض ما تكتب على مختار باشا الذي أنيطت به هذه المسألة خلافاً للعادة وقرأ ما كتب إليه في ذلك اعتقد أن السلطان قد تجرأ بإيعاز إمبراطور ألمانيا المتهور على استعمال تلك السلطة الدينية في هذه المسألة فكتب إلى دولته بذلك. فهو قد كتب عن التعصب في مصر ما يعتقد، وتبعه وزير الخارجية في ذلك. إذ لا مصدر له في المسائل المصرية سواه. فهل يفتأ الكثيرون يقولون إن اللورد قال ما لا يعتقد وكذلك الوزير؟ وهل تظن الجرائد بما أكثرت من الكتابة في التعصب أنها في الذروة والغارب، وأقامت الحجة على اللورد والوزير وسائر الأجانب.

(١) المخرنبق: اخرنبق: ارتدّ – لطي بالأرض.

(٢) المجرمز: جرمز وأجرمز الرجل: انقبض واجتمع بعضه إلى بعض.

الحجة الناهضة على تبرئة الإسلام نفسه من هذا التعصب المزعوم هي آي القرآن، الناطقة بتحريم العدوان، وبأن القتال الديني خاص بمن يقاتلوننا في الدين: أي يقاتلوننا لأجل منعنا من الدعوة إلى ديننا أو من إقامته وإحياء شعائره. وهذه الآيات كثيرة جداً وقد تقدم تفسير أكثرها في المنار وحسب المنصف منها قوله تعالى (٢ : ١٩٠ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) وقوله عز وجل (٦٠ : ٨ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين. إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون).

لو فقه الأوربيون هذه الآيات الثلاث لأذعن المنصفون منهم بأنه لو لم يفضل الإسلام جميع الملل إلا بها لكانت كافية في تفضيله عليها ولودّوا لو أقام المسلمون هذا القرآن واهتدوا به – الآية الأولى تأذن للمسلمين بقتال من يقاتلهم خاصة وتحرم عليهم أن يكونوا هم المعتدين. ومن فروع هذا التحريم ما جرى عليه المسلمون في حروبهم من عدم التعرض للرهبان والعباد والنساء في بلاد الحرب لأنهم ليسوا ممن يحارب. وأما الذمي والمعاهد والمستأمن فيجب على المسلمين حمايتهم ممن يحاول الاعتداء عليهم فهل يجوز الفتك بمن تجب حمايته من عدوه؟ أما الآيتان الأخريان فقد نزلتا في التمييز بين المحاربين لنا في الدين الذين نهانا عن موالاتهم في أول السورة وفي سور أخرى وبين غيرهم. قال في أول هذه السورة (٦٠ : ١ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق، يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم) الآيات وفيها بعد وصف هؤلاء الأعداء بأنهم أخرجوا الرسول والمؤمنين من وطنهم

(مكة) لأنهم يؤمنون بالله أنهم إن ظفروا بهم بعد هذا النفي والإخراج يكونوا لهم أعداء ويودوا لو يكفرون مثلهم ويبسطوا إليهم أيديهم وألسنتهم بالسوء أي أنهم لم يكفوا بعد الإخراج والنفي عن عداوتهم. وبعد هذا قال سبحانه (٦٠ : ٧ عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم؛ ٨ : لا ينهاكم الله) إلى آخر الآيتين. فهو بعد إطماع المؤمنين في تحويل العداوة بينهم وبين أولئك الأعداء إلى مودة قال إن النهي عن اتخاذهم أولياء لا يعم كل مشرك منهم حتى الذين يقاتلون المسلمين لأجل الدين ولم يخرجوهم من ديارهم فهؤلاء وإن يكونوا كفاراً لا ينهى عن برهم والإحسان إليهم وعن معاملتهم بالعدل وإنما النهي خاص بالذين قاتلوهم في الدين لتحويلهم عنه ومنعهم من الدعوة إليه وأخرجوهم من ديارهم أو ساعدوا المخرجين لهم على نفيهم وليس نهياً على معاملتهم بالعدل بل هو نهي عن ولايتهم ومحالفتهم ومناصرتهم لأن هذا ظلم بيِّن للمسلمين.

هذا ملخص معنى الآيات فهل وجد في العالم نبي أو حكيم أو أديب أمر بمعاملة أعدائه وأعداء قومه بمثل هذه المعاملة التي جمعت بين العدل والرحمة على أكمل وجه؟ أليس من أقبح الظلم وأشنع الكذب والزور أو من أشد فضائح الجهل أن يقال في دين جاء بهذا الكمال الأعلى إنه خطر على البشر لأنه يأمر بإبادة المخالفين له وإن كانوا مسالمين لأهله ونافعين لهم كما يقول بعض الإفرنج؟ بلى ولكن أكثر الإفرنج يحكمون على الإسلام بما يحكيه عنه أفراد من غلاتهم في التعصب أو من بعض جهال المسلمين وغوغائهم أو الذين ينتحلون السياسة ويجعلون الدين آلة لها وهم به جاهلون.

إذا كان الإسلام نفسه بريئاً من هذه التهمة التي يلصقها به الأوربيون ويسمونها تعصباً فإنني لا أبرىء كثيراً من عوام المسلمين الجاهلين من اعتقاد وجوب طاعة السلطان إذا أمر بقتل المخالفين في الدين وإن كانت الأمة

الإسلامية قد أجمعت على أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ومن أكبر المعاصي الاعتداء على غير المعتدي. وما جاء هذا الاعتقاد من الدين بل جاء من السياسة ولا نعرف تاريخ حدوثه ولعله كان في أيام حرب الصليب وقد اشتهر أن السلطان سليمان استفتى شيخ الإسلام أبا السعود في إلزام نصارى الروملّي بالإسلام أو إبادتهم، لأن بقاءهم متمتعين بحريتهم في الدين واللغة وجميع الشؤون الاجتماعية خطر على الدولة لأنهم لتعصبهم لا بد أن ينتهزوا فرصة ضعف في الدولة أو تورط في حرب شاغلة فيخرجوا عليها فلم يفته أبو السعود بذلك ولعله لو وجد دليلاً في الكتاب أو السنَّة أو أقوال المجتهدين أو الفقهاء المرجحين يسمح له بإسعاف سياسة السلطان في ذلك لأخذ به وأفتى وكانت القاضية.

إذا صدق ظننا في كون حرب الصليب هي مبدأ هذه الفكرة فكرة وجوب طاعة السلطان إذا أمر بقتل المخالفين فهي غرس الأوربيين الذين أثاروا تلك الحرب بتعصبهم وهم الذين يسقون هذا الغرس وينمونه بزعمهم أنه من أصول الإسلام ثم بدعوة بعض دولهم بعضاً إلى الاتحاد على المسلمين ومعاملتهم بالقسوة ليؤمن شر تعصبهم هذا.

لا أدري أي الرأيين أضل، وأية السياستين شر؟ أرأي مسلم يظن أن اعتقاد الأوربيين بأن السلطان العثماني قادر على تهييج المسلمين على النصارى متى شاء من عوامل القوة التي ترهبهم فمن السياسة أن نمدهم في اعتقادهم هذا وإن كان خطأ عسى أن يخف ضغطهم عمن تحت سلطتهم من المسلمين ويقل تحاملهم على الدولة العثمانية؟ أم رأي أوربي أو نصراني شرقي يتهم المسلمين بالتعصب وانتهاز الفرص للإيقاع بالمخالفين عامة أو بالنصارى خاصة ويظن أن هذا من السياسة المثلى التي تعود على أصحابها بالفائدة الكبرى وتمكن لهم في الأرض، فيبلغوا ما أرادوا من سيادة

وكسب؟ ألا يجوز أن تأتي كل من السياستين بنقيض ما يراد بها فيكون إيهام المسلمين للأوربيين بأنهم مستعدون للفتك بهم عندما تحركهم إرادة السلطان جامعاً لكلمة أوربا على ابتسار الثمرة قبل إرطابها، أو اجتثاث الشجرة قبل أن تستوي على ساقها، أو يكون اتهام الأوربيين للمسلمين بالتعصب هو الذي يجمع كلمة المغربي منهم بالمشرقي، والعربي بالعجمي، ويؤلف منهم عصبية تجعل الظن يقيناً، والأماني منوناً، ولو بعد حين؟

أليس مما يذعن له كل منصف محب لخير البشر أن إنامة الفتن خير من إيقاظها، وأن إزالة الإحن خير من إثارتها، فمن أظلم ممن علم هذا فأعرض عنه واستبدل التفريق بالتأليف، وأغرى القوي بالضعيف، أو شغل الضعيف عن قوته الذاتية، وحمله على معاداة حكومته الحقيقية، أولئك المفرقون فريقان – هذا يقول لأوربا إن المسلمين متعصبون، فخذيهم بالعذاب لعلهم يرجعون، وهذا يشغل من تسوسهم أو تسودهم أوربا عن قوتهم الذاتية، ويعلق أمانيهم بالدولة العثمانية. ونحمد الله أنه لم يوجد في جرائدنا من ينفر المسلمين من النصارى كافة كما يوجد في الجرائد الإفرنجية والمتفرنجة من ينفر النصارى من المسلمين كافة بدعوى أن المسلمين متعصبون عليهم، إذاً لوقعت الواقعة، فكانت خافضة رافعة.

أما ميل المصريين إلى الدولة العثمانية في مسألة العقبة وفي غيرها من المسائل فليس من العدل أن يجعل بمجرده من التعصب الديني الذي يخشى منه على غير المسلمين عامة وعلى الأوربيين خاصة لأن الدولة دولتهم باعتراف إنكلترا وسائر دول أوربا على أنهم لا يرضون بترك استقلالهم لها ولا هي تطمع بذلك، ثم إن موضع العقبة من جزيرة العرب وكونه سيكون باباً للحرمين الشريفين بجعله محطة لسكة الحديد الحجازية واعتقادهم الديني في الحرمين معروف، فإذا كانوا لا يرضون بأن يكون الحرمان وما هو حرم

لها من الجزيرة تحت سلطة أجنبية فهم معذورون، لأن هذه الأرض المقدسة بمنزلة المساجد عندهم وأي متدين في العالم يرضى بأن تكون معابده ومعاهده المقدسة تحت سلطة المخالف له في دينه؟ أوليس القائل بأن هذا من التعصب هو أشد الناس غلوًّا في التعصب وأجدرهم بمثل «رمتني بدائها وانسلت»؟

إن أكثر الذين يرمون المسلمين بالتعصب ينطقون بلسان السياسة وللسياسة سريرة لا تعلم، ولغة لا تكاد تفهم، فهي ككتب الجفر لا يعلم ما تطبق أو تنطبق عليه إلا بعد وقوعه. فإذا كانت السياسة تريد عملاً يتوقف على رمي المسلمين بالتعصب فهي ترميهم به تمهيداً لذلك العمل فلا كلام لنا مع أهلها في ذلك لأننا لسنا من أهل الشورى في سياستهم، فنقول هذا ضار بنا أو بكم وهذا نافع لنا أو لكم أو نحن فيه سواء، إذ ربما كانوا في هذه الحال يشكون من التعصب ظاهراً ويبغون في الباطن إيجاده إن لم يكن موجوداً، وحينئذ ندع للمستقبل خطابهم فهو أقدر على إقناعهم. وإن كانوا يقولون ذلك معتقدين له ومتبرمين منه فإننا نقول لهم بلسان الصدق كلمة ربما كانت مزيداً في علمهم الواسع لا يمتغنى عنه.

إننا لا ننكر أننا نحب أن يكون حكامنا منا فإن هذا من خصائص البشر مهما انحطوا ولا نراكم تعيبوننا وتعاقبوننا على كوننا من البشر، أو تريدون بتسمية هذا تعصباً إلا أننا نتربص الدوائر بمن يحكمنا من غيرنا لنثور عليه وهؤلاء مسلمو روسيا حجة عليكم تشاهدونها الآن فهم لم يفعلوا بحكومتهم المستبدة عند الفرصة ما فعل غيرهم ولا تنسون ما فعل بعض نصارى البلقان من قبل وما يفعلون الآن في مكدونية، إن نحن إلا بشر مثلكم نحب مصلحتنا ونغار على حقيقتنا على أننا أصفى أهل الملل قلوباً وأسلم عاقبة.

إن كنتم تودون الوفاق والجمع بين مصلحتنا ومصلحتكم فإن ذلك ممكن لا يحول دونه تعصب ديني ولا غيره ونحن مستعدون لبيان أقرب الطرق إليه إن شئتم. وإن كنتم تبغون الأثرة فينا والافتيات علينا وتعدون عدم الرضى بذلك سراً وجهراً من التعصب فاعلموا أننا متعصبون لأن طبيعة البشر قد جبلت على النفرة من المتسلط الذي يستأثر بالمصالح والمنافع فلا يسمح مختاراً بشيء منها للمتسلط عليهم إلا إذا كان انتفاعه يتوقف على ذلك السماح وإن كان متفقاً معهم في الجنس واللغة والدين والوطن فكيف إذا كان مخالفاً لهم في كل شيء؟ إذا لا علاج لهذه النفرة إلا العدل والمساواة والتوفيق بين المصالح، وبهذه المزايا ساد الإسلام أكثر شعوب الأرض في أقل من قرن واحد ونراكم لا ترضون بمساواتنا في بلادنا التي تحكمها بلَه بلادنا التي وقعت في حكمكم ثم تقولون إن ديننا جاء بالتعصب على أنه كان يساوي أخس رجل من المخالفين بأعظم سيد في المسلمين كعلي بن أبي طالب وإننا متعصبون لأننا لا نرقص طرباً لامتيازكم علينا وترفعكم عن مساواتنا!!!

(ذلك شأن القوة تقول ما تشاء وتفعل ما تشاء ولا تخشى معارضاً فجازى الله رؤساءنا الذين أذلونا بظلمهم وجهلهم واستبدادهم وأضعفوا حجتنا كما أضعفوا سلطتنا حتى صار بعض الأجانب أرحم لنا منهم فهو يدل علينا بعدله الإضافي ولولا ذلك الإذلال لما كان هذا الإدلال).

وجملة القول - إن الإسلام أعدل الأديان وأرحمها بالمخالف. فوصف الإفرنج ومقلديهم إياه بالتعصب المذموم ظلم منهم المعتقد له سياسة ومنهم المقلد للقسوس وللسياسيين فيه - وإن المسلمين إذا كانوا لا يسلمون من التعصب فهم أقل تعصباً لا سيا في هذه البلاد من جميع أهل الملل العائشين معهم - وإن الإفرنج والمتفرنجين هم الذين أيقظوا شعور التعصب فيهم

بأقوالهم وأفعالهم ولذلك ترى العارفين بلغة من لغات أوربا والمتعلمين في مدارسها أقرب إلى التعصب من المتعلمين في الأزهر – وأن هذا التعصب لا يخشى منه على أحد من غير المسلمين في مصر ولا في غيرها إلا إذا اتحد النصارى كلهم على محاربة المسلمين وإزالة ملكهم – وأن السلطان نفسه لا يقدر على الأمر بالنفير العام في غير هذه الحالة إذ لا يفتيه شيخ الإسلام ولا غيره من العلماء بجواز اعتداء المسلم على من لم يعتد عليه لأن هذا مخالف لنص القرآن – وأن وزير الإنكليز قد عنى بالتعصب ما ذكرنا تبعاً للورد كرومر وهما يعتقدان أنه قد تهيج في مصر أيام حادثة العقبة وأنه كان يخشى من الفتن لو اشتد النزاع وطال أمده فاحتياط إنكلترا كان من العقل والسياسة – وإنا نعتقد أنه لم يكن هناك خطر على الأوروبيين – وأن حادثة دنشواي لا علاقة لها بتعصب الفلاحين ولا بمسألة العقبة وإنما كانت جرأتهم على الضباط احتماء مجرداً من كل شائبة ما عدا خشونة القوم المعهودة في دفاعهم عن حقيقتهم، وأن إنكلترا قست في عقوبتهم لكيلا يتجرأ غيرهم على مثل فعلهم – وأنها خسرت بهذه القسوة معظم ما ربحته في السنين الطويلة من الميل إليها والأنس بحكمها إلا أنها خسارة تزول وقسوة تنسى إذا حسنت الحال بعدها – وأن المصريين أشد المسلمين تساهلاً وأقربهم للمخالف في الدين مودة.

هذا وإن المسلمين ثلاثة أصناف: المشتغلون بعلم الدين كأهل الأزهر والمشتغلون بعلوم أوربا والعوام. فأما الصنف الأول فيعتقدون أن الذميّ والمعاهد وهو مَنْ بيننا وبين دولته عهد سلمي كأهل أوربا الآن والمستأمن وهو من دخل من الحربيين بلادنا بتأمين منا – وإن شئت قلت يعتقدون أن جميع المخالفين لنا في الدين غير المحاربين – يحرم الاعتداء عليهم وإيذاؤهم بل تجب علينا حمايتهم ممن يريد الاعتداء عليهم ولو بمقاتلته

والنفقة عليهم عند الاضطرار، وتستحب النفقة عليهم إذا كانوا فقراء، ومنتهى ما عند هؤلاء مما ربما يؤخذ عليهم في هذا العصر هو عدم الائتلاف والانبساط مع المخالف لعدم العادة. وأما العوام وهم الصنف الثالث فإنهم كما قلنا يعتقدون أن السلطان إذا أمر بالاعتداء على كل مخالف وجبت طاعته لا سيما إذا حمل راية الرسول صلى الله عليه وسلم وهم فيما عدا هذا الاعتقاد أقرب إلى سلامة القلب وأبعد عن عداوة المخالف من عوام سائر الملل. وهذا الاعتقاد لا يخشى ضرره وجعله مثاراً للفتن إلا في الحالة التي أشرنا إليها وهي قيام النصارى كافة على المسلمين، ولن يكون ذلك. فإن كان فالمتعصب هو المعتدي والعوام يتبعون علماء الدين. فإذا حدثت أمور يخشى معها اعتداء العوام على غيرهم فإن علماء الدين يقدرون على دفع كل مخشي بالخطب في الجوامع وفي الجرائد مثل هذه البلاد، فإذا كتب كبار علماء الأزهر في الصحف المنشرة أن العدوان حرام امتنع العدوان وكان ذلك أفعل من كثرة الشرط والجنود.

وأما الصنف الثاني في الذكر أعني المتعلمين للعلوم الأوربية فأكثرهم لا يمتازون عن العوام في علمهم وشعورهم بالدين ومنهم المارق منه ولكنهم أشد حرصاً على السلطة من غيرهم ولا شيء ينفخ فيهم روح التعصب لها مثل وقوفهم على مطامع الأوربيين، وسماعهم لأقوالهم في المسلمين، فهم يميلون إلى التعصب سياسة لا تديناً. ولكن روح تساهل الإسلام غالب عليهم حتى لا يسلم منه المارق منهم، وإنني سمعت غير واحد من كبار رجال الحكومة ومتوسطيهم يقولون: إنهم يتهموننا بالتعصب يا ليته كان صحيحاً: فليعلم الأوربيون أن أبعدنا عن التعصب أقربنا من الدين، وأدنانا منه أجهلنا بالدين وأعرفنا بأهل أوربا في علومهم ومدنيتهم لا سيما من ذاق حفظها منا. فمثار التعصب أوربا لا الإسلام نفسه، وإذا ظلت أوربا على اتهامنا

والافتيات علينا في شؤوننا فيوشك أن يجيء يوم يكون في استطاعتها أن تجمع بين مصلحتها ومصلحتنا ولكن بعد استشارة أهل الرأي منا وعدنا من البشر الذين يشعرون ويعقلون، ويسرون ويألمون، ولله في خلقه شؤون، وهو يعلم ما لا نعلم ولا يعلمون.

منافع الأوربيين ومضارهم في الشرق، الاستبداد[1]

أتى على الشرق حين من الدهر كان يعبد فيه الملوك عبادة حقيقية ويسميهم آلهة ويدعوهم أرباباً وهو لم يسلم من هذا الاعتقاد سلامة تامة عامة إلى اليوم، ثم ارتقى بعض شعوبه إلى الاعتقاد بأن الملوك ليسوا آلهة خالقين ولكنهم أصحاب سلطة إلهية وسيادة ربانية تجب طاعتهم عدلوا أو ظلموا، وتقديسهم أساءوا أو أحسنوا، ثم جاء الإسلام بإصلاح جديد، فجعل أمر المؤمنين شورى بينهم وأمر أصحاب الرأي السديد، والمعرفة بالمصالح العامة واجب الامتثال في سياسة الأمة وإدارتها حتى لا يطمع فرد من الأفراد بالاستئثار بالسلطة والاستبداد بالأمر. وجرى النبي صلى الله عليه وسلم في سياستهم على هذه القاعدة فكان يقدم رأي أصحاب الرأي المعبر عنهم بأولي الأمر على رأيه كما فعل يوم أحد، إذ كان صرح بأنه لا يرى الخروج إلى حرب قريش حتى تصل إلى المدينة، ورأى أصحابه الخروج، فعمل برأيهم وكما فعل يوم بدر والأحاديث في ذلك كثيرة شهيرة. ولكن الشرق لم يكن تم استعداده لهذا الإصلاح الأعلى لما بيناه في مقال (طبيعة الاجتماع في الحاكمين والمحكومين) لذلك تسنى لبني أمية أن يعبثوا به ويزيلوه في زمن قريب.

ولي أبو بكر رضي الله عنه أمر المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فخطب الناس وقال: ولِّيت عليكم ولست بخيركم فإذا استقمت فأعينوني

(١) المنار، المجلد ١٠، الجزء ٤، ص ٢٧٩ – ٢٨٤ – تاريخ ١١ يونيه (حزيران) سنة ١٩٠٦.

وإذا زغت فقوّموني؛ وولي عمر رضي الله عنه فقال نحو ذلك في خطبته. ومن المشهور المستفيض على الألسنة أنه لما قال على المنبر: من رأى منكم فيّ عوجاً فليقومه: قام رجل فقال لو رأينا فيك عوجاً لقوّمناه بسيوفنا فقال: الحمد لله الذي جعل في المسلمين من يقوّم عوج عمر بسيفه. ومما روي عن عثمان رضي الله عنه أنه قال على المنبر «أمري لأمركم تبع» وقال في أول خطبة خطبها بعد أن ولي الخلافة «ألا وإن لكم عليّ بعد كتاب الله عز وجل وسنّة نبيه ثلاثاً – اتباع من كان قبلي فيما اجتمعتم عليه وسننتم – وسن سنّة أهل الخير فيما لم تسنوا عن ملأ، والكف عنكم إلا فيما استوجبتم».

فانظر كيف قيد اتباع من كان قبله بكونه فيما اجتمعوا عليه وسنوه فهو دليل وراء الأدلة العملية، على أن أبا بكر وعمر كانا يأخذان برأي الأمة، فيما لم يرد به الكتاب ولم تمض به السنّة، وتأمل قوله «فيما لم تسنوا عن ملأ» والملأ الجماعة من أهل الرأي والمكانة في الأمة وهم بمعنى النواب.

أما سيرة علي كرّم الله وجهه ورضي عنه فهي على تلك السنّة ما غيّر ولا بدل ولا رغب في الدنيا ولا جنح إلى زخرفها ولكن نزا عليه بنو أمية أعداء بني هاشم في الجاهلية والإسلام وكان من أمرهم ما كان ولا محل لشرحه في هذا التمهيد. وإنما غرضنا أن نقول إنهم استبدوا عملاً وما عتّموا أن جهروا بالخروج عن سنن الإسلام في حكمه قولاً إذ قال خطيبهم عبد الملك بن مروان على المنبر «من قال لي اتق الله ضربت عنقه» فتحولت الحكومة إلى استبدادية كانت على حسب سيرة الحاكم الأعلى الملقب بالخليفة أو الملك فتارة يكون عادلاً كعمر بن عبد العزيز وتارة يكون جائراً وتارة متوسطاً، وكان معظم ظلمهم وظلم من بعدهم لمن يأنسون منه سخطاً من سلطتهم أو مقاومة لها وسائر الناس في راحة وأمان، يتقدم به العلم ويزهو العمران، حتى استدار الزمان، ورجع الشرق إلى نحو ما عليه كان.

أخبار المماليك يقلّ في القارئين من لا يعرفها، وسيرة إسماعيل باشا لم يمت جميع من ذاقوا مرارتها، ومفاسد بايات تونس مأثورة، ومنكرات دايات الجزائر غير منكورة، كان من هؤلاء من يعاقب الناس الذين يحل عليهم غضبه ولو لحفظ عرضهم من فسقه بإحدى ثلاث: الخازوق أو ترديته من أعلى جبل قسنطينة أو إغراء كلاب عاقرة به تنهشه وتمزق لحمه حتى يموت شر ميتة. كان هذا قبيل إغارة فرنسا على الجزائر. ولا يجهل أحد من قراء الصحف حال بقية الممالك التي لما تؤثر فيها حالة الأوربيين ولم تحملها على تغيير سلطتها الاستبدادية، إما لجهلها بها لعدم الاختلاط بهم واقتباس علومهم والوقوف على حال حكوماتهم كمراكش وإما لأن السلطة الاستبدادية فيها لا تزال أقوى وأقدر على منع العلم عن الجاهلين، مع مطاردة طلاب الإصلاح من العارفين، كما هو شأن الحكومة العثمانية.

إن محاربة الآستانة للعلم والدين، ومطاردتها للعقلاء والعارفين، لفوق ما يتخيل المتخيلون، لأنها أضعاف ما يروي الراوون. إن أكثر المطبوعات العربية الجديدة التي تعد في مصر من آيات الارتقاء التي استعدت أو تستعد بها الأمة لأن تحكم نفسها بنفسها هي في الولايات العثمانية من أشد الجنايات وأعظم الجرائم، تضطرب لذكرها القلوب وترتعد الفرائص حتى من أولئك الذين يسفكون الدماء بالأسواق في وقت الضحى، لأن سافك الدم كثيراً ما يسلم بالرشوة أو المحاباة، وإذا حوكم لا تتبرأ منه المحاماة، وإذا حكم عليه يدركه العفو في أحد الأعياد بعد عشر سنين أو أقل، أما من يتهم باقتناء كتاب مما يعد منبهاً للأفكار أو بطلبه من مصر فلا يتجرأ أحد على الدفاع عنه، ولا على الارتشاء منه، ولا يؤخذ منه عدل ولا تنفعه شفاعة.

كم من عالم عامل، ومن غيور فاضل، يئن في ظلمات السجن لا يتجرأ أحد على ذكره ولا السؤال عنه، وكم من عالم وغيور أخرج من داره، ونفي

إلى حيث لا يسمع أهله وولده بذكره، وما كنت عازماً على الإشارة إلى مثل هذا لولا أن ألقي إليّ قبل هذه الكتابة رقيم من الحجاز فيه أن أمير مكة جلد بعض أهل العلم مئة جلدة على مشهد من الناس ثم كبله في السلاسل والأغلال لأنه كتب كتاباً في التوحيد قال فيه إن الأمر كله لله لا ينبغي أن يطلب الخير ودفع الضر من غيره عز وجل بعد العجز عن الأسباب التي سنها واستعمال القوى التي وهبها فصار إظهار التوحيد الخالص ممنوعاً بهذه الحكومة في حرم الله، وقد كان أعظم مظهر له في أرض الله.

هذا واليابان تفاخر أوربا بالحرية والعدل وحكم الشورى وإيران تحاول مجاراتها في ذلك ومصر لا حديث لها إلا المجلس النيابي. فمن أبنائها من يلح بطلبه الآن ومنهم من يقول يجب أن نعدّ له أولاً عدته؛ ونكتفي الآن بتوسيع اختصاص مجلس الشورى ومجلس المديريات. وقد سبقهم العثمانيون إلى المطالبة بإعادة القانون الأساسي ومجلس المبعوثان (أي النواب) وترى أهم حديث للجرائد التونسية في هذه الأيام حديث مجلس الشورى عندهم والمطالبة بإنصاف التونسيين من الأوربيين.

لكن الفرق بين المصري وأخيه العثماني أن الأول يجهر بطلبه في بلده ويناقش حكومته جهراً في المجالس الرسمية وفي الجرائد وفي المحافل العامة والخاصة وقد يطعن عليها وعلى القوة المشرفة عليها وهي تبيح له ذلك والعثماني لا يتجرأ على الحديث بذلك في بلاده وإن كان في كسر بيته قد أغلقت دونه الأبواب، وأرخيت عليها السجوف والأستار، لأنه أعلم الناس بالمثل القائل «للحيطان آذان» وهو لا يأمن على نفسه الأهل والجيران، لأن الاستبداد، قد أفسد الناس أي إفساد، حتى صار الرجل الحر يفر من أخيه، وأمه وأبيه، وفصيلته التي تؤويه (هكذا)، وإنما يجهر بذلك في أوربا

ومصر، وكل بلاد ليس فيها لأبناء جنسه سلطان ولا حكم.

فأعظم فائدة استفادها أهل الشرق من الأوربيين معرفة ما يجب أن تكون عليه الحكومة واصطباغ نفوسهم بها حتى اندفعوا إلى استبدال الحكم المقيد بالشورى والشريعة بالحكم المطلق الموكول إلى إدارة الأفراد فمنهم من نال أمله على وجه الكمال كاليابان، ومنهم من بدأ بذلك كإيران، ومنهم من يجاهد في سبيل ذلك بالقلم واللسان، كمصر وتركيا.

ليست هذه الفائدة بالشيء التافه ولا بالأمر اليسير ولا هي بالمنفعة التي تقرن بالنظائر بل هذه مرتبة البشرية العليا، في هذه الحياة الدنيا، فإن القوم الذين يرضون أن يستبد بهم حاكم يفعل فيهم ما يشاء ويحكم بما يريد ينبغي أن يعدوا من الدواب الراعية، والأنعام السائمة، إذن هذه الفائدة هي عبارة عن الارتقاء من حضيض البهيمية، إلى أفق الإنسانية، فحسب الشرق إن استفاد هذه الفائدة وعرف قيمتها.

لا تقل أيها المسلم إن هذا الحكم أصل من أصول ديننا، فنحن قد استفدناه من الكتاب المبين، ومن سيرة الخلفاء الراشدين، لا من معاشرة الأوربيين، والوقوف على حال الغربيين، فإنه لولا الاعتبار بحال هؤلاء الناس لما فكرت أنت وأمثالك بأن هذا من الإسلام ولكان أسبق الناس إلى الدعوة إلى إقامة هذا الركن علماء الدين في الآستانة وفي مصر ومراكش وهم هم الذين لا يزال أكثرهم يؤيد حكومة الأفراد الاستبدادية ويعد من أكبر أعوانها، ولما كان أكثر طلاب حكم الشورى المقيَّد هم الذين عرفوا أوربا والأوربيين، وقد سبقهم الوثنيون إلى ذلك. ألم تر إلى بلاد مراكش الجاهلة بحال الأوربيين كيف تتخبط في ظلمات استبدادها ولا تسمع من أحد كلمة «شورى» مع أن أهلها من أكثر الناس تلاوة لسورة الشورى ولغيرها من

السور التي شرع فيها الأمر بالمشاورة وفوض حكم السياسة إلى جماعة أولي الأمر والرأي.

فإن قلت إن أول من نبه المصريين إلى حقوق الأمة على الحاكم وإلى فضل حكومة الجمهورية والملكية المقيدة على الحكومة الاستبدادية شيخان من شيوخ الدين وإمامان من أئمة الإسلام وهما السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده، وإنك أنت قد نشرت في «المنار» مقالات للسيد في «الحكومة الاستبدادية» كانت مما نشره هو في بعض الجرائد على عهد إسماعيل باشا، وهي تحرك الجهاد وصرحت في ترجمة الشيخ بأنه كان يدعو إلى ذلك وأنه قال بل كتب عن نفسه هذه الكلمة الجليلة «دعونا إلى هذا والاستبداد في عنفوانه، والظلم قابض على صولجانه، ويد الظالم من حديد، والناس كلهم عبيد له أي عبيد». وقد كان مضى على المصريين أكثر من نصف قرن وهم يتدارسون علوم أوربا ويشتركون مع الأوربيين في كثير من الأعمال ويتزاحمون معهم بالمناكب ويتبادلون بالأموال، ولم يخطر في بالهم أن يقلدوهم بإصلاح الحكومة والسيطرة عليها.

إن قلت هذا محتجاً على أننا نحن المسلمين، قد اقتبسنا فائدة مقاومة الاستبداد من الدين، فإن لي أن أجيبك عن ذلك بأنني لا أنكر أن ديننا يفيدنا ذلك كما رأيت في مقدمة هذا المقال. كيف وأنني لم أطلع على كتابة لأحد في ذلك أوسع مما كتبته في «المنار» وأنني مطلع على سيرة هذين الإمامين الحكيمين وعالم بأنهما كانا قد عاهدا توفيق باشا قبل أن يصير الأمر إليه على نصره، وعاهدهما هو على إنشاء مجلس نيابي وعلى تعميم التعليم في القطر المصري، ومع هذا كله أقول إننا لولا اختلاطنا بالأوربيين لما تنبهنا من حيث نحن أمة أو أمم إلى هذا الأمر العظيم، وإن كان صريحاً جلياً في القرآن الحكيم. نعم إن استاذينا الحكيمين رحمهما الله تعالى أهل

لأن يفهما ذلك من القرآن، لأنهما أول من دعا في هذا العصر إلى جعله أساساً للإصلاح، وبينا من حكمه وفضله، ما عجزت الأوائل عن الاتيان بمثله، ولكن كلامنا في تنبه الشعوب الشرقية على اختلاف مللها ونحلها، لا تنبه فيلسوفين من أهل ملة منها، على أن هذين الحكيمين قد استفادا من الاعتبار بحال أوربا وعرفا حال أهلها قبل دعوتهما إلى هذا الإصلاح.

لا ينبه الأمة إلى مثل هذا التغيير العظيم إلا الإحساس بالخطر والخوف من سوء العاقبة ورؤية العبر بأعينها، وسماع أخبار الذين صرعوا الاستبداد من قبلها، ولذلك نقول إننا ما عرفنا قيمة هذه الفائدة إلا بعد أن أحسسنا بالغائلة التي تقابلها وهي مواثبة استقلالنا والاعتداء عليه وهي ما سنبينه في قسم المضار إن شاء الله تعالى.

العِبر الأربع[1]

مَنْ تأمّل كلام اللّورد في هذا الفصل وتلك الشّذرة، استفاد منه ضروباً مِن العِبْرة والحِكَم تدلّ على أنّ هذا الرجل الاجتماعي الكبير قد علم من شؤون المسلمين، وهو أجنبيّ، ما لم يعلمه الرؤساء من علمائهم وأمرائهم، فضلاً عن أوساطهم ودهمائهم، فرأينا أن نبيّن ذلك مع شيءٍ من الشّرح والرّأي.

أ- العبرة الأولى: بيانه لحال المسلمين

ذلك أنّه قسم المسلمين إلى ثلاثة أقسام: الأول، المتنطّعون المحافظون على كل قديم جروا عليه، وهم السواد الأعظم، ونقول إنه قد بلغ من تنطعهم في جمودهم على ما ألفوا أن كان من أشد الصعوبات التي لاقتها الدولة العلية في سبيل التعليم العسكري في طرابلس الغرب محافظة الأهالي على زيّهم المعروف وحسبانه من أمور الدين، وأن أهل مراكش لأشد تنطعاً وجموداً على ذلك، ولا يخفى على من شاهدوا حركات العساكر في الحرب أو في التعليم أن لبس البرنس والرداء المعروف بالحرام من عوائق خفة الحركة وموانع إتقان كثير من الأعمال التي تتوقف عليها البراعة العسكرية. ولا يختلف عاقلان في

(١) تعليق محمد رشيد رضا على جانب من تقرير اللورد كرومر عن مصر والسّودان لسنة ١٩٠٥، (المنار، مجلّد ٩، جزء ٤، ص ٢٧٦ - ٢٨٨ (٢٤ أيار ١٩٠٦). ولم نجد فائدة في إثبات النصّ، لأنّ مضمونه الذي يهمّنا، بَيّنٌ في هذا التّعليق. وقد رأينا أن نتصرّف قليلاً في العناوين الفرعيّة، عدا أنّ العنوان الأساسي من وضعنا. (م.م).

كون البراعة في الأعمال العسكرية ومن أهمها خفة الحركات والنظام في النقل والانتقال هي أعظم أسباب الفوز والظفر. فهذه عادة ليست مما توجبه عقائد الدين ولا عباداته ولا فضائله وآدابه قد صارت عقبة كؤداً في طريق رقي المسلمين، وعزة الإسلام وحماية الدين، فما بالك بغيرها من العادات، التي تقوم على إلحاقها بالدين بعض الشبهات، وهذا القسم من المسلمين تابع في صلاحه وفساده لشيوخ العلم الديني وشيوخ الطريق الذين ينتمون إلى الصوفية، فهو لا يصلح إلا إذا صلحوا وأصلحوا أو زال اعتقاده بزعامتهم الدينية وقيض له بعد ذلك مصلحون آخرون.

(القسم الثاني) المتفرنجون الذين ليس لهم من الإسلام إلا اسمه، ولله درّه ما أدق فكره إذ عرف أنهم مارقون من الدين ساقطون من نظر الاعتبار لا قيمة لهم في أنفسهم، ولا صوت لهم في أمتهم، وسنعود إلى ذكر ذلك.

(القسم الثالث) المصلحون الذين يريدون إصلاح حال المسلمين الاجتماعية مع المحافظة على الدين لعلمهم أن كل فساد طرأ عليهم فمنعهم عن مجاراة الأمم في أسباب العزة والقوة إنما هو من العادات والبدع لا من جوهر الدين.

وقد أدرك اللورد بصائب فكره أن هذا القسم هو الوسط الذي يرجى خيره بين المتنطعين في جمودهم والمتهتكين في تفرنجهم. قال إن هذا الحزب معروف في الهند أكثر مما هو معروف في مصر وإن منه السيد أحمد خان مؤسس مدرسة عليكده الكلية منذ ثلاثين عاماً. ونقول إن الزمن الذي قام فيه أحمد خان بعمله هذا هو الزمن الذي كان السيد جمال الدين الأفغاني يبذر فيه بذور الإصلاح في مصر بمساعدة الشيخ محمد عبده الذي تلقى عنه وتخرج على يديه (وترى في هذا الجزء مقالتين من المقالات الإصلاحية التي تلقاها عنه ونشرها في جريدة مصر التي كانت أنشئت

بإرشاده). وكان السيد جمال الدين فيما نظن أقدر من السيد أحمد خان على الإصلاح لولا أنه فتن بالسياسة فحالت دون إتمام عمله في مصر ولم تمكنه من عمل يذكر في غيرها سوى ما كان يكتبه في أوربا من المقالات الموقظة. لذلك كان الأستاذ الإمام حازماً بأن مسالمة السياسة واتقاءها شرط للتمكن من الإصلاح كما بينا في ترجمته. وغرضنا من هذه الكلمات بيان أن مسلمي الهند لم يسبقوا مسلمي مصر إلى الاشتغال بالإصلاح وإنما فاقوهم بمدرسة العلوم الكلية التي أسسها أحمد خان وقد عزم الأستاذ الإمام أن يؤسس في مصر مدرسة خيراً منها لكن المنية عاجلته قبل ذلك فقد مات قبل وقته كما قال اللورد وقال كل عاقل عرفه.

وليعلم مسلمو مصر أن مدرسة العلوم في عليكده لم تنجح إلا لأن مؤسسيها كانوا من عهد زعيمهم السيد أحمد خان إلى الآن على وفاق مع السلطة الإنكليزية وتحسين للظن بها فكانوا خيراً لملتهم ممن جعلهم سوء الظن والكره بين معادٍ لعلوم الإفرنج النافعة وبين خائف من كل عمل لملته، وأن الأستاذ الإمام كان على هذا الرأي، أي أنه لا بد لنا من العمل النافع للإسلام والمسلمين مع تحسين الظن بأن الإنكليز لا يعارضوننا في ذلك ولا يمنعوننا مما ينفعنا إلا إذا أدخلنا فيه السياسة، وقصدنا مضارّتهم ومقاومتهم، وحينئذٍ نكون أضرّ على أنفسنا وأنفع لهم كما هي سنَّة الله تعالى في كل جاهل ضعيف يقاوم عالماً قويًّا. وسأوضح هذه المسألة في موضع آخر.

أما ما أشار إليه اللورد من معارضة المسلمين للسيد أحمد خان وحزبه فلا يتوقع نظيره من مسلمي مصر فإن أولئك كانوا يعادون جميع العلوم التي يصفونها بالجديدة أو بالأوربية ويعدونها آفة الدين، والمصريون ليسوا كذلك وإنما كان المتنطعون من أهل الجمود يخافون الأستاذ الإمام على الدين من جهة تعليمه للدين إذ كانوا يظنون أنه ينصر مذهب الفلاسفة أو المعتزلة

على مذهب أهل السنَّة، فلما قرأ العقائد والتفسير في الأزهر زال ذلك الظن بتمادي السنين وعلم أهل الأزهر كافة أنه ينصر مذهب السلف على كل مذهب يخالفه ولا يقدم على ما نطق به الكتاب ومضت به السنَّة النبوية قولاً لقائل. فانحصرت بعد ذلك معارضة الإصلاح الذي كان يحاوله فيمن يعرف اللورد وغيره من أهل البصيرة أنهم إنما يعارضونه لأسباب شخصية بل صرح اللورد بذلك. لهذا كان كل شيء يخترعونه للطعن فيه يكون سبباً لزيادة عرفان الناس بفضله، حتى أن السواد الأعظم من الأمة المصرية صار معه في أواخر مدته. ولا ينافي هذا قول اللورد أن مريدي الشيخ وأتباعه الصادقين قليلون فإنه يعني بهذا الصادقين في طلب الإصلاح والعارفين بطرقه وهم قليلون بالطبع، ولكن الذين يوافقونهم ويحسنون الظن في طريقتهم كثيرون جداً بل هم الأكثرون. فعسى أن يوفقهم الله للمضي في العمل الذي كان إمامهم متوجهاً إليه وعند ذلك يظهر صدق قولنا لا سيما إذا علم الناس أن الحكومة وما وراءها من القوة راضية أو غير ساخطة على عملهم.

بلغ من مقاومة السيد أحمد خان أن كان يطعن فيه على المنابر واستفتى بعض علماء الحرمين في أمره فأفتوا بكفره ولم تبلغ مناهضة الأستاذ الإمام في شدتها هذا المبلغ. ذلك بأنه كان أقدر على الاحتجاج بالدين لما يدعو إليه وأبعد من السيد أحمد خان عن الشذوذ، وأن مناهضيه أقل غباوة وأضعف إرادة، والأمة أنبه منهم وأقرب إلى قبول الإصلاح من أهل الهند.

ب- العبرة الثانية: ثناؤه على الإمام

صفوة العبرة الأولى أن اللورد عارف من أحوال المسلمين ما لا يعرفه أمراؤهم وعلماؤهم فيعتمد بقوله فيهم. وأما العبرة الثانية فنريد بها ما في ثنائه على الرجل وحزبه من الإنصاف وعرفان الفضل لأهله وما في تنشيطه

لهذا الحزب من قصد الخير وقد زاد هذا الثناء قيمة صدوره بعد نشر كتاب (مصر الحديثة) الذي وضعه كاتب إفرنجي اسمه (غورفيل) وطبعه باللغتين الإنكليزية والفرنسية، وقد اشتهر الكتاب بفصل فيه معزوّ إلى فقيدنا المرحوم، فيه انتقاد شديد على الحكومة المصرية والمحتلين الذين يدبرون أمرها ويديرون دفتها، وقد ترجمته أكثر الجرائد العربية اليومية، ولكن الرجال العظام تبني أحكامها على الصفات والأعمال، لا يصدها عن مقاصدها قيل وقال. واللورد ونظار الحكومة ومستشاروها قد تعودوا من فقيدنا المرحوم قول الحق الذي يعتقده في كل ما يخاطبهم به خطاباً رسمياً أو غير رسمي وناهيك بتقريره عن المحاكم الشرعية وبمناقشته لناظر المعارف في مجلس الشورى في انتقاد التعليم بمدارس الحكومة. وقد كان اللورد العظيم يضع آراءه غير الرسمية موضع الاعتبار كرأيه في ضرر إلغاء النيابة العمومية وكانت الحكومة قد عزمت على ذلك وكادت تنفذه فرجعت عنه.

فهل يعتبر بهذا رجالنا الذين يمنعهم الجبن أن يقولوا لكبراء المحتلين ما يعتقدون في المصالح والأعمال؟ ألا يكفيهم ثناء اللورد والمستشار القضائي على الأستاذ الإمام بما أثنيا به بعد موته واحترامها وسائر كبراء المحتلين له في حياته برهاناً على أن القوم رجال جد يجلُّون من يقول الحق في السر والجهر ويعمل بالإخلاص في الخفية والعلن سواء وافق رأيهم أو خالفه ما لم يكن حرباً لهم، وأنه لا قيمة لأهل الدهان والرياء في أنفسهم وحسبنا هذا الإيجاز في هذا المقام.

هذا وليعلم الذين يقولون إن اللورد لم يكتب في الرجل أكثر مما يجب أو ينتظر أو لم يوفه حقه أن تقرير اللورد ليس تاريخاً لمصر ولا كتاباً في مناقب العلماء والحكماء وإنما هو تقرير رسمي عن مالية مصر والسودان وإدارتها وحالتها العمومية. فالذي ينتظر أن يقال فيه عن مفتي الديار المصرية إنه

رجل جليل مصلح قد قام بأعماله في الحكومة خير قيام، أو ما في معنى هذا الكلام، ولكن اللورد قد زاد على ذلك ما رأيت في الكلام عن حزب الرجل وتفضيله على سائر المسلمين وتنشيطه وحثه على ترقية المقاصد التي كان يرمي إليها إمامه.

وإنني رأيت مريدي الأستاذ الإمام شاكرين للورد ما كتبه قادرين إياه قدره راجين أن يصدق عليهم ظنه الحسن.

جـ- العبرة الثالثة: حثه الأوروبيين على تنشيط هذا الحزب

إني لأعلم أن من الناس من يعجب لقول اللورد «فأتباع الشيخ حقيقون بكل ميل وعطف وتنشيط من الأوربيين» وبعضهم يضعه موضع الظنة لاعتقاد المسلمين أن الأوربيين أعداء لهم لا يريدون لهم إصلاحاً ولا خيراً ما وإنما يريدون الخير لقومهم خاصة فكيف يحث اللورد أهل أوربا كافة على تنشيط حزب مصلح ينفع المسلمين بل لا ينفعهم غيره كما قال. والجواب عن هذا الإشكال لا يفهمه إلا من عرف كنه الفتح أو الاستعمار الأوربي، وقد سبق لنا فيه قول ونقول هنا كلمة وجيزة فيه.

إن غرض الأوربيين من كل بلاد يدخلونها بالفتح أو باسم الحماية أو الاحتلال المؤقت أو غير ذلك من الأسماء هو الكسب، ولا ينمو الكسب إلا بالعمران، فهم ينمون عمران البلاد التي يتبوّؤنها ومن ثم سموا ذلك استعماراً. وعمران كل بلاد إنما ينمو ويعظم على قدر اتفاق أهلها مع المستعمرين عليه، وهذا الاتفاق يتوقف على أمور أولها في المرتبة معرفة كل من الفريقين للآخر ليكون في وفاقه وخلافه على بصيرة ومن كان أعلم بالآخر كان أجدر بالفوز عند التنازع مع تساوي القوة، فكيف إذا كان الأعلم والأقوى. ولكن الأوربيين لا يحبون أن ينازَعوا ويقاوموا وإن

يكونوا واثقين بالظفر، لأن ذلك يقلل من كسبهم. ومتى قبضوا على ناصية السلطة في بلاد أمنوا من مقاومتها بالقوة وانحصر حذرهم في مقاومة الأمة لهم بالفتن، فإن كل عمل يراد في البلاد يعسر تنفيذه إذا كان سواد العامة مقاوماً له، فإذا كان هذا السواد بحيث يخشى خروجه على السلطة كانت موارد الكسب على خطر.

ثم إن الأوربيين يرون أن أعظم مثار للفتن التي ربما تفضي إلى الخطر على موارد كسبهم الذي يطلبونه بنشر مدنيتهم وباستعمارهم للأرض هو ما عليه عوامّ المسلمين من الاستعداد للتهييج باسم الدين، ورب هيجة شؤمى يقوم بها بعض الدجالين الذين تعتقد العامة صلاحهم أو بعض زعماء السياسة تذهب بعمل سنين طويلة. لهذا كله كان من مصلحة الأوربيين في بلاد المشرق أن يوجد حزب نيِّر الفكر محب للإصلاح الذي يعرّف العامة بقدر أنفسهم وبنسبتهم إلى الأجانب الذين يعيشون معهم ويزلزل التعصب الأعمى في نفوسهم حتى لا يغرهم الغارون ويدعوهم إلى أعمال إن أضرت بالأجانب قليلاً فهي تضر بهم كثيراً. فالأجانب العقلاء العارفون بكنه الشرق كاللورد كرومر وأضرابه من ساسة الإنكليز يحبون هذا النوع من الإصلاح الذي ينفع المسلمين، لأنه ينفعهم هم أيضاً، لأنهم يحبون أن يكسبوا بهدوء وطمأنينة، كما قال المنار غير مرة ولكن قلما يذهب بهم الميل إلى السعي في إيجاده أو الحث عليه لأن مصلحتهم قائمة بدونه، قائمة بقوة العلم والحكمة، وقوة السلاح والوحدة، فإذا وجد فيهم من يحث عليه كانت السياسة منه تابعة للفضيلة الشخصية وما أجدر اللورد كرومر بذلك.

مثل هذا الإصلاح لا يأتي من جانب المتفرنجين، لأنهم لا قيمة لهم في نفوس السواد الأعظم لبعدهم عن الدين، فلا بد من حزب وسط بين العامة وبين المتفرنجين يكون له جانب إلى النظام والمدنية وجانب إلى الدين

النقي السالم من الخرافات التي هي مثار الفتن والآفات. ولا شك أن الحزب الذي كان يرأسه الأستاذ الإمام لا غرض له إلا إزالة البدع والأوهام التي ألصقت بالدين والجمع بينه وبين مصالح الدنيا. ومن أركان الإصلاح الذي يرمي إليه أخذ كل ما ينفعنا ولا يعارض ديننا من علوم أوربا ومدنيتها. أما العلوم الحقيقية فلا شيء منها يخالف الدين الحق، وأما أعمال المدنية فمنها النافع لنا كالجمعيات الخيرية والعلمية والدينية والأدبية والشركات المشروعة، ومنها الضار كالخمر والميسر والفجور. ويعتقد هذا الحزب أنه لا يمكن لنا القيام بهذا الإصلاح إلا باتقاء السياسة فيه واجتناب مقاومة السلطة به وبجعل مداره على تربية النفوس بالدين وترقية شأن البلاد الاجتماعي والاقتصادي وترك السياسة لأهلها. ذلك أن سياسة هذه البلاد هي عبارة عن مسألة الاحتلال، وقد سألت الأستاذ الإمام عن رأيه فيه عندما زار طرابلس منذ بضع عشرة سنة فقال إنها مسألة أوربية لا شأن لنا فيها، وإنما الشأن فيها لدول أوربا ذات المصالح في مصر مع السلطان، فإذا اتفقت هذه الدول على الجلاء كان، وهو ما لا دليل عليه الآن: هذا رأي إمامنا رحمه الله في المسألة المصرية، وقد قالت أوربا كلمتها فيها بلسان اتفاق إبريل سنة ١٩٠٤. فلماذا لا نشتغل بما يعنينا وهو في استطاعتنا من ترقية أمتنا بالتربية والتعليم ونترك ما لا طاقة لنا به ولا يأتي منه إلا الضرر، وأقل هذا الضرر تحويل قلوب الأمة عما فيه خيرها وفلاحها في دينها ودنياها وضغط أوربا عليها.

ههنا يقول المعترض سلمنا أن طريقة هذا الحزب هي المثلى في إصلاح حال المسلمين، وأن منتهى الحكمة فيها مسالمة الأوربيين، لكن مثل اللورد كرومر في بعد نظره وثاقب رأيه لا يغرب عنه أن المسلمين إذا ساروا على هذه الطريقة ارتقوا ارتقاء حقيقيًّا يحول دون دوام السلطة الإنكليزية فيهم

فكيف يركب هذا الصعب، أو يكون حادياً لهذا الركب هذا الحزب، والجواب عن هذا سهل، وهو أن طريقة هذا الحزب الجامعة بين الفائدتين في الحال قد تكون جامعة بينهما في الاستقبال، فإن الأمة إذا سارت في طريق الترقي مع المسالمة وحسن التفاهم بينها وبين هؤلاء القوم ولقيت منهم التنشيط والمساعدة على رقيها في إبان ضعفها وعجزها فهي لا تترك صداقتهم في طور قوتها وهم لا يتركون صداقتها ويمكنهم أن يربحوا منها، في طور القوة والاستقلال، أكثر مما يربحون في طور الضعف والاختلال. والإنكليز هم القوم الذين لا يعاندون الطبيعة وإنما يسايرونها ويستفيدون من كل طور من أطوارها بحسبه. ولعلي لا أكون واهماً إذا قلت إن فرنسا لو وجدت في الجزائر حزباً يعمل لترقية شأن المسلمين، مع التوفيق بين مصالحهم ومصالح الفرنسيين، لأباحت له العمل إن لم تنشطه وتساعده. على أن الإنكليز لم يساعدوا طلاب الإصلاح في مصر كما أنهم لم يقاوموهم. وما كتبه اللورد في تقريره الأخير هو أول قول رسمي سمعناه منه يدلنا على ميله إلى هذا الإصلاح، فأحببنا أن نزيل ارتياب المرتابين فيه لأن سوء ظننا بالقوم يضرنا ولا يضرهم، ومن الغباوة أن يظن أن القوي يصانع الضعيف وأن مثل اللورد كرومر يكتب مثل هذه الكتابة لدولته، ويرمي فيها عن غير قوس عقيدته، وهو يعلم أن أوربا كلها تحل آراءه محل الاعتبار، لا سيما ما كان منها أثر التجربة والاختبار، وقد سمعنا عنه منذ سنين أنه قال لبعض الكبراء وقد رغب إليه في عمل ينفع المسلمين ويرقيهم إن من لا يعمل لنفسه لا يعمل له أحد فاعملوا ونحن نساعدكم أو قال وحسبكم أن لا نعارضكم. فقال الراغب إنه ليس عندنا رجال يهتمون بالخدمة العامة، فقال اللورد بل عندكم رجلان الشيخ محمد عبده ورياض باشا فساعدوهما بالمال وهما يعملان للمسلمين ما يرقيهم ويرفع شأنهم.

العبرة الرابعة: رأيه في المتفرنجين

يظن هؤلاء المتفرنجون أن لهم مكانة عالية في نفوس الأوربيين لتشبههم بهم في عاداتهم وتزلفهم إليهم وإفراغ أموال البلاد في أكياسهم، وقد علم مما ذكره عن اللورد أنه لا يقيم لهم وزناً، وقد علمنا مثل هذا بل ما هو شر منه عن كثير من كبراء الأوربيين – علمنا أنهم يحتقرون هؤلاء المتفرنجين وفي ذلك من العبرة ما لا محل لشرحه في هذا المقام، واللبيب من تكفيه الإشارة. وأين اللبيب فيهم وقد أفسدت الخمور ألبابهم، وأضاع القمار صوابهم، فمعسرهم في حسرة على المال الذي يمتع شهوته، وموسرهم في حيرة لا يدري كيف يفني ثروته، ومنتهى الفخر عندهم كلب غريب يساير في الطرقات، ونوع جديد من المركبات، وفتاة أوربية تخاصر في المتنزهات، وتقبيح ما عليه قومهم من الآداب والعادات، وصرف العمر في التفنن في اللذات، وإن أذاقت الأمة ضعف الحياة وضعف الممات.

الطالب المسلم والمدرسة النصرانية[1]

أيها الأخوة الكرام:

إنكم أنتم محل رجاء البلاد بتربيتكم وما تتلقون من العلوم العالية لذلك أحب في هذا الوقت القصير أن أذكركم بما ينبغي لطالب العلم أن يكون عليه ليتحقق رجاء أمته فيه.

إن العلوم تطلب لغرضين صحيحين: أحدهما تكميل النفس وترقية العقل. وثانيهما العمل بالعلم. وللعمل به مسلكان: أحدهما جعله حرفة ومستغلاً للعامل والآخر جعله وسيلة لترقية الأمة وإعلاء شأنها، ويمكن الجمع بينهما.

الغرض الأول لا بد منه لكل عاقل وهو العون الأكبر على الغرض الثاني، فإن من استنار عقله بالعلوم وصار صحيح الحكم فيها تعلو همته ويكون جديراً بالإحسان في العمل والاتقان للصنع، فيجب إذاً أن يكون هو أول شيء تتوجه إليه همتكم وتعظم فيه رغبتكم.

يظن بعض ضعفاء العقول وصغار النفوس أن طلب العلم لأجل ترقية شأن الأمة به ينافي ما أودع في الغرائز من كون منفعة الإنسان لنفسه هي العلة الغائيَّة لكل عمل من أعماله وأن من توجه إلى ذلك وجعله همه من

(١) المنار، المجلد ١٢، الجزء ١، ص ١٦ - ٢٦. تاريخ ٢١ فبراير (شباط) ١٩٠٩. والعنوان الأصلي للخطاب هو: «خطاب صاحب المنار على طلاب الكليّة الأمريكانية المسلمين في بيروت».

حياته تفوته مصالحه ومنافعه التي لا بد له منها.

تلك خديعة الطبع اللئيم ووسوسة شيطان الخسة والصَّغار لصغار الهمم فقد رأينا بأعيننا وسمعنا وروينا عن التاريخ أن الذين يقفون حياتهم على خدمة أممهم لا يعوزهم الطعام واللباس اللائق بهم بل كانوا يفضلون عيشتهم على كل عيشة سواها، لما لهم من الكرامة ورفعة الذكر إن لم يكن في بداية أمرهم ففي نهايته.

إن من يسلك في طلب العلوم مسلك الاحتراف ويكون قصده منه أن يجعله دكاناً يتّجر به أو بستاناً يستغله ليعيش منه لا يرتفع به إلى ما هو أعلى من هذا القصد، فإن قيمته في الوجود لا تعلو قيمة غيره من أصحاب الحرف والصناعات العملية كالنجارة والحدادة والزراعة. لا أقول إن هؤلاء لا قيمة لهم وكيف أقول ذلك وأعمالهم لا بد منها للمجتمع الإنساني، وإنما أقول إن هؤلاء هم أهل الطبقات الدنيا من الناس الذين لم يرتقوا في أفق الإنسانية ويسهل على طلاب العلوم لأجل الكسب والاحتراف أن يكونوا في أفق أعلى من أفقهم بأن يوجهوا نفوسهم إلى إعلاء شأن الأمة بكسبهم وأعمالهم.

أيها الإخوة:

إن استعداد البشر للكمال لا حد له يعرف، ولا طرف له يوقف عنده، وإن الإنسان قد فطر على طلب الكمال فلا يصل إلى شيء منه إلا ويطلب ما فوقه، وإن أفراده يتفاوتون في ذلك تفاوتاً لا نظير له في غيره من المخلوقات؛ فمنهم من يكون وجوده بمقدار محيط جسمه لا يكاد يهمه شيء وراء توفية مطالبه، كبعض الحيوانات الدنيا، ومنهم من يتسع وجوده حتى يملأ بلداً كبيراً أو مملكة عظيمة، وربما تعلو ببعض الناس همتهم إلى جعل وجودهم المعنوي سارياً في أمم كثيرة مالئاً للأرض التي يعيش فيها الإنسان.

ولا نتكلم في هم الإنسان واستشرافه لما هو وراء ذلك من عالم الغيب.

إذا كان فضل الإنسان وسعة وجوده الإنساني على قدر نفعه بعلمه وعمله فلا شك أن من تتوجه نفسه إلى نفع جميع البشر يكون أفضل وأكمل ممن لا يتوجه إلا إلى نفع أمة واحدة أو شعب واحد. ولكن كيف يتأتى للفرد من الناس أن يخدم أمماً كثيرة؟

الجواب عن هذا السؤال يعرف من القاعدة المعقولة التي جاء بها الحديث النبوي وجرى عليها الشرع الإسلامي وهي «اِبدأ بنفسك ثم بمن تعول: الأقرب فالأقرب» وقد قال فقهاؤنا إن من وجد من القوت زيادة عن كفايته قدمه للأقرب إليه من ولد وزوج الخ، فإن وجد فضلاً أنفق منه على الأقربين من ذوي الحاجات حتى قالوا إنه يجب على المسلم أن ينفق على المضطر من غير المسلمين ما لم يكن محارباً لنا وأنه يقدم الجار على غيره لقربه!

فعلى هذا يجب علينا أن نبدأ بنشر العلم والقيام بالأعمال النافعة في أمتنا ومملكتنا وأن يقدم أهل كل بلدة خدمة بلدهم الذي يقيمون فيه على غيره من بلادهم، ثم نفيض بعد ذلك من علومنا وأعمالنا النافعة على غيرنا من الأمم على الوجه الذي سبقتنا إليه الأمم الحية في هذا العصر، وأمامكم العبرة في المدرسة التي تتعلمون فيها.

أليس منشئو هذه المدرسة يقصدون بها جعل العلم الذي ينفع الناس وسيلة لنشر لغتهم وبث تعاليم مذهبهم الديني في نفوس من يعلمونهم؟ بلى وإن في حالهم هذه لعبرة لنا يجب علينا أن نعتبر بها وأن نرفع أنفسنا لنكون أولى بهذه المنقبة منهم.

يجب عليكم أن تتعاونوا وتعتصموا بعروة الاجتماع وإنكم ربما تلقون كيداً

وإحراجاً لتشذوا وتتنكبوا جادة الاعتدال في استمساككم بدينكم وحرصكم على الاجتماع والتعاون، فيجب أن تتسع صدوركم لجميع ما تنكرون من معاملة من معكم وأن تقابلوهم بالأدب في القول والفعل، لأن الأدب من الفضيلة وهي مطلوبة لذاتها، ولئلا يكون لهم عليكم حجة بعد أن ثبتت لكم الحجة عند دولتكم ودولتهم.

إنكم لم تقصدوا بما كان منكم إلا إرضاء ضمائركم والمطابقة بين عقائدكم وأعمالكم، فحسبكم أن يتم لكم ذلك بالهدوء والسكينة والأدب. وإني أجلكم عن قصد العناد لرؤسائكم وأساتذتكم أو الجنوح للاستعلاء بالظفر لذاته.

وأوصيكم بالمحافظة على الصلوات الخمس ولو منفردين في حجراتكم وبالحرص على صلاة الجماعة كلما تيسر لكم ذلك، ولو على أرض حديقة المدرسة فقد قال نبينا صلى الله عليه وسلم «جعلت لي الأرض مسجداً وتربتها طهوراً».

إنكم قمتم بواجب ديني سلبي وهو الامتناع من دخول الكنيسة لسماع تعاليم دين غير دينكم، فعليكم بهذا العمل الإيجابي الذي هو عماد الدين (واستعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين).

المسلمون في مدارس الجمعيات النصرانية

المدرسة الكلية الأمريكانية

المدرسة الكلية الأمريكانية في بيروت كسائر مدارس الجمعيات النصرانية في الشرق، غرض مؤسسيها منها جعل العلم وسيلة إلى الدين، ولبعضها غرض سياسي أيضاً، فهي طريق من طرق الدعوة إلى مذاهب مؤسسيها في دينهم. ولهم وسائل أخرى كالمستشفيات والمكتبات وحجرات

القراءة يبثون فيها دعوتهم، وينشرون بها مذهبهم، إلا أن المدارس الأمريكانية أحسن من غيرها تعليماً وأعلى تأديباً وأشد استقلالاً وأقل تعصباً على المخالفين في الدين والسياسة، إذ ليس لأمريكا مطامع سياسية في هذه البلاد ولكن قد تؤيد هذه المدارس سياسة إنكلترا.

إن عقلاء المسلمين يقدرون غيرة مؤسسي هذه الجمعيات الدينية حق قدرها، ويعرفون مقدار المستخدمين فيها لنشر دينهم والتوسل إليه بالوسائل النافعة للناس في أجسامهم وعقولهم، ويتمنون لو يوجد في أمتهم الإسلامية أسخياء أجواد يبذلون المال لنشر الإسلام مع العلم النافع الذي هو أساس بنيانه، والعمل الصالح (كالمستشفيات) الذي هو أقوى أركانه، وإن عامة المسلمين يشعرون بشدة الحاجة إلى هذه المدارس التي أسست على دعوة النصرانية لما فيها من العلم، ويعلمون بما فيها من الضرر لأولادهم في الدين، فالعلم يقتضي الإقبال عليها، والخوف على عقائد النشء الجديد يمنع من الثقة بها، والجمهور مختلفون في الترجيح بين المانع والمقتضي.

فمنهم من يرجح المقتضي من غير تفكير في عواقب المانع لأن الشعور بالحاجة إلى العلم قد استحوذ على فكره، حتى حال بينه وبين سلطان قلبه، ومن يرجحه لاعتقاده أن المسلم لا يكون نصرانياً لأن الدين قد سار على سنَّة الارتقاء تبعاً لاستعداد البشر فكان الإسلام منتهى ارتقائه وهو الدين المعروف تاريخه، المتواتر كتابه، المحفوظ سند سنَّته ومن وصل إلى الدرجة العليا في شيء لا يرضى لنفسه أن يهبط إلى ما دونها، ولذلك يبذل دعاة النصرانية الألوف المكررة من الدنانير في دعوة المسلمين إلى دينهم بالأساليب العجيبة ويقضون السنين الكثيرة في البلد من بلادهم ولا ينجحون باستمالة رجل واحد وإرجاعه عن الإسلام! وإن كانوا يوهمون

جمعياتهم التي تمدهم بالمال فيكتبون إليها في كل عام أنه قد تنصر في هذه السنة على أيدينا فلان وفلان، ويذكرون أسماء سموها بأقلامهم لم يعرف مسمياتها الزمان، ولكن الإسلام يجذب إلى رحابه الفسيح في كل سنة ألوفاً من الناس بغير دعوة ولا ترغيب كترغيب دعاة الإنكليز والأمريكان، ولا ترهيب كترهيب دعاة الروس في بلادهم!

نعم ربما يقذف الفقر في كل حقبة من الزمن برجل من المسلمين جنسية لا حقيقة فيلقيه في ملجأ من ملاجئهم أو فناء من أفنيتهم فيسهل له العوز انتحال اسم من أسمائهم، أو لقب من ألقابهم، وربما أغراه المال بأن يكون داعياً من دعاتهم، كما فعل «أرميا الحزين» الذي استجاب لرقيتهم بمصر ثم فضحهم وهو يبشر لهم في الجزائر، إذ كتب مقالات في المؤيد بيَّن فيها أنهم يدّعون في كل بلد إسلامي نجاح دعوتهم في غيره، ويدعون في تقاريرهم التي يرسلونها إلى جمعياتهم أنهم ناجحون في كل بلد، والغالب فيمن يجنح لهم أن يعود إلى الإسلام ولو بعد حين.

وقال السيد جمال الدين الأفغاني في بيان سبب إخفاق دعوة المبشرين بين مسلمي الهند: إن المسلم لا يمكن أن يكون نصرانياً لأن الإسلام نصرانية وزيادة فإنه يقرر الإيمان بعيسى وبما جاء به من عند الله تعالى دون ما زاده الغلو على ذلك ويزيد على ذلك الإيمان بمحمد (عليهما الصلاة والسلام) وبما جاء به مصداقاً لما قبله.

وحدثني شاكر بك الذي كان رئيساً للجزاء بطرابلس الشام من بضع عشرة سنة أنه كان في بلدة ليس فيها مدرسة للبنات إلا لجمعية للراهبات فوضع بنتاً له فرأتها أمها يوماً ترسم شكل الصليب على وجهها أو صدرها فوجمت وامتعضت، وشكت وبكت، وقالت لا بد من إخراجها من هذه

المدرسة. قال فهونت عليها الأمر وكنت أقول لها: جانم إن ابن المسلم لا يكون نصرانياً أبداً ولم أقبل توسلها إلي بإخراجها، وقد تعلمت حتى أتمت تعليمها عند الراهبات وهي الآن تقرأ القرآن الشريف وتصلي وتصوم ولم يضرها حرص الراهبات على تنصيرها.

هذا ما يراه بعض الذين يعلمون أبناءهم وبناتهم في هذه المدارس الدينية. ومنهم من يرجح المانع على المقتضي كما هو المعتمد في المسألة عند أهل الأصول كما أشار إلى ذلك الشاعر بقوله:

قالوا فـلان عـالم فاضـل   فأكرموه   مثلما   يرتضي

فقلـت لـما لم يكن عامـلاً   تعـارض المانـع والمقتضي

ومبلغ حجة هؤلاء أن مذاهب الفقهاء المتبعة تحظر على المسلم المتمكن في دينه أن يدخل مع النصارى وغيرهم من المخالفين لنا في أصل الدين معابدهم بهيئتهم الدينية التي يدخلون فيها وصرحوا بأنه إذا تشبه بهم في ذلك بحيث يظن أنه منهم، صار مرتداً، وإن بقي متميزاً عنهم بحيث لا يشتبه بهم لا يكون مرتداً، إلا إذا قال أو فعل أو اعتقد ما يخالف ما هو مجمع عليه معلوم من الدين بالضرورة. ويقولون إن من الخطر على دين غير المتمكنين في دينهم كالأولاد الذين يوضعون في هذه المدارس أن يسمح لهم بهذه الأعمال التي يغلب أن تكون عندنا كفراً وردة، وأهونها أن تكون معصية، فإذا علق النوع الأول في ذهن التلميذ منا ومات قبل أن يصحح اعتقاده بمعاشرة المسلمين العارفين أو مراجعة العلماء الراسخين مات مرتداً لا نرثه ولا نعامله معاملة موتانا إذا كنا عالمين بحاله، وإذا مات أبوه أو أمه أو غيرهما من الأقربين، في حياته لا يرث هو منهم شيئاً. ويقولون أيضاً إن بعض فقهائنا صرح بأن الرضى بالكفر كفر، فإذا رضينا بشيء من ذلك نكون نحن

مرتدين أيضاً، وهذا الذي يتخوفونه على دينهم ليس ببعيد عن مدارس الكاثوليك والأرثوذكس، ولا سيما مدارس الجزويت كما بلغنا من مصادر كثيرة تصل إلى درجة التواتر المعنوي من أنهم يلزمون أولاد المسلمين بجميع تقاليدهم الدينية، حتى تعظيم الصور والتماثيل والاستغاثة بالقديسين، وذلك في حكم الإسلام شرك نعتقد أنه طرأ على النصرانية بعد المسيح عليه السلام وحوارييه عليهم الرضوان بعدة قرون، وإن كان القرآن لا يدخلهم في لقب المشركين ولا نحن نخاطبهم به لأنهم يتبرؤن منه ويتأذون به، وإيذاؤهم محرم علينا سواء كانوا ذميين أو معاهدين، وقد بينا ذلك في المنار أكثر من مرة. أما ما ذكرناه في هذا المقال فبيان لما يعتقده المتساهلون وغير المتساهلين منا نرجو أن يكون سبباً لحسن التفاهم بيننا وبين العقلاء المعتدلين منهم كعمدة المدرسة الكلية الأمريكانية في بيروت.

قد قلنا في أول المقال إن مدارس الأمريكان أقل تعصباً على المخالفين وقد جرى بيني وبين أحد أساتذة المدرسة الكلية الأمريكانية ببيروت حديث في الخلاف الذي جرى بين تلاميذ المسلمين وعمدة المدرسة على دخول الكنيسة لسماع الوعظ الديني، إذ امتنع التلاميذ من الدخول بعدما صارت الحكومة العثمانية دستورية حرة وأصرت المدرسة على إلزامهم أحد الأمرين: إما الاستمرار على دخول الكنيسة كما كان الأمر على عهد الحكومة الاستبدادية وإما الخروج من المدرسة وترك التعلم فيها، فاجتمعوا وتقاسموا لنثبتن على رأينا: لا ندخل ولا نخرج. حتى رفع الأمر إلى الآستانة، وبعد مراجعة حكومتنا هناك لسفير الولايات المتحدة تقرر بينهما ما بلغته نظارة الداخلية لوالي بيروت وهو أنه لا يلزم المسلمون دخول الكنيسة بل يجب أن يبنى لهم مسجد يصلون فيه. وأن السفير بلغ معتمد (قنصل) حكومته في بيروت ذلك ليبلغه المدرسة الكلية. وقد كان الحديث

بيني وبين ذلك الأستاذ قبل ورود هذا البلاغ من الآستانة وحضره جماعة من فضلاء النصارى.

قال الأستاذ ما معناه: إن المدرسة الكلية لا تعلم التلاميذ التقاليد والأعمال الدينية التي يقررها بعض مذاهب النصرانية ولا تطعن في أديانهم ولا مذاهبهم التي تخالف مذهب مؤسسيها، وإنما تلقي عليهم مواعظ عامة تتفق مع كل دين وإن كانت من الكتاب المقدس، لأجل أن تغرس في نفوسهم تقوى الله وحب الفضيلة وتبعدهم عن الإلحاد والتعطيل، فإن المؤسسين لها من أهل الدين والمحافظة عليه أهم مقاصدهم. وإن المكان الذي تلقى فيه المواعظ الدينية ليس كنيسة مؤسسة لأجل العبادة بل هو مكان تلقى فيه الخطب العلمية والأدبية وغيرها ويعزف الحسان فيه بآلات الموسيقى. (قال) فهل يحرم الدين الإسلامي على المسلمين دخول هذا المكان ويوجب عليهم مخالفة نظام المدرسة؟

قلت إن المسلمين فريقان منهم من يأخذ بالدليل ومنهم من يتبع فقهاء مذهبه، والمشهور عن فقهاء المذاهب التي عليها هؤلاء التلاميذ أن الدخول إلى معابد المخالفين لنا في الدين ومشاركتهم فيما هو خاص بهم من أمور الدين فيها وكذا في خارجها إما محرَّم وإما كفر في تفصيل لهم في ذلك، فلعل تلاميذكم يعتقدون أن دخول المكان الذي ذكرته من هذا القبيل، وحينئذ يجب احترام اعتقادهم وإن كان لا يقوم دليل في الإسلام على تحريم دخول مكان مثل الذي ذكرت ليس معبداً دينياً ولا يلقى فيه شيء مخالف للإسلام.

(ثم قلت) إن احترام النظام في المدارس والبيوت وكل مكان ركن عظيم من أركان التربية، ومن لم يتربَّ على احترام النظام والتزامه لا يكون رجلاً

عظيماً نافعاً لأمته ووطنه. ولكن احترام الاعتقاد والضمير أقدس وأعلى من احترام النظام، فإن من لا يحترم اعتقاد نفسه يكون منافقاً لا يوثق به في شيء من الأشياء. وإن إكراه التلميذ على ذلك أشد إفساداً لأخلاقه من كل ما يخطر في البال أنه يفسد الأخلاق، إذ لا يرجى ممن لا يحترم اعتقاده أن يحترم أسرته ولا أمته، فضلاً عن احترامه لمن لا يتصل به في وشيجة رحم ولا مصلحة وطن.

(قلت) إنني إذا رأيت إنساناً يعتقد بأن هذه البلاطة من الرخام (وأشرت إلى بلاطة في الأرض) تنفع وتضر ورأيته يعبدها ويحترمها فإنني لا أجيز لنفسي أن أكرهه على دوسها والوطء عليها ولا أن آمره بذلك إلا بعد أن أقنعه ببطلان اعتقاده فيها. وقد وقع لي واقعة في ذلك: وهي أن رجلاً أخبرني بأن خصماً لي في محاكمة شرعية حمله كتاباً إلى آخر وسألني ماذا يفعل فيه وأنا أعلم أنه يطيعني في كل ما آمره به وأن في الكتاب حجة لي على خصمي تصلح فصلاً للنزاع وتوفر عليّ وقتاً طويلاً ونفقة كثيرة، ولو شئت لأخذت الكتاب فإن حامله لا يخالف أمري، ومع هذا لم أستحل أن آمره بالخيانة. ولما حدثت مشكلة القضاء الشرعي بمصر من زهاء عشر سنين وعزم الإنكليز على إلزام الخديو بعزل القاضي المولَّى من السلطان، وتولية قاض مصري مكانه كره الخديو ذلك ولكنه لم يهتد إلى المخرج منه، فطلب أن يجيء الأستاذ الإمام من القاهرة إلى الإسكندرية (وكان الخديو في مصطافه فيها) فجاء (رحمه الله) ليلاً وقابل الأمير في الصباح فقال له إنني طلبتك بلسان البرق لأستشيرك في مشكلة القاضي وبعد خروجك من هنا سيدخل لورد كرومر لأجل أن يكلمني في وجوب عزل جمال الدين أفندي وتولية أحد علماء مصر منصب قضاء مصر الشرعي، وسيجتمع بعد ذهابه مجلس النظار هنا لتقرير

ذلك فبماذا أدفع اللورد بحسب رأيك؟ فقال الأستاذ إن الإنكليز من أشد خلق الله احتراماً لحرية الضمير والاعتقاد، حتى إنهم ربما ذكروا ذلك في قوانينهم، فإنهم لما وضعوا قانون التلقيح للوقاية من الجدري كان من مواده أنه يجبر عليه كل أحد إلا من يقول إن ضميره لا يجيز ذلك. فإذا كنتم تعتقدون أن تولية القاضي من حقوق السلطان وأنه لا يجوز لكم أن تعينوا القاضي من قبلكم فيكفي في إقناع اللورد بالرجوع عن طلبه أن يقول له أفندينا إن ضميري لا يسمح لي بذلك لأنني أعتقد أن هذا حق السلطان وحده. فمتى سمع هذا الجواب يذعن له، ولا يمكن لمثل لورد كرومر في تربيته الإنكليزية العالية أن يقول لكم خالفوا ضميركم. وقد كان الأمر كما قال الأستاذ، وبذلك انحلت المشكلة بعد أن كان عزل قاضي السلطان قد صار في الأمر المقضي الذي لا مراجعة فيه، حتى إن جمال الدين أفندي باع داره وتهيأ للسفر من مصر إلى الآستانة.

هذا ما أجبت به أحد أساتذة المدرسة الكلية وقد استحسنه من سمعه واعترفوا بأن من إفساد الأخلاق أن يؤمر الإنسان بفعل ما يعتقد أنه قبيح أو محرم عليه، ثم جاءني بعض تلاميذ الكلية من المسلمين وسألوني عن رأيي في مسألتهم وسألتهم عن سببها وعلتها فاستفدت من المراجعة ما يأتي:

١ – إن التلاميذ يُلزمون الدخول كل يوم الكنيسة (Chapel) والمكث ربع أو ثلث ساعة لسماع نبذة من العهد الجديد أو العهد العتيق تختم بالدعاء الذي يعبرون عنه بالصلاة، وكل يوم أحد ثلاث مرات يمكثون كل مرة زهاء ساعة ونصف.

٢ – إنه يوجد في المدرسة: جمعية أرمنية لتلاميذ الأرمن، وجمعية يونانية لليونانيين، وجمعية للمصريين من المسلمين والنصارى، وجمعية مسيحية تسمى جمعية الشبان المسيحيين، وجمعية لليهود.

٣ – طلب التلاميذ المسلمون إنشاء جمعية إسلامية تبحث في ترقي المسلمين مع عدم الخوض في السياسة فرفض طلبهم.

٤ – طلبوا أن يجتمعوا ليلة المولد النبوي للبحث في سبب الاحتفال في مثل ذلك اليوم وما يحسن فيه فمنعوا. فهذا هو السبب لتألب المسلمين. وذكر لي عبارات شاذة في الطعن في الإسلام تصريحاً أو تلويحاً سقطت من بعض رجال المدرسة الأمريكانيين هاجت النفوس وأعدتها للحركة التي ظهرت بعد ذلك عندما جاء وقتها، ولا نذكرها في هذا المقال لأنها ليست من نظام المدرسة ولا من أعمالها المطردة.

بعد هذا كله نقول إن مؤسسي المدرسة بأموالهم ومديري شؤونها والمعلمين فيها كلهم من أهل الفضل والخير والعلم بطبائع الأمم وأخلاق البشر وأحوال الاجتماع، فهم يعلمون أن الظلم (ومنه منع المسلمين من الاجتماع كاليهود بله النصارى) ينتج في المستقبل ضد ما يراد منه في الحال، وأن الأمم لا ترهق في زمن الدستور والحرية، بما كانت ترهقه في زمن الاستبداد والعبودية، فكان عليهم أن يتذكروا هذا فيلينوا ويتسامحوا مع التلاميذ المسلمين عند امتناعهم عن دخول الكنيسة ثم يستميلوهم إلى احترام المدرسة بالعدل والمساواة بينهم وبين غيرهم من الملل والشعوب في تأليف الجمعيات بأن يأذنوا لهم بتأليف جمعية إسلامية، فإن الرئيس الذي لا يعدل لا يطاع بالاحترام، وكيف يطالب بالنظام من يتعصب ويحابي في النظام! ثم يجعلون تلك المواعظ خالية مما يخالف الإسلام ويعارضه ويقنعون أولئك التلاميذ بأن حضورها بهذه الصفة لا يحظره الإسلام فيكون نفاقاً – وما أسهل ذلك عليهم إذا جاءوه من بابه.

إن جميع من في المدرسة الكلية من الرؤساء والمعلمين يعلمون أن ما يلقى فيها من المواعظ عادة لا يرد المسلم عن الإسلام إلى النصرانية ولكنه

لا يخلو من نوع من الألفة والمودة وتقريب الطوائف بعضها من بعض، وهذا المقصد العالي الذي يسعى إليه الحكماء الذين يخدمون الإنسانية خدمة خالصة من شوائب السياسة والهوى. فإذا كان رؤساء المدرسة يرمون إلى هذا الغرض فعليهم أن يتذكروا أن الرمي إليه عن قوس العزة والإدلال، والإكراه، والإذلال، هو الذي يطيش سهمه، ويفضي إلى ضد ما يراد منه وأن الحب لا يكون بالغصب، وإنما التحبب داعية الحب.

بلغني أنهم يقولون إن المدرسة مسيحية أنشئت بمال المسيحيين لأجل بث الدين المسيحي فمن لم يرض بدخول الكنيسة وتلقي التعليم المسيحي فيها فلا يدخلن مدرستنا! وهذا القول على مخالفته لفحوى ما سمعته من أحد معلمي المدرسة يمكن أن يقوله بعض رؤساء المدرسة احتجاجاً وانتصاراً لأنفسهم، وما أظن أن جميع أولي الشأن في المدرسة يرضون بأن يكون فصل الخطاب في المسألة حرمان المسلمين من المدرسة أو إخضاعهم لما سبق بيانه من المعاملة التي تنفر القلوب وتورث العداوة والبغضاء والتعصب الذميم.

وصفوة الكلام في هذا المقام أنه يتعذر على المدرسة الآن إلزام من فيها من المسلمين ما ذكروا بعد ما اجتمعوا وتقاسموا واتفقت حكومة الآستانة مع سفارة الولايات المتحدة على عدم جواز ذلك. وأن أمامها في السنة الآتية أحد أمرين: إما التساهل والتسامح في قبول التلاميذ المسلمين لتأليف النفوس وجذب القلوب بعضها إلى بعض والاكتفاء من الخدمة الدينية بهذا المقدار مع ترقية العقول بالعلم والنفوس بالتربية الأدبية الاجتماعية، وإما عدم قبول المسلمين في مدرستهم وهم أحرار مختارون في ذلك.

فإن اختاروا الأمر الأول حمدهم المسلمون وحمدتهم الإنسانية وكانوا

أقرب إلى مقصد الدين الحقيقي الذي لا خلاف فيه بين المسيحية والإسلامية وهي خير البشر وتآلفهم، وإن اختاروا الأمر الثاني فإنهم يعلمون المسلمين درساً جديداً قد يضرهم ويضر من يعيش معهم من جهة تباعد القلوب وقوة التعصب الذي يشكو منه محبو التأليف والتوفيق، ولكنه ينفعهم من جهة أخرى بما ينهض من هممهم ويرفع من نفوسهم ويدفعها إلى الاعتماد على ذاتها ومباراتهم في تأليف الجمعيات الدينية لإنشاء أمثال هذه المدارس لأنفسهم.

سيقولون إن المسلمين لا يستطيعون الآن إنشاء مدارس كالمدرسة الكلية بل كثيراً ما قالوا. ولكن هذا القول لا حجة له إلا ما يعهدون من بخل أغنياء المسلمين بالمال في سبيل العلم والدين. وهذا عرض لا يدوم فها نحن أولاء نرى إخواننا المصريين قد بدأوا يبذلون الألوف من الدنانير لإنشاء المدارس، وقد سبقهم إلى ذلك مسلمو الهند ومسلمو روسيا. وقد دبت الحياة في المملكة العثمانية، فيرجى أن تسبق غيرها في هذا المضمار لمكانتها العالية من سائر بلاد المسلمين.

إن مسلمي العثمانيين لا بد أن ينشطوا في هذا العصر من عقالهم ويعلموا أن التعليم الأجنبي المحض مهما عظم نفعه لا يؤمن ضرره، فإنه إن خلا من الطعن في الإسلام أو تفضيل غيره عليه فإنه لا يخلو من إضعاف للعاطفة الملية، وحل للرابطة القومية، فإنه يحوّل مجاري الفكر في العلوم ومهابَّ أهواء النفوس في الأخلاق والآداب إلى جهة المعلمين والمربين من الأجانب فيجعل عقول نابتتنا وقلوبها ملكاً لهم أو وقفاً عليهم أو مجذوبة إليهم أو مفضلة لمقومات أمتهم على غيرها، وبذلك ينقص من مقومات أمتنا ومن احترامها في نفوس نابتتنا بمقدار ما يزيد في نفوسها من عظمتهم فلا نطمع في مجاراتهم ومباراتهم، فضلاً عن مسابقتهم ومقاومتهم، بل نكون دائماً عيالاً

عليهم. ناهيك بما في العلوم من الشبهات على الدين التي يسهل دفعها عن الإسلام لو كان المعلمون عارفين بحقيقته، واردين عين شريعته.

فهذه العلوم التي تؤخذ من هذه المدارس لا تكون حياة حقيقية لأمتنا إلا بعد أن يصير زمام التعليم والتربية في أيدينا. فيجب على تلاميذنا، في المدرسة الكلية الأمريكانية في بيروت وعلى أمثالهم في غيرها، أن يعدوا أنفسهم ليكونوا عوناً لنا على ذلك بإتقان أساليب التعليم ونقل العلوم إلى لغتنا، وسيرون من الأمة نهضة مباركة في إمدادهم بالمال، وأن لا يكرهوا ما يرون من هضم حقوقهم وعدم مساواتهم برفاقهم من أبناء الملل الأخرى فإن هذه المعاملة هي التي تحرك غيرتهم وتجمع كلمتهم فليتقبلوها بسعة الصدر، وإطالة الفكر، وحسن المعاملة، وكثرة المجاملة، وطاعة النظام، ولين الكلام، والتواصي بالحق والصبر، حتى تكون حجتهم هي الناهضة وعاقبتهم هي الحسنى (وعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً).

الحرية واستقلال الفكر[١]

أيها الإخوان الكرام

إن المسائل التي نحتاج إلى البحث فيها واستجلاء غوامضها كثيرة جداً فمن الناس من إذا اقترح عليه أن يخطب يبادر إلى الكلام في الموضوع الذي يتبادر إلى ذهنه، سواء كان مطابقاً لمقتضى الحال يرجى أن يستفيد منه السامعون ما يصحح أفكارهم أو يقوم أعمالهم أم لا. ومنهم من يرى هذه الطريقة منتقدة وأنه لا بد أن يخاطب الناس بما يتعلق بحالهم وما ينبغي أن يكونوا عليه في أفكارهم وأعمالهم فلا يحثهم على ما لا سبيل إليه ولا يقرر ما لا يفهمون حقيقته.

مثال من ذلك: إن بعض الخطباء يقف فيقول أيها العثمانيون عليكم بالاتحاد عليكم بالائتلاف، إن الاتحاد هو مفيض العمران ومرقي الأوطان ورافع شأن الإنسان. ويكتفي بمثل هذه الخطابيات الجملة التي لا يعلم السامعون كيف يمكن العمل بها، فإن اتحاد المختلفين في التربية والتعليم والعقائد والأفكار والأخلاق والتقاليد والعادات من الأمور التي لا يمكن أن تحصل بمجرد الحث عليها ومدحها وإنما يجب بيان ما يشترك فيه من يراد حثهم على الاتحاد وإقناعهم بأن منافعهم ومصالحهم مرتبطة به وأنها إنما تحفظ وتنمو باتحادهم واتفاقهم وتذهب أو تضعف بتخاذلهم وتفرقهم.

---

(١) المنار، جزء ٢، مجلد ١٢، ص ١١٣ - ١١٧ (٢٢ آذار، ١٩٠٩). وهي آخر خطبة لرشيد رضا في بيروت، ألقاها في جمعية الجامعة العثمانية.

أما أنا فأقول إن كل كلام صحيح المعنى لا يخلو من فائدة، والفكرة الإجمالية لا تخرج إلى حيز التفصيل إلا بإبرازها بالقول أو بالكتابة، ومن لم يستفد اليوم من الكلام الصحيح فائدة تامة يرجى أن يستفيد غداً فليقل كل أحد ما يرى أنه حق نافع وليقدم الأهم على غيره وهو ما كانت حاجة الناس إليه أكثر. وإذا قيل لنا ما هو أهم ما نحتاج إليه الآن؟ قلنا إننا محتاجون إلى أشياء كثيرة من العلوم والأعمال لأجل أن ننهض لما نكون به أمة عزيزة، ولكن نهوضنا يتوقف على أمر عظيم لا يحصل بدونه. فما هو هذا الأمر الذي هو شرط للارتقاء في كل علم وكل عمل بحيث يلزم من عدمه العدم؟ ألا إنه هو الحرية الشخصية واستقلال الفكر.

قد قلت في بعض الخطب التي تكلمت فيها عن الحرية إن استعداد البشر للارتقاء ليس له حد يعرف ولا غاية تحدد، فإذا عاشوا ملايين من السنين يمكن أن يكونوا في ارتقاء مستمر لا ينقطع إذا كانت حريتهم في العلم والعمل مصونة من عبث المستبدين، فهكذا ترتقي الأمم على قدر صيانتها واحترامها للحرية وتتخلف عن الارتقاء بل ترجع إلى الوراء على قدر عبثها بالحرية وتحكمها في الباحثين والعاملين.

مضت سنة الله في البشر بأن الفكر يسبق العمل، فإذا كانت أفكار العقلاء والأذكياء مضغوطة ممنوعة من الحركة والنمو فإنها لا تكون مستقلة والأمة لا تخطو خطوة واحدة إلى الأمام إلا إذا أطلقنا العنان لجياد الأفكار تجول في ميادين الكتابة والخطابة بلا حجر ولا ضغط لا فرق في ذلك بين المسائل الدينية والاجتماعية والسياسية وغيرها.

يجب علينا أن نحترم رأي من يخالفنا كما نحترم رأي من يوافقنا، لأن الفلاح متوقف على ظهور الحقائق، وظهورها يتوقف على استقلال الأفكار

وحرية البحث والكتابة والخطابة، ولا يخاف على دينه من حرية البحث إلا من لا ثقة له بدينه، ومن كان واثقاً بأنه على الحق فإنه يعلم أن مخالفته فيه لا تزيده إلا قوة وظهوراً. فقد نطق الكتاب العزيز بما هو ثابت عقلاً واختباراً من أن الحق يعلو ولا يعلى، وأنه ما تصارع الحق والباطل إلا وصرع الأول الثاني (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق)، (وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً).

علينا أن نبحث بعد هذا عن انفسنا لنعلم هل نحن نحترم استقلال الفكر وحرية القول والعمل؟ هل قمنا بحق هذا الشرط الذي يتوقف عليه كل مقومات الحياة الاجتماعية والسياسية وأسبابها؟ إن حكومتنا تركت الضغط على عقولنا وأفكارنا والحجر على ألسنتنا وأقلامنا لنكون أحراراً في أقوالنا وأعمالنا فهل صرنا أحراراً بالفعل؟

نعم إن الحكومة تركت الاستبداد والاستعباد وأباحت لنا الحرية طوعاً أوكرهاً، ولكننا ما قبلناها، فإن الأفكار لا تزال مضغوطة محجوراً عليها أن تبرز من مضيق الدماغ إلى فضاء الوجود الخارجي والحرية الشخصية، مهددة لا من الحكومة بل منا أنفسنا.

في البلد حوادث حيوية كثيرة لا يكتب أحد من أصحاب الجرائد رأيه فيها بالحرية. ولماذا؟ أيخاف من « المراقب » أن يرمجها له؟ لا إن الجرائد لا تعرض الآن على المراقبين كما كانت تعرض في زمن استبداد الحكومة، ولكن ما سقط مراقب الحكومة إلا وتقاسم مثل عمله من لا يحصى من دهماء الأمة يفتاتون على أصحاب الجرائد وكتابها وعلى الحكومة نفسها، وربما كان هذا الاستبداد أشد وطأة وأثقل ضغطاً من استبداد الحكومة.

إن جرائد بيروت كان لها مدير واحد لسياستها هو المراقب، وكانت

نسبة أصحابها ومحرريها إليه كنسبة محرري الجرائد الكبيرة في البلاد الحرة إلى رئيس التحرير أو مدير السياسة. فكانوا إذا أرادوا كتابة شيء يتحرون أن يكون بحيث يرضيه وقد عرفوا ما يرضيه ويجيزه، فلم تكن مراعاته متعذرة عليهم ولكن يتعذر عليهم الآن أن يعرفوا ما يرضي هؤلاء المراقبين الذين حلوا محله، لأن عقولهم وآراءهم ليس لها قاعدة ترجع إليها ولا ميزان توزن به. فهل يمكن أن ترتقي الصحافة أو الأفكار في بلاد يفتات على حملة الأقلام وأرباب الأفكار فيها كل أحد حتى البحار والحمال وبائع الحمص والفول!!

إننا قد تغنينا باسم الحرية في أيام إعلان الدستور وألقينا الخطب الكثيرة في وصفها، وأنشدنا القصائد العديدة في مدحها والتغزل بها، وكان هتاف الجماهير للخطباء والشعراء، يعلو في الجو حتى يبلغ عنان السماء، وكتبنا ذلك الاسم الجميل «الحرية» بالخطوط الجميلة وزينا به البيوت والمعاهد العامة والخاصة والحدائق، فظهرنا بمظهر العاشق الولهان لهذه الحرية الجميلة، ولكنني أخشى أن نكون في عشقنا لها كعاشق أم عمرو؟ ولعل بعض الحاضرين لا يعرف خبر هذا العاشق فأذكره إعلاماً له وتذكيراً لغيره.

مر بعض الناس بصديق له مرة فرآه على غير ما يعهد: رآه قلقاً مضطرباً فسأله عن حاله فقال إنني عاشق ولهان لا يقر لي قرار، ولا يطيب لي اصطبار، ولا يهنأ لي طعام، ولا يزور جفني منام، قال له صاحبه من عشقت؟ قال عشقت أم عمرو، أجمل نساء العصر، قال من هي أم عمرو ومتى رأيت وجهها المليح، فبرح بك هذا التبريح؟ قال لا أدري من هي ولا لمحتها عيني وإنما سمعت رجلاً ينشد في الطريق:

يا أم عمرو جزاك الله مكرمة   ردّي عليّ فؤادي أينما كانا

فقلت في نفسي لولا أن أم عمرو هذه أبرع النساء جمالاً وحسناً،

وأوفرهن من القسامة قسماً، لما قال الشاعر فيها هذا القول فعشقتها.

وقد طال على هذا العاشق الأحمق عشق تلك المعشوقة المجهولة حتى مرّ به صاحبه يوماً فإذا هو يبكي ويندب قد ساورته الأحزان، وواثبته الأشجان، فسأله ما دهاك؟ فصاح أواه واويلاه! لقد بليت بأشد المصائب وأعظم النوائب، فقد ماتت أم عمرو. وغلبه النشيج وأخذ في النحيب، ولما سكت عنه الروع قال له ومن أخبرك بموتها فهل رأيتها وعرفتها؟ قال لا ولكنني سمعت الشاعر ينشد في الطريق:

لقد ذهب الحمار بأم عمرو   فلا رجعت ولا رجع الحمار

فقلت لولا أنها ماتت لرجعت ولما قال الشاعر هذا القول.

نعم إنني أخشى أن تكون حريتنا المعشوقة، هي أم عمرو المجهولة، فإن الحرية الحقيقية قد تعرفت إلينا فنكرناها، ورغبت فينا فرغبنا عنها، وأحبت القرب منا فاخترنا البعد عنها، وإلا فما بال الكثيرين منا، يسلطون العامة على من يبدي رأياً يخالف رأيهم أو هوى أنفسهم، يهددونه ويهينونه، وإذا لم يوجد له عصبة تمنعه منهم فإنهم يضربونه، ومتى كانت الحكومة المستبدة تضطهد حرية الفكر والعلم أشد من هذا الاضطهاد، وتحاول استعباداً أقبح من هذا الاستعباد. أي العبودتين أذل، العبودية للحكومة أم العبودية للعامة؟

كان الخطباء والشعراء يقولون في أيام عيد الحرية في مدح الأمة نحواً مما يقولونه في مدح الحرية نفسها لإظهار التناسب بينهما، ولا يزال كثيرون منهم يسمعوننا مدح أنفسنا، ويشيدون بفضلنا وفضل سلفنا، ويتمثلون بقول شاعرنا: نبني كما كانت أوائلنا... الخ. أما أخوكم هذا فيقول إن ما كان يقال في أيام عيد الحرية لا ينبغي أن يقال اليوم ولا في كل يوم. إن الأعياد

في عرف الناس هي أيام السرور والابتهاج فيحسن أن يتناسى فيها ما يسوء ويتحرى فيها ما يسر، وهذه أيام الجد والعمل فيجب أن نعرف فيها ما نحتاج إليه في هذا العصر لنجاري الأمم العزيزة القوية، الراتعة في بحبوحة المدنية، لا أن نمني النفس بالأقوال التي يلذ سماعها، ونترك السنن التي نرقى باتباعها.

يا قوم إننا مرضى ومن كتم داءه قتله، إننا مرضى ويجب علينا أن نداوي أنفسنا، إن الأدوية لا يقصد بها اللذة، بل يقصد بها المنفعة، هل سمعتم أن الأطباء يداوون المريض المدنف بإطعامه اللحوم المعالجة بالبقول والأفاويه والكنافة والبقلاوة والأشربة المثلوجة؟ لا لا إنهم يداوونه بالمسهلات البشعة الطعم والكينا المرة وربما داووه بالسكين ينال شيئاً من بدنه. وكذلك تكون أدوية الأمراض النفسية. وإنه ليسوءني أن أصرح لكم بما يؤلمكم ولكنها الحقيقة لا بد منها وإن كانت مرة كالدواء «أخوك من صدَقك لا من صدَّقك».

إن من فضل الحرية علينا أن صرنا قادرين على البحث عن مرضنا وعلى الاجتهاد في معالجته فيجب أن نعرف قيمة هذه النعمة وأن نشكر الله تعالى عليها بالعمل الذي نستفيد به منها.

أعود فأقول إننا لا يجوز لنا أن ندعي أننا عرفنا الحرية وأننا نقدرها قدرها إلا إذا كنا نحترم استقلال الفكر فلا نعارض أحداً في إبداء رأيه وإظهار علمه باللسان أو القلم ولا يمكن أن نخطو خطوة واحدة إلى الأمام بدون هذا.

فعليكم أيها الفضلاء المحبون لخير أمتكم وتقدم بلادكم أن تنصروا الاستقلال الذاتي والحرية الشخصية، وأن تبذلوا جهد المستطاع في بث هذا

الفكر في طبقات الأمة وتقنعوا أولئك الذين نسمع أخبار افتياتهم على الكتاب وأصحاب الجرائد بأن عملهم هذا ضار ببلادهم وأن الذين يغرونهم بذلك هم أهل الأهواء الذين يتبعون حظوظ أنفسهم ولو فيما يضر بلادهم.

انصروا حرية البحث والطباعة لكي تتجلى للأمة الحقائق فتعرف ما يضرها وما ينفعها، ولكي تتربى فيها العقول الكبيرة بعد رفع الضغط عنها. إن تعملوا هذا تخدموا بلادكم أجل خدمة. وأراني أطلت عليكم في هذا الكلام الحار مع حرارة الجو بكثرة الأضواء وازدحام الناس فحسبي هذا والسلام.

موجز لسيرة حياة
محمد رشيد رضا

★ ولد ونشأ في القلمون من أعمال طرابلس (لبنان)، سنة ١٢٨٢ هـ (١٨٦٥ م)، وتعلّم فيها وفي طرابلس.

★ رحل إلى مصر سنة ١٣١٥ هـ، (١٨٩٨ م) حيث لازم الشيخ الإمام محمد عبده. وفي السنة نفسها أصدر مجلة «المنار».

★ زار دمشق حين أعلن الدستور العثماني سنة ١٣٢٦ هـ. وفي أثناء خطبة له في الجامع الأموي، اعترضه أحد أعداء الإصلاح، فكانت فتنة عاد على أثرها إلى مصر. ثم زارها مرّة ثانية في أيام الملك فيصل وانتخب رئيساً للمؤتمر السوريّ فيها. وغادرها عند دخول الفرنسيين إليها سنة ١٩٢٠، للإقامة في مصر.

★ رحل إلى الهند والحجاز وأوروبا. واستقر أخيراً في مصر حيث توفّي فجأةً في سيّارة كان راجعاً بها من السويس إلى القاهرة، سنة ١٣٥٤ هـ. (١٩٣٥ م)، ودفن في القاهرة.

★ أهم أعماله: مجلّة «المنار» (٣٤ مجلداً)، تفسير القرآن الكريم (١٢ مجلّداً، ولم يكمله)، تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (ثلاثة مجلّدات)، نداء للجنس اللطيف، الوحي المحمدي، يسر الإسلام وأصول التشريع العام، الخلافة، الوهابيون والحجاز، محاورات المصلح والمقلّد، ذكرى المولد النبوي، شبهات النّصارى وحجج الإسلام.

إشارة

لمزيدٍ من التعرّف على حياته وآرائه، تراجع الكتب التالية:

أ- السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة، للأمير شكيب أرسلان، دمشق ١٩٣٧.

ب- رحلات الإمام محمد رشيد رضا، جمعها وحققها يوسف إيبش، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٩.

ج- مختارات سياسية من مجلّة «المنار»، تقديم ودراسة وجيه كوثراني، دار الطليعة، بيروت ١٩٨٠.

د- الأعلام، لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة، ١٩٧٩، المجلّد السادس، ص ١٢٦.

هـ- الفكر العربي في عصر النهضة، ألبرت حوراني، دار النهار للنشر، بيروت ١٩٦٨.

و- الإسلام والتجديد في مصر، تشارلز آدامس (ترجمة عباس محمود) لجنة دائرة المعارف الإسلامية، القاهرة، ١٩٣٥.

ز- رشيد رضا، صاحب المنار: عصره وحياته ومصادر ثقافته، أحمد الشرباصي، القاهرة ١٩٧٠.

فهرس